دراسات حول المدينة المنورة

(٢)

عارف حكمة

حياته ومآثره

أوْ

« شَهِيُّ النَّغَم في تَرجَمةِ شيخ الإسلام عارف الحِكَم »

تأليف

شِهَابُ الدِّين أبي الثَّنَاء محمُود بن عَبْدالله الألوسيّ

١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ

حقق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه

الدكتور محمد العيد الخطراوي

مكتبة دار التراث

المدينة المنورة - ص.ب ٢٨٨٥٢

مؤسسة علوم القرآن

دمشق - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أنزل إلى عباده الكتاب ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي اتخذ الكتّاب ، وعلى آله وأصحابه ذوي الألباب .

وبعد :

فقد خص الله المدينة المنورة - هذا البلد الطيب المبارك - بميزات كثيرة وفضائل شتى ، كان أعظمها جميعاً أنها مهاجر الرسول ﷺ ، ومنطلق دعوته ، ومحتضن رفاته ، وأنها ملتجأ المؤمنين ومأرز الإيمان ، حين تختل الموازين ويسود الكفر ويغلب على الكون الشيطان .

ومن ميزاتها الكبرى أيضاً أن فيها اكتمل نزول القرآن الكريم الذي هو أعظم كتاب ، وتم جمعه وتدوينه في صورة متكاملة في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، على يد لجنة من كبار الصحابة الحفاظ ، أحكمت جمعه وتدوينه وتثبتت من صحة أصوله وصدق مصادره ، ثم أودعته بيت أم المؤمنين حفصة رضي الله تعالى عنها ، فكان بيتها بذلك أول مكتبة للمخطوطات المصحفية بالذات ، وللمخطوطات بصفة عامة ، في الإسلام .

ثم جاء عثمان رضي الله تعالى عنه ، فرجع إلى تلك المكتبة العامرة ، واستخرج منها ذلك المخطوط الفرد ، وأوكل إلى لجنة أخرى من كبار الحفاظ أن

تتبّع آيات القرآن ، وتستخرج من هذا المصحف الفرد وفق قواعد ارتضتها الجماعة الإسلامية مجموعةً من المصاحف الهادية للأمة ، تنقذها من اضطرابها ، وتقيها الانزلاق في مهاوي الضياع والضلال ، فكان المصحف الإمام الذي استنسخت منه بعد ذلك كل نسخ القرآن . وكانت المدينة بذلك أول بلد تقوم فيه حركة نشر لكتاب في العالم الإسلامي ، وليس من المصادفة أن يكون أول عهد الأمة الإسلامية بالنشر هو القرآن ، وأن يكون مكان نشره المدينة المنورة ، فإن القرآن هو دستور هذه الأمة ، ومعتمد دنياها وآخرتها ، والمدينة هي مهاجر رسولها الكريم ، وهي الأرض التي ضمت رفاته ، ولثمت آخر أنفاسه ، وعقدت أجفانها على نور وجهه ، وأسماعها على صوته الحبيب ، صلوات الله وسلامه عليه .

وللمدينة في الحقيقة أوليات ليس لها آخر ، قد يكون من أهمها بالإضافة إلى ماسبق ، انطلاقة أول صحف حديثية مدونة منها ، جمعها أميرها أبو بكر بن حزم الأنصاري ، بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وذلك خشية دروس السنة بموت رجالها وتناقص أعلامها من أهل المدينة من الصحابة ، والتابعين .

ولا غرابة ـ والحالة هذه ـ أن يلتفت إلى هذا المعنى ، أولو الأمر في هذا العهد السعودي الزاهر ، فينشئوا فيها مطبعة للمصحف في الآونة الأخيرة ، تقوم بطبع ملايين المصاحف ، وتوفرها بين يدي المسلمين في جميع أنحاء الأرض ، ويقيموا أيضاً مكتبة للمصحف غدت تضم بين جنباتها عدداً كبيراً من المصاحف النادرة ، من حيث القدم والخط ، والمقاييس والأحجام . بالإضافة إلى كليتي القرآن والحديث بالجامعة الإسلامية ، تانكم الكليتان اللتان ينهل من معينهما كل طالب علم هيأ الله له فيهما فرصة الدراسة ، ومنحه نعمة الانتفاع بما فيهما من علوم هذين الأصلين العظيمين .

وقد ظلت دار الهجرة على مدى التاريخ موئلاً للعلم والعلماء ، ومرتاداً لطلبة العلم الشرعي واللغوي والتاريخي والأدبي ، معتزة بأعلامها وأشياخها ،

زاخرة بيوتاتها ومساجدها ومدارسها وأربطتها بالمكتبات الخاصة والعامة ، كان آخرها في العهود القديمة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة رحمه الله ، التي تعد بحق من المكتبات الهامة في العالم الإسلامي ، بما تحويه من نفائس المخطوطات ، وكان آخرها في العصر الحديث مكتبة الملك عبد العزيز ، التي تقف الآن صرحاً شامخاً للمعرفة ، تشهد بمدى إيمان هذه الدولة ورجالاتها بالعلم ودوره الأكيد في بناء كيان الأمة ورسم معالم الحياة .

ونحن إذ نهتم اليوم بنشر هذا الكتاب : (شهيّ النغم) الذي يترجم لشيخ الإسلام[1] عارف حكمة ، فإنما نفعل ذلك اعترافاً بفضله ، وتخليداً لذكره ، واعتزازاً بهذا الأثر العلمي الخالد المتمثل في مكتبته التي أشرنا إليها ، والتي عم نفعها المسلمين . بالإضافة إلى أنه كان من قضاة المدينة الأعلام ، الذين حققوا العدل وأحسنوا السيرة وحازوا رضى الناس .

وقد مدحه أبناء المدينة المنورة في حياته على لسان شعرائهم ، بغرّ القصائد ، وجعلوا نثرهم لجيده قلائد ، ومن بين تلك القصائد ماأورده الألوسي في هذا الكتاب للشاعر محمد أمين الزللي ، وغيره ، ومما لم يذكره الألوسي من ذلك قول الشاعر المدني الآخر حسن أفندي بوسنوي مادحاً له ومؤرخاً عام توليته قضاء المدينة :

---

(١) يصلح لقب شيخ الإسلام في الحقيقة أن يصدق على كل عالم عامل من علماء المسلمين ، وبخاصة من كانت له آثار علمية أو إصلاحية ، كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ولكنه أصبح في العهد العثماني وظيفة رسمية بارزة من وظائف الدولة ، يعتبر صاحبها الشخصية الثالثة في الدولة تقريباً ، وقد تتابع عليها جماعة من العلماء منهم عارف حكمة . وهو المرجع الأعلى لجميع الأمور الدينية والشرعية . وأول من تولاها في الدولة العثمانية ابن كمال باشا ، وذلك في عهد سليمان القانوني .

أمّن الدهر تائباً … والمنى رد آئبا
وعُقيب المطال بال … ـوعد أولى المطالبا
بانسجام لرحمة … فيه سحّت سحائبا
قد همى الوبلُ ساكبا … من حياها ، وسائبا
وكسا الروضَ ملبسا … جدّ للجدب سالبا
فحوى منه منظرا … جالبَ الأنس جاذبا
كم فنون به غدت … مثمرات مطائبا
وعلى عُوده شدا … بلبل اليُمن خاطبا
والتهاني هزارها … قام يحكي مجاوبا
رحمة صاب جودُها … وسقى الكل صائبا
هي من بحر (عارف) … برّ فاضت مذانبا
(عارف) عالم يرى … بالمبادي العواقبا
وخبير حوى حجا … أشطرَ الدهر حالبا
وجليل جثا به … عزّ جاها وجانبا
باسم الثغر ، وجهُه … لم يكن قطّ قاطبا
في سماء الهدى سما … بصفات كواكبا
يا لها من ثواقب … قد تسمت مناقبا
في سناء لها سنى … لاح يهدي المراقبا
بعلوم طوالع … ليس تلغى غواربا
ونوال خصوصه … عمّ كلاً مواهبا
لأياديه واحة … عنك تمحو المتاعبا
لم يعُد قطّ سائلاً … لم يفده ، وطالبا
وله رتبة زهت … وتسامت مراتبا
دونها كل منصب … لا يباهي مناصبا

فرع أصل نسيبه … لم يفاخر مناسبا
فاز رأس متوّج … منه حاز العصائبا
نعم عام بدا لنا … كاسي الفضل كاسبا
قام بالعدل قاضيا … فيه والجورَ قاضبا
طار توقيع صيته … وتعلّى مناكبا
لم يدع من مشارق … لم يجُبْ ، أو مغاربا
وكصبح مديحُه الـ … ـعذبُ يجلو الغياهبا
صادق فجرُ نوره … لم يلح قطُّ كاذبا
صانه الله راعياً … جلّ ، في الله راغبا
لم يزل سهمُ حكمه … في مراميه صائبا
وبحسنِ الأدا قضى … فرضَ حق ، وواجبا
عام سعد عجيبُه … قد أرانا العجائبا
ولكَمْ من رغائب الـ … خير أبدى غرائبا
جاء تاريخه كما … عدّ من كان حاسبا
ضمن بيت له غدا … حسنَ الودّ كاتبا
(عارف) العلم (أحمد) … جل بالشرع طائبا

٣٥١ ١٧١ ٥٣ ٣٣ ٦٠٣ ١٤ =

١٢٣٩ هـ

كما مدحه هذا الشاعر بقصائد أخرى مثبتة في ديوانه المخطوط الذي شرعت منذ عهد قريب في العمل على تحقيقه ونشره .

وقد اعتمدت في نشر هذا الكتاب (شهيّ النغم) على نسخة واحدة صورتها من مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، وعليها ختم هذا نصه : وقف المكتبة النعمانية في المدرسة المرجانية ببغداد عام ١٣١٧ هـ ، كما كتب على ظاهرها أيضاً مانصه :

استكتبه الفقير نعمان ابن المصنف غفر الله لهما ، سنة ١٢٩٩ هـ .

وعدد الأوراق في هذه النسخة سبع وثمانون . اشتملت كل صفحة على تسعة عشر سطراً ، وهي مكتوبة بخط النسخ ، بقلم متولي زاده عبد الرحمن أفندي محمد محسن الدوري البغدادي سنة ١٢٩٩ هـ ، كما جاء موضحاً في آخرها .

أما عن صحة نسبة الكتاب لمؤلفه أبي الثناء الألوسي فهو أمر أشار إليه غير واحد من المؤلفين ، ولا يتطرق إليه الشك بحال ، ومما قاله عنه الدكتور عبد الله الجبوري في تعليقة له على (المسك الأذفر ص ٧٣) متضمنة التعريف بالشيخ عارف حكمة : ولأبي الثناء رسالة في ترجمته ، اسمها : (شهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام ووليّ النعم ، مازالت مخطوطة ، ومنها نسخة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، برقم : (٥٩٣٣) ، ونشر الأثري ملخصاً لها في مجلة (الزهراء م / ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٧٤ ، ١٣٤٤ هـ) ، ثم نشره في مجلة المجمع العلمي العراقي ، (المجلد ١٩٥٠ م) .

والملاحظ أن رقم الكتاب الذي ذكره الجبوري هنا مخالف للرقم الذي ذكره هو نفسه للكتاب في فهرسه لمكتبة الأوقاف ، الجزء الرابع . كما أنه سماه هناك بشهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم ، وسماه هنا بشهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام ووليّ النعم ، بينما الأول هو الصواب ، كما هو مثبت بظاهر النسخة المخطوطة ، ولعل الوهم جاءه هنا من قول حفيد المؤلف في المسك الأذفر : وألف رسالة في ترجمة شيخ الإسلام ووليّ النعم ، سماها إذ طرب السامعين بشهيّ النغم[1] . وكذلك سماه الأثري في أعلام العراق .

أما ماكتبه العلامة الأثري حول الكتاب فإنني لم أحظ بالاطلاع عليه ، وقد كتبت لسيادته بالعراق في هذا الشأن ، فأفادني بأنه لا يملك من ذلك غير نسخته

(١) المسك الأذفر ص ٧٧ .

الشخصية مما كتبه ، وأنه لا يعرف للكتاب غير نسخة مكتبة الأوقاف ، وشجعني على المضي في تحقيقه ، مما جعلني أطمئن أكثر إلى سلامة عملي وجدواه ، فإن الشيخ محمد بهجة الأثري متخصص في الأسرة الألوسية ، عليم بأخبارها ، وله عنها وعن أعلامها عدة مقالات ومؤلفات .

هذا وقد كان عملي في التحقيق على النحو التالي :

(١) بعد حصولي على المصورة قمت بتبييضها بعد التأكد من صحة ألفاظها وعباراتها ، وهي من هذه الناحية خالية من الطمس والخروم ، وتمثلت الصعوبة في وجود بعض التصحيفات ، وفي خفاء بعض الكلمات المكتوبة في الأصل بالحبر الأحمر ، حيث استعصى وضوحها في التصوير ، وفي تداخل حروف بعض الكلمات بسبب محاولة تأنق الكاتب في الخط ، إلا أنها صعوبات أحسب أنني وفقت في تذليلها والتغلب عليها .

(٢) صنعت لموضوعات الكتاب العنوانات الوسطية والجانبية المناسبة ، ووضعتها بين قوسين مركّنين ، للدلالة على أنها ليست من صلب الكتاب .

(٣) قمت بعزو الأحاديث والآيات ، وبشرح بعض الألفاظ الصعبة وبعض الأمثال التي استعملها المؤلف .

(٤) كما قمت بترجمة معظم الأعلام التي وردت بالكتاب ، وما تركته منها كان في الغالب بسبب شهرته أو بسبب عدم عثوري على ترجمة له فيما لديّ من مراجع ، ولعلي أسدّ هذا النقص في طبعة تالية للكتاب إن شاء الله ، على أن الأمر - فيما نحسب - هين في ذلك ، لأن هذا الكتاب ليس هو من كتب الحديث ، ولا مما يحتاج رجاله إلى التوثيق .

(٥) وضعت مقدمة للتحقيق عرفت فيها بالكتاب ، وبينت بواعث اهتمامي به ، كما عرفت بمؤلفه الألوسي ، وقدمت للقارئ نبذة عن مكتبة عارف حكمة بالمدينة ، اعتقاداً مني أن ذلك مما يكمل بعض النقص في الكتاب ، لأن

مؤلفه لم يتحدث عنها بما يتناسب مع أهميتها ، إذ كان غرضه التأريخ لحياة صاحب المكتبة ، وهي إنما تمثل حلقة في سلسلة أفضاله وأياديه ، ودرة في عقد مفاخره ومعاليه . وهي التي من أجلها وقع اهتمامنا به ، وعملنا على نشر الكتاب .

ثم وضعت للكتاب فهرساً للموضوعات وآخر للأعلام ، تتمة للاستفادة منه ، وتسهيلاً للرجوع إلى موضوعاته .

غفر الله لنا ولصاحبه آمين

* * *

ترجمة الشهاب الألوسي

لئن كان المتتبعون لحركة النهضة العلمية الحديثة في بغداد يؤرخون بدايتها[1] بظهور الشيخ عبد الله السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ هـ ، ومناظراته الزاخرة بفنون العلم المختلفة مع علماء إيران وغيرهم ، وما أعقب ذلك من تفاعل والتفات جاد للتحصيل العلمي والبحث في الأصول والفروع ، فإن الذي لا شك فيه أن باعث النهضة الفكرية في العراق كله ، هو الإمام شهاب الدين الألوسي صاحب التفسير المعروف . ومؤلف هذا الكتاب (شهيّ النغم) ، الذي نلتقي فيه معه في هذه الرحلة ونقدمه لأول مرة إلى قراء العربية .

وهو أبو الثناء محمود بن عبد الله الألوسي ، الملقب بشهاب الدين ، المولود بالكرخ[2] سنة ١٢١٧ هـ في الرابع عشر من شهر شعبان ، الموافق ١٠ / ١٢ / ١٨٠٢ م ، وقد أرخ ذلك الشاعر الملاّ عبد الحميد الأطرقجي فقال :

لقد أشرف البدر السماوي ومن بدا ... سنى نوره عن مشرق لاح بالجود
به كمل الدين الحنيف مؤرخ : ... (تكملت العليا بميلاد محمود)[3]

والألوسي بهمزة غير ممدودة ولام مضمومة نسبة إلى ألوس ، كانت قديماً عبارة عن قرية واقعة على الفرات ، قرب عانات كما ذكر ياقوت الحموي[4] ، ثم أحاطت بها

---

(١) مقدمة عبد الله الجبوري على المسك الأذفر ص ٧ .

(٢) أعلام العراق للشيخ محمد بهجة الأثري ص ٢١ المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٥ هـ .

(٣) المسك الأذفر ص ٨٣ .

(٤) معجم البلدان ١ : ٣٢٦ .

مياهه فتحولت إلى جزيرة ضمن جزره الكثيرة المنتشرة على امتداده ، وهي بين الحُديثة وجزيرة الخزانة . وقد نسب إليها مجموعة من العلماء في القديم والحديث ، كان أقدمهم كما يرجح الجبوري : السيد محمد بن حصن بن خالد الألوسي . من أهل القرن الرابع الهجري على وجه التقريب .

والظاهرة الفريدة التي تميزت بها النهضة العلمية العراقية آنذاك أنها قامت على أكتاف أسر معينة ، نهضت بأعبائها ، وتولى أفرادها جيلاً بعد جيل حمل رايتها ، إلى أن انتشر التعليم وجاء عهد المدارس والجامعات ، ومن أهم هذه الأسر : الألوسية ـ السويدية ـ الرحبية ـ الحيدرية (الأكراد) ـ الشاوية ـ الحميرية ـ آل الشواف ـ آل الجميل ـ آل باش أعيان (العباسيون) في البصرة ـ الجليليون والعُمَريون في الموصل ـ آل القزويني في الحلّة ـ آل كبّة في بغداد ـ آل فيضي .

ولكن كان أبرزها جميعاً وأكبرها مكانة الأسرة الألوسية ، فقد استمر أبناؤها يشاركون بفاعلية في الحركة العلمية قرابة قرن من الزمن ابتداء بأبي الثناء وانتهاء بحفيده محمود شكري الألوسي المتوفى سنة ١٣٤٣ هـ الذي ترك للمكتبة العربية ثلاثة وستين مؤلفاً بين كتاب ورسالة ، من أجلّها كتابه (بلوغ الأرب في أحوال العرب) الذي طبع أكثر من مرة في ثلاثة أجزاء ، وكتابه (نيل المراد في أخبار بغداد) الذي أرخ فيه لبغداد وما جاورها من قرى وبلاد .

بل إن عهد هذه الأسرة بالعلم يمتد إلى ما قبل الشهاب ، حيث نجد أحد أفرادها وهو الشيخ إسماعيل الألوسي ، يتولى إفتاء بغداد في أواخر القرن الحادي عشر الهجري مدة خمس وعشرين سنة ، ثم يستعفي ويتفرغ للعلم والعبادة .

وبعد أن سكن أسلاف هذه الأسرة بغداد زمناً ، اضطروا بسبب الاضطرابات السياسية وبعض الفتن والقلاقل الاجتماعية التي أفقدت بغداد أمنها واستقرارها أن

يعودوا إلى ألوس ، كما استقر بعض أفرادها في عانات والحديثة وبروانة . وفي سنة ١١٧٠ هـ على وجه التقريب عاد السيد محمود بن درويش جد أبي الثناء إلى بغداد واتخذها وطناً له ومستقراً ، وبها توفي في مطلع القرن الثالث عشر[1] .

وقد ساق الجبوري نسب صاحبنا نقلاً عن (حديقة الورود) على النحو التالي :

محمود بن عبد الله بن محمود بن درويش بن عاشور بن محمد بن ناصر الدين بن حسين بن الحاج علي المكنى بأبي راشد بن حسين بن كمال الدين بن شمس الدين بن محمد بن شمس الدين بن حارس بن شمس الدين الأذربيجاني بن شهاب الدين بن أبي القاسم بن أمير بن محمد بن بيدار بن عيسى بن محمد بن أحمد بن موسى بن أحمد بن محمد بن أحمد الأعرج بن موسى المبرقع بن الإمام محمد الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي السجّاد زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب .

فالألوسيون على هذا النحو علويون أشراف ، يتصل نسبهم بالحسين رضي الله عنه ، بالإضافة إلى ما جمعوه إلى هذا النسب من شرف علمي مكّن لهم في قلوب الخاصة والعامة ، وأحلهم كثيراً من الوظائف الدينية الكبرى في الدولة العثمانية ، على عهد الولايات ثم الباشوية في العراق ، من إمامة وخطابة وقضاء وفتيا وتأليف في شتى المعارف والعلوم العربية والدينية .

هذا وقد نظم الشاعر عبد الباقي[2] المتوفى سنة ١٢٤٨ هـ نسب الألوسيين ، فقال مبتدئاً بأبي الثناء وكان معاصراً له :

---

(١) مقدمة المسك الأذفر ص ١٠ نقلاً عن مخطوطة (حديقة الورود ص ١٤٨) .

(٢) أعلام العراق ٩ - ١٠ .

السيد الـ(محمود) في الأفعال … سليل (عبد الله) ذي الأفضال
أبوه (محمود) بن (درويش) الذي … ينمى لـ(عاشور) غياث اللائذ
ابن (محمد) سليل (ناصر الدّ … ين) ينمى (للحسين) الطاهر
ابن (عليّ) بن (الحسين) المعتزى إلى … (كال الدين) ذي التعزّز
سليل (شمس الدين) ذي التبيين … ابن (محمد) بن (شمس الدين)
سليل (حارس) لـ (شمس الدين) … يعزى ، وذا نجل (شهاب الدين)
ابن (أبي القاسم) طاهر النسب … ابن (أمير) ذاك طاهر الحسب
ابن (محمد) إلى (بيدار) … يعزى ، كما قد جاء في الأخبار
وجاء من بعد أبيه (عيسى) … (محمد) بن (أحمد) بن (موسى)
و (أحمد) من بعده (محمد) … و (أحمد الأعرج) فهو السيد
ينمى إلى الشهير بـ (المبرقع … موسى) إلى (الجواد) فانعه وع
ابن (الرضا) أبوه (موسى الكاظم) … أبوه (جعفر) الإمام العالم
ابن (محمد الإمام الباقر) … سليل (زين العابدين) الطاهر
نجل (الحسين السبط) عالي الهمم … ريحانة الهادي شفيع الأمم
نجل (عليّ) الصهر ذي المفاخر … حاز العلا من كابر عن كابر
وأمه (فاطمة) البتول … بضعة (طه) المجتبى الرسول
صلى عليه الملك الوهاب … ما اتصلت بين الورى الأنساب

ورغم أن بعضهم[1] تعارف على أن السيد محمود بن درويش جد السيد أبي الثناء هو من ذرية الشيخ إسماعيل مفتي بغداد السابق ، إلا أننا نلاحظ أن اسم إسماعيل هذا لم يرد في سياق النسب الذي ذكرناه منقولاً عن المسك وأعلام العراق نثراً ونظماً . ولكن ذكر إسماعيل ورد في نسب زوجة محمود درويش وهي فاطمة

(١) المسك الأذفر ص ١٠ .

بنت محمد تاج الدين بن إبراهيم بن إسماعيل ، وينتهي نسبها إلى الحسن بن علي بن أبي طالب . قال الجبوري : إنهم ألوسيون من تكريت لا من بغداد ، ويعرفون بآل الطيار ، وإنهم غير الألوسيين الذين منهم صاحب الترجمة المعروفين بآل عاشور ، وأن الذي يربط بين الأسرتين هو المصاهرة التي أشرنا إليها .

حياته العلمية :

توفي العلامة أبو الثناء في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٧٠ هـ عن عمر قصير بسنواته زاخر بعطاءاته ، لم تتجاوز الثلاث والخمسين عداً ، ولكنها نيّفت على ذلك كثيراً ، علماً وإنتاجاً ، فقد قضى حياته كلها في التعليم والتعلم والتأليف والفتيا ، كانت حصيلتها الباقية مجموعة من المؤلفات القيمة ، بعدد سنيّ حياته أو تزيد ، لأن بعضها كان مكوّناً من مجلدات . ويمكننا من خلال هذه الكتب أن نرسم المعالم التقريبية لشخصيته العلمية ونحدد أبرز ملامحها ، فقد كان مفسراً حصيفاً ونحوياً مقتدراً ولغوياً متعمقاً ، وأديباً ذا بيان وفصاحة بين أقرانه ، يمارس الشعر على طريقة معاصريه ، فيأخذ منه بنصيب وينظمه عند الحاجة ، ولكنه لا ينصرف إليه بكليته ، ولا يجعل منه كلّ همه . وهو بالإضافة إلى ذلك مناقش بارع قويّ الحجة حاضر البراهين ، دقيق الملاحظة في رحلاته ومشاهداته . وأهم هاتيك الكتب حسبما أثبته حفيده السيد محمود شكري وتلميذ حفيده الشيخ الأثري ما يلي :

(١) روح المعاني ، في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . وقد طبعته المطبعة المنيرية بمصر في اثني عشر مجلداً ، ثم خصّه الدكتور محسن عبد الحميد بدراسة وافية في كتابه : (الألوسي مفسراً) ، الذي نشرته مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٣٨٨ هـ . يقول حفيده عن هذا الكتاب : (جمع من الدقائق والحقائق ما لا يسع شرحه كلام ، وقد تعقب فيه على الفخر الرازي في كثير من المسائل ... وأيّد فيه مذهب السلف الأسلم ، بل الأعلم والأحكم) .

عارف حكمة (٢)

وكان طبع لأول مرة في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠١ هـ في تسعة مجلدات ضخام .

(٢) الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية . (أعجز فيها كل همام ، وأتعب من بعده ممن يريد مساجلته من الأنام) . ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثين مسألة في مختلف العلوم . وقد طبع في القسطنطينية سنة ١٣١٧ هـ .

(٣) النفحات القدسية في الرد على الإمامية ، وهو من الكتب التي ألفها في صغره .

(٤) نهج السلامة إلى مباحث الإمامة . وهو من كتبه التي ألفها في الرد على الشيعة ، ولكنه مات قبل أن يتمه . ولعله كان توسيعاً للكتاب السابق فقد قال حفيده : (وألّف في صغره رسالة غير تامة في الرد على الإمامية ، سمّاها : « النفحات القدسية » ، وأحبّ بعد ذلك صوغها بأسلوب آخر بديع ... فألّف منها كراسين ، وحالت المنية في البين) .

(٥) الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية . وهي رسالة صغيرة (مع صغر حجمها اشتملت على رد أمهات مسائل الإمامية) ، ودافع فيها عن الصحابة .. أجازه عليها السلطان محمود إجازة عظيمة ، وطبعت في المطبعة الحميدية ببغداد سنة ١٣٠١ هـ .

(٦) شرح البرهان في إطاعة السلطان . وهو لا يزال مخطوطاً . وهو الكتاب الذي قدمه إلى والي بغداد عليّ رضا باشا ، فزاد من مكانته عنده .

(٧) الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب ، لعبد الباقي العمري والتي مطلعها :

جلّ ستر به الضريح مجلّل   إذ حوى الفخر مجملاً ومفصّل

طبع هذا الكتاب بمطبعة الفلاح بمصر سنة ١٣١٣ هـ ،ويبدو أن هذه القصيدة قبورية مشتملة على بعض مبالغات الصوفية ، ولذلك قال الأثري

عقب ذكره لهذا الكتاب : وقد كان - وهو هو - في غنى عن التعرض لمثل هذه الأمور .

(٨) الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية . في مدح الإمام علي رضي الله تعالى عنه ، وهي من نظم الشاعر السابق عبد الباقي العمري . ومطلعها :

أنت العليّ الذي فوق العلى رفعاً   ببطن مكة وسط البيت قد وضعا

وقد طبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٢٧٠ هـ .

(٩) الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد . وهو عبارة عن شرح لقصيدة الشاعر البغدادي : محمد جواد السياه بوشي المتوفى سنة ١٢٤٦ هـ ، التي قالها في رثاء هذا الشيخ ، وهذا الكتاب مطبوع في القاهرة سنة ١٢٧٨ هـ .

(١٠) غرائب الاغتراب ونزهة الألباب ، في الذهاب والإقامة والإياب . طبع بمطبعة الشابندر ببغداد سنة ١٣٢٧ هـ . قال عنه حفيده : (ولعمري إنه كتاب لم يحتو غيره على مثل ماحتوى عليه من أزهار الألفاظ والمعاني ، واشتمل عليه من درر فقرات تتحلى بها أجياد الغواني ، رحلة تشدّ إليها الرواحل ، وتطوى للاستفادة منها المراحل ، تضمنت كل فائدة عجيبة ،

وانطوت على كل نكتة غريبة ، بأسلوب بديع ، ونمط يخجل رياض الربيع ، وهو لدى من بلغ في حسن النظر أقصى الرتب ، تاريخ وعلم وأدب ، ترجم فيه مشائخه ومن لاقاه من العلماء والرجال ، وجمع بعض مراسلاته مع أحبائه وما قيل فيه من المدائح وما قال ، وذكر فيه نبذة مما جرى له مع شيخ الإسلام (يعني عارف حكمة) ، من الأبحاث السنية ، والمذاكرات العلمية ، بمزيد تدقيق ، وغاية تحقيق ، لا يعرج إلا بمعارج التوفيق) .

وقال عنه الأثري : وهو الرحلة الكبرى الجامعة لتراجم الرجال والأبحاث العلمية والأدبية التي جرت بينه وبين (عارف حكمة) ، وقد استوفى ما كان

له في إقامته في القسطنطينية ، وأعرض عن أشياء لم يمكنه ذكرها إلى يوم القيامة ، ولعل ذلك لأسباب سياسية .

وقال عنه الجبوري : وهو من أهم مراجع دراسة الحياة العلمية والاجتماعية والعمرانية في عصر المؤلف للعراق . وصف فيه رحلته إلى الأستانة ، معرفاً ببلدان : الموصل ، أرض روم ، ديار بكر ، جزيرة ابن عمر ، وذكر نشأته العلمية ، وشيوخه ، وعرّف بهم ، وذكر الكتب التي درسها عليهم .

(١١) نشوة الشَّمول في السفر إلى إسلامبول . طبع في بغداد ، في مطبعة الولاية سنة ١٢٩١ هـ وسماه حفيده : نشوة الشمول ، في الذهاب إلى إسلامبول ، وقال عنه : وهو لعمري أخمر من الخندريس للعقول .

(١٢) نشوة المدام ، في العود إلى مدينة السلام . طبع مع نشوة الشمول ، ومنفرداً سنة ١٢٩٣ هـ قال عنه حفيده : وهو مجرد فيض وإلهام .

(١٣) كشف الطرّة عن الغرة . طبع في المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠١ هـ ، وهو شرح وضعه على اختصاره لدرة الغواص ، بعد أن سمى ذلك المختصر بالغرّة ، وهو كتاب لغوي مهم ، ألفه أثناء إقامته في القسطنطينية .

(١٤) شهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحِكَم . وهو الذي نقدمه اليوم بتحقيقنا . وسماه الأثري : شهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام وولي النعم ، وقال : وهو أحمد عارف حكمة ، وقد لخصته وأضفت إليه ماوصلني عنه وعن خزانته العامرة في المدينة المنورة ، نشر التلخيص في المجلد الثاني من مجلة (الزهراء) بمصر لصاحبها السيد : محب الدين الخطيب .

(١٥) الفوائد السنية من الحواشي الكلنبويّة . في الآداب والمناظرة وهو مختصر حاشية مطولة جداً للكلنْبوي على حاشية مير أبي الفتح علي (الحنفية) في الآداب . اختصره في القسطنطينية أثناء تقرئته لابنه عبد الباقي حاشية مير . وكتبها على هامش النسخة ، ثم جرّدها ابنه السيد نعمان الألوسي وجمعها حذر الضياع .

(١٦) دقائق التفسير وهو مجموعة فريدة في بابها ، قال الأثري : إن المؤلف ذكرها في ص ٤٣١ من (غرائب الاغتراب) ، وأطلعه عليها شيخه وحفيده السيد محمود شكري .

(١٧) شجرة الأنوار ونوار الأزهار . وهي مما ألفه في القسطنطينية ، وقد أشار إليها في كتابه (الغرائب) ص ٢٢ .

(١٨) سُفرة الزاد لسَفْرة الجهاد . طبع في مطبعة دار السلام ببغداد سنة ١٣٣٣ هـ .

(١٩) بلوغ المرام من حل كلام ابن عصام . وهو عبارة عن حاشية في البلاغة في أبواب الاستعارة ، ألفه في صغره حين ذهابه إلى ألوس .

(٢٠) شرح السلّم في المنطق . كتبه وهو على مشارف العشرين من عمره . قال عنه حفيده : (وقد كان مسوّدة ، فأضاعه في أثناء عَوْده من ألوس ، فذهب وبقي عليه كثير شوق في النفوس) .

(٢١) حاشية شرح القطر . في النحو ، وهو من أنفس الكتب النحوية لديه ، كتبه في صباه ولم يتّمه فأتمّه ابنه نعمان ، وطبع في القدس سنة ١٣٢٠ هـ .

(٢٢) مقامات الألوسي . وهو عبارة عن مجموعة مقامات جيدة ، بعضها حقيقي والآخر خيالي ، طبعت في كربلاء ناقصة ومغلوطة كما يقول الأثري . قال حفيده عنها : (هي لهذا الزمان من جملة الحسنات ، منها ماهو في شرح حاله ، من مبداه إلى مآله ، ومنها ماهو خيالات أفكار ، أبدعها حسن الافتكار) .. والطبعة المشار إليها تمت سنة ١٢٧٣ هـ تحت اسم (مقامات ابن الألوسي) .

(٢٣) رسالة في الأنساب .

وبالإضافة إلى ماتقدم له فتاوى كثيرة ، كما (كتب أثناء طلبه لنفسه شيئاً كثيراً من الكتبَ العلمية ، والرسائل الشهية ، وله عدة مجامع ، قد أزهرت

رياضها بكل شهي من المسائل يانع ، ولولا ابتلاؤه بالمنصب ، ومجالسة الأحبة ، لأناف على المئات كتبه) .

والذي لاشك فيه أن هذا المستوى العلمي الذي بلغه الألوسي وهذه القدرة العجيبة على العطاء لم يأتيا عفواً ولم ينبعا من فراغ ، بل سبقهما إعداد مبكر ودراسة متواصلة ، يرفدهما ذهن متوقد وقريحة مواتية ، ويمكن لدارس حياته أن يرجع روافد ثقافته إلى أربعة أمور رئيسة هي :

١ ـ الدراسة المبكرة :

كانت أسرته ـ وكما أشرنا سابقاً ـ من الأسر المشهورة بالعلم والفضل في العراق ، به سمت مكانتهم ، وعلت مناصبهم ، وبه كانت لهم الحظوة أينما حلّوا . وذلك هيّأ لأبي الثناء نشأة علمية صالحة ، وجعله يفتح عينيه على الكتب ، وأذنيه على القرآن يقرؤه والده الشيخ عبد الله فيمتلئ به وجدانه ويأنس له قلبه ، وتردده شفتاه بوعي ودون وعي في طهر وإخبات ، وتتعلق نفسه بشخصية هذا الوالد الورع القارئ ، الذي كان يعمل مدرساً في مدرسة الشهيد علي باشا . وسرعان ما يتعلم على يديه القراءة والكتابة ، ويأخذ في تعلم القرآن ، فلا يبلغ السابعة من عمره حتى يكون قد حفظ منه أجزاء كثيرة ، وحفظ إلى جانبه جملة من المتون النحوية واللغوية ، ودرس كثيراً من المسائل الفقهية في المذهب الشافعي .

ولحظ الوالد ذكاء ابنه وسرّ بتحصيله وقوة استيعابه ، فضاعف من جهده معه ولسان حاله يقول :

وإذا رأيت في الهلال نموّه	أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً

ولم يشأ أن يكل تدريسه لغيره بل واصل تدريسه بنفسه ، فدرّسه بعد السابعة الفقه الحنفي والحديث والمنطق وجانباً آخر من علوم عصره . وفي كل يوم

كان يزداد إيماناً بملكات ولده اطمئناناً إلى ما كان يؤمله فيه . فلما بلغ سن العاشرة أذن له بالأخذ عن غيره من العلماء ، فنال على أيديهم خيراً كثيراً وعلماً وفيراً ، ومن هؤلاء الشيوخ :

(أ) الشيخ علاء الدين علي أفندي بن يوسف بن رمضان ، الحنفي الموصلي ، تحدث عنه الألوسي في كتابه غرائب الاغتراب (٩ ـ ١٥) وأثنى عليه ، وذكر أنه كان واسع العلم والمعرفة ، غير أنه كان ضيق الخلق ، بسبب بعض ظروف أحاطت به وتعرضه لعسف الحكام ، ومنهم الوالي داود باشا ، وكان هذا الشيخ ممن يمارسون نظم الشعر ، ويبثون من خلاله آلامهم وأحزانهم ، ومن ذلك قوله :

وزمان عدت علي لياليـ	ـه وقصت قوادمي وجناحي
ودعتني صروفه في شتات	وعناء وخيبة ونزاح
لا لذنب أتيته غير أن الـ	ـفضل لم تلقه قرين النجاح
وإذا ما الصلاح فيكم فساد	ففسادي الذي لديكم صلاحي

ومات سنة ١٢٤٣ هـ .

(ب) الشيخ خالد النقشبندي ، وتأتي ترجمته في التعليق على هذا الكتاب . ومن منطلق الوفاء لهذا الشيخ كتب كتابه : (الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد) .

(جـ) الشيخ محمد أمين بن السيد علي الحلّي ثم البغدادي ، ترجم له أيضاً في كتابه : (غرائب الاغتراب) .. وذكر أنه كان صاحب فصاحة وبيان ، إلا أنه كان ذا ولع بالغريب ، مع وقوع في الأخطاء ، جاءه من عدم التثبّت في النقل والقول .

(د) الملاّ عبد العزيز أفندي الشواف أو شواف زاده ، وكانت أكثر قراءاته عليه وبخاصة علوم العربية . التي اشتهر بها هذا الشيخ بين علماء زمانه ، حتى

لقبوه بسيبويه الثاني ، وتوفي بالطاعون سنة ١٢٤٦ هـ ، وهي نفس السنة التي توفي فيها والد الألوسي .

٢ ـ القراءة :

كان الألوسي صاحب همّة عالية في الاشتغال بالعلم منذ نعومة أظفاره ، مقبلاً على القراءة ، لا يكاد يقع كتاب في يده إلا التهم مافيه واستوعب موضوعاته ، وقد أباح له والده مكتبته مع إشراف وتوجيه ، ويبدو أن حبه للقراءة كان ضمن الأسباب التي زينت له تولي منصب محافظ مكتبة المدرسة التي كان يعمل فيها والده ، وهي مدرسة الشهيد علي باشا . قال عنه حفيده في المسك الأذفر : (كان في غاية الحرص على تزايد علمه ، وتوفير نصيبه وسهمه ، لا يفتر برهة عن اكتساب الفوائد ، ولا يغفل لحظة عن اقتناص الشوارد) ، ثم يقول : (وكانت رغبته عليه الرحمة في العلم وتحقيقاته ، أشد من رغبته في عيشه وحياته ، حيث جبلت نفسه الزكية على طلب المعارف ، والتفيؤ بظلال العوارف ، ولم يزل علمه واشتغاله في زيادة ، حتى رحل إلى جنة الخلد ودار السعادة) .

ولعل مما مكن لعادة القراءة فيه بالإضافة إلى ماقدمنا ، اشتغاله بالتدريس والوعظ والإفتاء ، فإنها أمور لا ينجح فيها غير المداومين على القراءة والاطلاع .

عمل مدرساً في محلة رأس القرية بالمدرسة التي بناها الحاج أمين شقيق النعمان وواعظاً وخطيباً للمسجد التابع لها[1] .

وبعد موت والده بالطاعون الذي اجتاح الكرخ انتقل إلى الرصافة بجوار مسجد الشيخ عبد القادر الجيلي ، وتولى سنة ١٢٤٨ هـ الخطابة والوعظ والتدريس فيه ، كما كان يؤدي دروساً أخرى في بيته وفي المدرسة التابعة للمسجد ،

---

(١) أعلام العراق ص ٢٢ .

حتى بلغت دروسه ثلاثة عشر درساً في اليوم الواحد ، وقد تزيد أحياناً فتصل أربعة وعشرين : (وربما درس قبل الفجر على المصباح ، حتى ينجلي الليل ويتبلج الصباح ، واشتغل عليه خلق كثير من قاص ودان ، وتخرج عليه جماعة من الأفاضل والأعيان ، وقصدته الطلبة من سائر الأرجاء ، وتهافتوا عليه ولا تهافت الظمآن على الماء ، وهو مع ذلك لا يكلف أحداً فوق طاقته ، ولا يملي على طالب إلا على حسب استعداده وقابليته ، وكان في الوعظ الآية التي لم يسمع لها بمثال ، بأسلوب عجيب لا يكاد يحيط به خيال) ، واتفق أن حضر درسه الوزير علي رضا باشا والي بغداد ، فأعجب بوعظه وغزارة علمه فدعاه إلى زيارته وتوطدت بعد ذلك العلاقة بينهما ، وفي هذه الأثناء ألف الألوسي كتابه : (شرح البرهان في إطاعة السلطان) . وأهداه إلى الوزير المذكور فأجازه عليه بتوليته أوقاف المدرسة المرجانية وذلك في سنة ١٢٤٩ هـ . ولم يكتف ذلك الوزير في التعبير عن إعجابه بالألوسي عند هذا الحد ، بل جلب له سنة ١٢٥٠ هـ رتبة تدريس الآستانة من السلطان ، وهي رتبة عالية قل من يحصل عليها من العلماء ، ثم لم يلبث أن فوض إليه إفتاء الحنفية في بغداد ، وبذلك كثر حسّاده والكائدون له ، ولكن مساعيهم تبوء بالفشل أمام حب الوالي له وثقته بعلمه وإخلاصه . ونال نيشان الافتخار من الدولة العليّة ، وهو مالم يحصل عليه أحد قبله من علماء العراق . ولكن دوام الحال من المحال . فقد نقل هذا الوالي إلى دمشق ، وأسندت ولاية بغداد لمحمد نجيب باشا الذي كان قبل ذلك والياً على دمشق ، وكان فيه ميل إلى الظلم والجور ، وكان الألوسي كثيراً ما يقوم بنصحه وتخويفه من عقاب الله ويدعوه إلى الإنصاف والعدل ، وحينئذ استطاع الوشاة أن يصلوا إلى مقاصدهم فأوغروا صدر الوالي عليه ، ولا يستبعد أن يكونوا أقنعوه بأن الألوسي لا يمكن أن يخلص له ، بعد ماكان بينه وبين الوالي السابق من ود ، وقد يتعمد الإساءة له والتشويش عليه ، فأساء معاملته وحاصره في كل الاتجاهات وأحصى عليه أنفاسه ، وكتب إلى السلطان مراراً بطلب عزله ، ولم

يوفق . ثم صادف أن جاء كتاب من السلطان سنة ١٢٦٣ هـ يدعو فيه الألوسي إلى ختان أبنائه ، فأوقع الوالي في رُوعه المخاوف العديدة وأوحى إليه أنه إن خرج من بغداد فلن يعود إليها ، وكان رحمه الله حريصاً على الإقامة في بلده العراق ، شديد الحب لوطنه ومسقط رأسه ، فمال إلى الاعتذار عن حضور الحفل ، ولما لم يجد ما يعتذر به ، زيّن له الوالي أن يعتذر ببعد الشقة والاشتغال بكتابة التفسير ، والقيام بخدمة الولاية والوالي ، ففعل كما أشار عليه ، بحسن نية وسلامة طوية . وسر الوالي بذلك أيما سرور ، ومبالغة منه في الكيد للشيخ أرسل اعتذاره عن طريق السفير الفرنسي ليوهم السلطان أن الشيخ على صلة بدولة أجنبية معادية للخلافة . وهو الأمر الذي أشار إليه الألوسي في ص ٥٧ من هذا الكتاب . وانطلت الحيلة على السلطان فأصدر أمره بعزل الألوسي عن منصب الإفتاء .

ووجد الوالي الفرصة سانحة أمامه للاستشفاء منه ، فلم يكتف بتنفيذ أمر السلطان ، بل عزله أيضاً عن أوقاف المرجانية ، وقطع عنه راتبه منها ، وجرّده من جميع وظائفه ، فضاقت ذات يده وعضه الفقر ، ولكنه بقي شامخاً كالطود ، ولم يحن للبغاة رأساً ، ولسان حاله يقول مع أبي ذؤيب الهذلي :

وتجلّدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتزعزع

وانقطع للتدريس في بيته ، وواصل الكتابة في التفسير وغيره . إلى أن قدم إلى بغداد أحمد بك ولد الوالي المذكور ، وأحس بمدى ظلم والده للشيخ ، فنظر إليه بعين اللطف ، وأجرى عليه بعض ما يصلح من شأنه ، وأعاد إليه بعض وظائفه .

ثم أسندت ولاية العراق للمشير عبد الكريم نادر باشا الشهير بعبدي باشا ، والمتوفى سنة ١٣٠١ هـ في جزيرة رودس . فوجد منه الألوسي تقديراً ظاهراً وتعاطفاً كبيراً ، ولكن عبدي لم يستطع إزالة ما علق في نفس السلطان حوله ، ولم يجرؤ على إعادته إلى سابق مكانته . ثم عزل هذا الوالي سنة ٦٧ عن بغداد ونقل

والياً على ديار بكر ، فلم يجد الألوسي بدّاً من السفر إلى الآستانة لعرض أمره على الحكومة ، فسافر مع الوالي المذكور حاملاً معه كتابه في التفسير الذي كان قد أتمّه في ذلك العام . وفي الموصل وديار بكر وأرض روم كان العلماء يستقبلونه بالإجلال والاحترام ، وجعل يلقي في طلاب العلم دروساً في التفسير ، فيزدحم عليه المريدون وتكتظ حلقته بالطلاب ، وشاع اسمه عند الصغير والكبير ، وسبقته شهرته إلى كل بلد مرَّ به في طريقه ، حتى دخل الآستانة في رمضان من هذه السنة ، وذهب عقب وصوله إليها لمقابلة شيخ الإسلام عارف حكمة فلم يحسن في أول الأمر استقباله ، وذلك بسبب الوشايات من حوله ، وحين عرف كذب تلك الوشايات قرّبه إليه وجعله من أخلص خلصائه ، ثم كتب عريضة إلى الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا ، ذيلها ببيتين هما :

قصدت من الزوراء صدراً معظماً ... وقد سامني ضر ، وقد ساءني دهر

فقلت لنفسي والرجاء موفّر ... (لنا الصبر دون العالمين أو القبر)

فأعجب بها الصدر ، وأسهم مع شيخ الإسلام في تنقية الجو بينه وبين السلطان وتصحيح صورته المشوهة لديه فصدرت إرادة السلطان عبد المجيد بالرضا عنه ، وفرْض مرتبٍ دائم له من بيت المال ، كما ساعده شيخ الإسلام بخمسين ألف قرش إستنبولي .

واجتمع في الآستانة بأعيان علمائها وأجلاء أمرائها ، واحتل بينهم مكانة مرموقة ، وحبذ له شيخ الإسلام الإقامة الدائمة فيها ، ولكنه آثر الرجوع إلى وطنه ، فغادرها في شوال ٩٨ بعد أن قضى فيها واحداً وعشرين شهراً ، ومرّ في طريقه بديار بكر وغيرها من البلاد ، وكان يتوقف فيها قضاء لحق الودّ واستجابة لأهليها من طلاب العلم والولاة ، ووصل إلى بغداد في ربيع الأول من سنة ١٢٦٩ هـ ، فكان يومُ وصوله عيداً ، واستقبله أهلها بالترحاب ، وهنأه كثير من الشعراء بالمدائح الطوال . وكان من نتائج تلك الرحلة أربعة كتب من كتبه

القيـة هي : نشوة الشَمول في الذهـاب إلى إسلامبول ـ نشـوة المدام في العـود إلى مدينة السلام ـ غرائب الاغتراب في الذهـاب والإقـامـة والإيـاب ـ شهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم .

٣ ـ المناظرات :

يقول حفيـده في هـذا الصـدد : (وكان مجلسـه مجمعـاً لصوب العقـول وذوب العلوم ، ومنتطح الفحول ، ومجمع الفضلاء ، وحليـة الشعراء ، ومزدحم الأجلاء ، قد غص في أكثر الأوقات ، بالأعيان والسـادات ، وكان رزينـاً في بحثـه بصوت[١] لا يكاد يسمع ، ولين مطمع ، وكان في الدرس جهوري الصوت على خلاف ذلك ، معلناً صادعاً بما هنالك . وكم له من بحث مع علماء الإمـاميـة فـأفحمهم ، وبلجـام الإلـزام ألجمهم ، وبحجر السكـوت ألقمهم ، ومن عجيب مـا اتفـق أنه بـاحث مرة بعض كبار مجتهديهم وعمدة مقلـديهم ، فشرع في البحث وأخـذ القلم ، فحرر وقرر وما تلعثم ، وبعد الختام والإلزام ، ألقى الورقة للحـاضرين ، فـإذا هي رسـالـة في غاية البلاغة والصحة لبعض أحبته الكرام .

وكان كثيراً ما يذهب أيام الشباب ، لقصبة الكاظمية للبحث مع من هنـاك من العلماء والطلاب) .

وعاش سلسلة من المناظرات واللقاءات العلمية في الآستانـة في مجـالس الشيخ عـارف حكـة وغيره من العلمـاء كما أشرنـا آنفـاً ، وقـد كانت النتيجـة العمليـة للمناظرات في حياته العلمية أنها مكنتـه من نـاصيـة الحجـاج ، وشحـذت ذهنـه ، ومنحته ملكة عقلية غالبة ، وحررت فكره من التقليـد الأعمى ، صحيح أنـه بـدأ حياته شافعياً ، وتقلد في حياته الوظيفية إفتاء الحنفية ، ولكنه كان يأخـذ نفسـه باتباع الدليل متى ثبتت عنـده صحتـه ، وكان يقول (إن العـالم إذا علم الـدليل ، لا يعذر بالتقليد ، وليس عن العمل باجتهاده من محيد) .

(١) كذا في المسك الأذفر ، ولعلها : في بحّة صوت .

٤ ـ الرحلات :

لم يكن به شوق في الحقيقة إلى الرحلات ، لأنـه كما أشرنـا كان شـديـد الحب للأهل والولد ، اضطر تحت ضغط الظروف أن يرتحل إلى الآستانة ، وهي رحلة استغرقت أكثر من سنتين ، شـاهـد فيهـا بـلاداً كثيرة ، ولقي خـلالهـا العلمـاء والأعيان والأمراء والولاة في الموصل وديار بكر وسيواس والآستانة ، وغيرهـا من البلاد الواقعة في طريق ذهابه وإيابه ، عرف منها مالم يكن يعرفـه ، واطلع على مالم يكن ليطلع عليه لو مكث في بغـداد ، بـالإضـافـة إلى رد اعتبـاره واستعـادة كرامته ، وكان من ثمار تلك الرحلة الكتب التي أشرنا إليها قبل قليل .

وبقي أن نقـول أنـه كان شخصـاً فطنـاً دمث الأخـلاق ، قـويّ الحجـة حلـو الحديث ، محبوباً لدى جلسائه وعشرائه .

فلما مات سنة ١٢٧٠ هـ رثاه الشعراء بأصدق القصائد ، وبكاه النـاس بـأحر العبرات ، ودفن مع أهله ببغداد . وقد جمع تلميذه عبد الفتاح الشواف كل مـاقيل فيه من مدائح في حياته ، ومراث بعد مماته ، وجعلها في كتاب سماه : (حـديقـة الورود في مدائح أبي الثناء محمود) .

وترك من الأولاد : عبـد الله ، وعبـد البـاقي ، ومحمد حـامـد ، وشـاكراً ، ونعمان ،وهو مالك المخطوطة التي اعتمدناها في تحقيق هذا الكتـاب . وكانوا جميعاً من العلماء .

ومن الشعراء الذين رثوه الشاعر عبد الغفار الأخرس ، ومطلع مرثيته :

الله يعلم والأنـــــام شهـــــود   أن الـــذي فقـــد الـــورى لفريـــد
كان الإمــامَ بـــه الأئمـةُ تقتـــدي   فلـــه الهـــدى ولغيره التقليـــد

وختمها بقوله :

يـاشـدّ مـادهم العراق بسـاعـة … خشنـاء يصـدع عنـدهـا الجلمـود

إذ حـان حَيْن أبي الثنـاء وجـاءه … بين الأكارم يـومـه المـوعـود

ونعـاه نـاعيـه وقـال مـؤرخـاً … قـد مـات ويـك أبو الثنـا محمـود

١٢٧٠ هـ

أما أسلوبه في هذا الكتاب ، فقد أثقله بالسجع ومختلف المحسنات البديعية الأخرى ، من جناس وطباق وتضين وازدواج وتجريد ، وغيرها ، كا يلاحظ في جُمله الطول النسبي ، وأن التمسك بالحسن البديعي كثيراً ما يجبره على المباعدة بين أجزاء الجملة الواحدة ، مما قد يؤخر فهم المراد لأول وهلة . ويلاحظ عليه أيضاً الإكثار من الجمل الاعتراضية بغرض الدعاء أو القسم ، وتظهر من خلال وصفه للمشاهد والأشخاص بعض المبالغات التي قد تبدو غير مقبولة ، والمسحة الأدبية بصفة عامة بارزة في الكتاب ، برغم أنه في عداد كتب التاريخ ، فهو يتخير الألفاظ ، ويضرب الأمثال ، ويستشهد بالأشعار أو ينشئها ، وقد يبدي بعض الأحكام النقدية السريعة حول ما يورده من تلك الأشعار .

وعلى العموم كان الألوسي في هذا الكتاب وغيره من كتبه ثمرة جهده ونتاج عصره ، واشترك في شتى المعارف والعلوم ، كا حاول أن تكون له في الأدب مشاركات فكان له بحق كل ماأراد .

* * *

كلمة

حول مكتبة عارف حكمة

تعتبر هذه المكتبة دون ريب ، من أجلّ المآثر لشيخ الإسلام عارف حكمة ، ومن مفاخر المدينة المنورة في العصر الحديث ، إذ هي من المكتبات الكبرى ذات القيمة التراثية العالية في العالم ، لكونها تضم بين جنباتها عدداً من المخطوطات النادرة ، في شتى العلوم والفنون ، وتزخر بالجم من تراث العربية والإسلام ، في الفارسية والتركية والعربية . ويعتقد أن موجوداتها من تلك المخطوطات تربو عن خمسة آلاف مخطوط ، بين رسالة وكتاب ، ويجزم بعضهم بأنها تشتمل على ٦٧٢٦ كتاباً ، منها ٢٠٠٨ مطبوعاً ، و (٤٧١٨) مخطوطاً[١] ، أما محمد كرد علي فإنه يوصلها إلى عشرة آلاف مجلد مخطوط[٢] . وأما فهارسها الحالية فتشير إلى أنها تحوي زهاء خمسة آلاف مخطوط ، تنقص قليلاً أو تزيد .

ويبدو أن عدد المخطوطات التي أوقفها بها صاحبها حين إنشائها سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٢ م وهي السنة التي أُقيلَ فيها من مشيخة الإسلام ، كان فعلاً يتجاوز خمسة آلاف كتاب ، ولكنه كان ينوي إرسال مجموعة أخرى إليها يبلغ بها تعدادها عشرة آلاف ، إلا أنه لم يتمكن من تحقيق أمنيته ، وعاجلته المنية قبل حضوره إلى المدينة ، فبيعت تلك المجموعة من كتبه في تركته بأبخس الأثمان .

(١) فصول من تاريخ المدينة - علي حافظ - ص ٢٤١ .

(٢) مجلة المقتبس - العدد السابع ، سنة ١٣٣٠ هـ ص ٧٦٣ رحلة إلى المدينة المنورة لمحمد كرد علي .

وقد بذل شيخ الإسلام في اقتناء كتب مكتبته وشرائها ، أموالاً كثيرة ، وجهوداً كبيرة ، حتى تجمعت له من أقطار الأرض المختلفة أنفس الكتب وأجملها خطاً ، وأعلاها شأناً ، وأغلاها قيمةً ، وقد كتب بيده على صفحة عنوان أحد المخطوطات أنه دفع مبلغ أربعمائة جنيه عثماني ذهبي لشرائه ، وعلاوة على حرصه أن تكون المخطوطة مكتوبة لأشهر الخطاطين ، فإن بعض المخطوطات الفارسية كتبها بخط يده ، رحمه الله .

ومن عجائب مخطوطاتها ماذكره البتنوني حين قال[1] : (ولقد رأينا بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة في بابها ، وهو كتاب أشعار فارسية ، كان مكتوباً بالخط الأبيض الجميل ، لملاّ شاهي ، وبينما نعجب من جودة الخط وإتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها ، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة إلى أن حروف الكتابة إنما هي ملصقة على الورق ، فتأملناها فوجدنا شيئاً يبهت الطرف لرؤيته ، ويعجز اللسان عن نعته ، خصوصاً عندما أخبرنا بأنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم ، ثم يلصقونها على ورقة أخرى) .

وقد أوقف عليها مؤسسها كثيراً من البيوت والدكاكين والخانات والبساتين وغيرها من الأوقاف الثابتة الدائمة الموارد ، لصيانتها والصرف على موظفيها . يقول شيخ الإسلام في صك الوقفية : (إني وقفت وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً : المصاحف الشريفة التي عددها ستة عشر مصحفاً ، وكتبي النفسية التي عددها خمسة آلاف كتاب .. ووقفت الخان الذي اشتمل على أربع غرف ، وواحد إصطبل كبير ، وواحد فرن ، وواحد دكان البقالة ، وواحد دكان الحلاقة والصوندرمة والمشي.

(١) الرحلة الحجازية للبتنوني ص ٢٥٥ .

ووقفت جملة أبنية : مصنع ، وفرن كبير ، وبئر ماء ، وسائر المشتلات المعلومة المتصلة بالخان المذكور .

ووقفت قطعة واحدة بستان كبير مع أشجاره المثمرة ومع آباره ...

ووقفت حماما يسمى بكتا ذات قبة .

ووقفت أبنية ثمانية مع أبواب دكاكين ذات قبب ، ومنها واحد دكان الخضروات ، وواحد دكان القصاب ، وواحد دكان البقالة ، وواحد دكان العطارة ، وأربعة أخرى) .

وكل هذه الأوقاف بإسلامبول . وقد ذكر في هذا الصك أن مجموع مساحتها ٥٥٥٩ ذراعاً مربعاً ، وأن دخلها السنوي لا يقل عن خمسة عشر ألف جنيه ذهبي عثماني ، كانت تصل أيام الدولة العثمانية إلى القائمين على المكتبة بانتظام ، ولكنها في العهود الأخيرة توقفت ، ولم نعد ندري عن مصيرها شيئاً .

أما ماأوقفه عليها بالمدينة فهو خمس دور ، الأولى كانت بجوار التاجوري ، والثانية بباب المجيدي ، والثالثة في زقاق الطيار ، والرابعة كانت في حوش التكارنة ، والخامسة كانت في زقاق القشاشي . ولم يكن دخل هذه الدور بذي شأن يذكر .

ورغم انقطاع موارد أوقاف إسلامبول وضعف موارد أوقاف المدينة استمر بعض موظفي المكتبة في خدمتها تبرعاً من غير راتب ، إلا ماكان يأتيهم من دخل قليل ناشئ عن أوقافها بالمدينة ، وذلك كأمينها الشيخ محمود الأكنلي رحمه الله .

ثم انضمت المكتبة إلى إدارة الأوقاف بالمدينة سنة ١٣٨٠ هـ فأصبحت مواردها تأتيها من قبل وزارة الحج والأوقاف . والتزم موظفوها على قلتهم بالعمل أثناء أيام الدوام الرسمي كغيرهم من الموظفين .

وقد تضمن صك الوقفية عدة شروط حدد مؤسسها من خلالها كيفية الانتفاع بمحتويات المكتبة ، ورسم للعاملين فيها طريقة التعامل مع زوارها ومرتاديها وفيما يلي بعض تلك الشروط :

(١) يجب أن لا يخرج من المكتبة المذكورة أي شيء من المصاحف الشريفة والكتب الشريفة المذكورة ، لا عن طريق الاستنساخ ، ولا عن طريق الاستعارة . وأن لا يعار شيء منها لأي فرد كان ، بل يخصص ويقصر الانتفاع والمطالعة بالمكتبة .

(٢) يجب أن لا يمنع ولا يصرف أي شخص كان من مريدي الاستفادة بالمطالعة أو الاستكتاب أو المقابلة ، أو عن الانتفاع بالكتب بأي حال كان .

(٣) يجب ألا يُظهر حفّاظ الكتب العجز والإباء عن عرض وإعطاء الكتب للراغبين بأي وجه كان . بل يجب أن يقابلوهم بالتشويق والترغيب والإعزاز والترحيب .

(٤) يعيّن أربعة أشخاص حفّاظ للكتب باعتبار الأول والثاني والثالث والرابع من العلماء الصالحين الذين صاروا فارغي البال وممدوحي الخصال .

(٥) تفتح مكتبتي هذه كل يوم بعد طلوع الشمس بساعة واحدة إلى ما بقي للغروب ساعة واحدة ، ولو لم يجئ فرد واحد . بل تكون المكتبة مفتوحة إلى الوقت المذكور .

(٦) يجب على الحفّاظ أن يهتموا بالكتب المذكورة ، برعاية حفظ الكتب ، وبالشرائط المحررة ، وأن يقوموا لأداء الخدمة قياماً تاماً بأنفسهم وبالمعية . والمعية هي أن يتناوب حافظ الكتب الأول مع حافظ الكتب الثالث في الخدمة يوماً ، وأن يتناوب حافظ الكتب الثاني مع حافظ الكتب الرابع في الخدمة يوماً ، بأنفسهم .

(٧) وأن يجتمع حفّاظ الكتب الأربعة كل يوم في المكتبة حين تفتح المكتبة .. على أن يَختم كل من هؤلاء الأربعة المصحف في خلال خمسة عشر يوماً ، بأن يتلو كل يوم جزأين ، ويُهدي ثوابها للرسول ﷺ ولواقف المصحف .. مع الاستمرار في ذلك واستبدال الأربعة مصاحف بغيرها خوفاً من التعطيل .

(٨) يعطى من غلة الوقف عشرة ريالات فرنسية للحافظ الأول ، وثمانية ريالات للحافظ الثاني . وسبعة ريالات للثالث . وستة ريالات للرابع . في كل شهر نظراً لكثرة اشتغالهم على المنوال المشروح ، بالتلاوة والقراءة ، وبحفظ الكتب من آثار الغبار والرطوبة بدقة تامة ، ووفاء لأجور أمثالهم ، وكفاية لرفاههم ومعاشهم . وهذه كلها بشرط مراعاتهم للشروط المحررة . ويعطى كل منهم عند دخول شهر رمضان شهر الغفران اثني عشر ريالاً فرنسية عيناً ، أجرة القدَم .

(٩) لا توجه جهات حفظ الكتب إلى أرباب الجهات التي تمنع أداء هذه الخدمة[1] ، بل توجه إلى أشخاص مستقيمين يعتمد عليهم ، وأمناء معتنين بهذه الخدمة ... وأن يكون المستخدمون في خدمة حفظ الكتب من الرجال الذين هم من الرجال التامة ذوي الأقدام ... ولا يجوز توجه الوظيفة المذكورة إلى الصبيان والمراهقين . فإنهم لا يستطيعون على أداء الخدمة بأنفسهم ، فيحتاجون إلى توكيل الأشخاص ، ولا توجه الوظيفة بعد موت الأمين إلى أحد أولاده : صبياً أو مراهقاً أو مجذوباً ... وأن ترفع جهة أي واحد من حفّاظ الكتب إذا أظهر الفتور في أداء الخدمة اللازمة في الإدارة .. أو قصّر في رعاية الشروط المذكورة ...

(١٠) يعين رجل مستحق ومستعد ومقيم للخدمة : بواباً وفراشاً وسقّاءً للمكتبة المذكورة ، بوظيفة أربعة ريالات شهرياً .

---

(١) أي لا تسند وظائف المكتبة لمن يمتنع عن القيام بمتطلباتها .

(١١) على مدير المكتبة أن يراعي بدقة إجراء شروطي ، وأن يحافظ ويحمي ويصون دائرة المكتبة بكل الوجوه .

(١٢) تعمر وتجدد المكتبة المذكورة لدى الحاجة برأي المتولّي ، من وقفي .

(١٣) يجيء قاضي المدينة المنورة في شهر محرم مرة كل ثلاث سنوات ، ويجمع حفّاظ المكتبة وخدّامها ، ويعدّ الكتب المرقومة فيها واحداً بعد واحد في مواجهتهم .

(١٤) تعمّر وتجدد الكتب المبدّدة المزقة ، والرسائل المقطعة ، وإن مست الحاجة إلى الترميم والتجليد والتخييط حسب الاقتضاء ، من غلات وقفي المذكور .

(١٥) يكون عارف حكمة متولّياً بنفسه على أوقافه طيلة عمره ... ثم شخص صالح من صلحاء المسلمين يعينه حاكم الوقف ، متحلٍّ بجمال الديانة .

وقد قامت الدولة العثمانية بعد وفاة الشيخ بالإشراف على هذه المكتبة وتعيين أمناء لها وفقاً لشروط الوقف ، كان من بينهم الشيخ نوري أفندي التركي الذي تولى منصب مفتي مدينة إسلامبول .

وفي عهد الأشراف تولى أمانتها عبد القادر حوّاري ، وظل أميناً عليها إلى أول العهد السعودي ، فلمّا أنشئت وزارة الحج والأوقاف ضمت إليها جميع المكتبات بالمدينة ، ومن بينها هذه المكتبة ، وذلك سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م ولكنها ظلت مستقلة بمبناها القديم .

ومن الأمناء الذين تعاقبوا عليها في العهد السعودي :

١ - إبراهيم الخربوطلي - إلى سنة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .

٢ - حسن أكنلي - إلى سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .

٣ - محمود حسن أكنلي - إلى سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٤ - علي علوي إبراهيم - وهو أمينها الحالي .

ويلاحظ أن أختام المكتبة مختلفة اللغات والتواريخ وذلك على النحو التالي :

(١) ختم دائري كتب عليه : (مما وقفه العبد الفقير إلى ربه أحمد عارف حكمة الله بن عصمة الله الحسيني في مدينة الرسول الكريم عليه وعلى آله الصلاة والتسليم ، بشرط أن لا يخرج عن خزائنه ، والمؤمن محمول على أمانته . ١٢٦٦ هـ - ١٨٤٩ م) .

(٢) ختم آخر على بعض الكتب ، صورته : (وقف حكمة الله بن عصمة الله الحسيني ٢٦٧ هـ بعد الألف ١٨٥٠ م) .

(٣) ختم ثالث مكتوب عليه بالتركية (مرحوم شيخ الإسلام عارف حكمة بك كتبخانه سنك وقفية ملحقات ١٣٣٢ هـ - ١٩١٣ م) .

ولعل الختم الأول هو الختم الأساسي الذي وضعه مؤسسها ، مع احتمال أن يكون الثاني من وضعه أيضاً صحبة مجموعة ملحقة . أما الثالث فواضح بالطبع من صيغته وتاريخه أنه من وضع بعض الأمناء .

وقد تعرضت بعض مخطوطات هذه المكتبة إلى السرقة في عهد بعض أمنائها ومن ذلك :

(١) مصحف مكتوب على رق نعام بخط أندلسي ، مذهب في آخره ، وهو بخط عبد الرحمن بن علي بن مرزوق بن محمد بن مكانس البطليوسي سنة ٤٨٨ هـ ١٠٩٥ م . ويعدّ هذا المصحف من نفائس مخطوطاتها[1] .

(٢) مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وهو الآن في مكتبة المتحف

(١) المكتبات العامة بالمدينة المنورة - رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الملك عبد العزيز ١٤٠١ هـ من السيد / حمادي علي محمد التونسي ص ١١ - ١٢ مخطوطة .

البريطاني ، ذكر هذا محمود الأخرس[1] ، ولكنه لم يشر إن كان هذا المسند من تخريج الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغندي (ت ٣١٢ هـ) الذي توجد منه نسخة خطية غير كاملة في مكتبة فيض الله بإسلامبول ضمن مجموع برقم ٥٠٧ ، اعتمد عليها الشيخ محمد عوامة بالإضافة إلى نسخة مطبوعة طبعاً حجرياً سنة ١٣٤٠ هـ في ملتان بالهند. ، في تحقيقه سنة ١٣٩٧ هـ ، أم أنه مسند لعمر من عمل شيخ آخر .

(٣) أمر شريف باشا بنقل ستين كتاباً من المكتبة ، وأن يذكر أمام أسماء هذه الكتب في القوائم إشارة (م) التي تعني أنه مفقود ، وهذه المجموعة لاتزال محفوظة في إستانبول .

(٤) كتاب في تاريخ المغرب يقع في عشرة مجلدات . لعله (الاستقصا) .

(٥) استطاع أحد السوريين استنساخ مخطوط داخل المكتبة ، ثم ختم منسوخه بخاتم المكتبة ، وسرق الأصل .

(٦) بيعت مجموعات كبيرة من المخطوطات في عهد بعض الأمناء الذين ضعفت نفوسهم عن القيام بواجب الأمانة .

وكانت هذه المكتبة محط أنظار الباحثين في كل مكان ، وأشار إليها وإلى بعض محتوياتها كثير من الرحالة والمؤرخين ، منهم :

(١) علي بن موسى ، المتوفى حوالي سنة (١٣٢٠ هـ) ، وذلك في كتابة (وصف المدينة المنورة) الذي طبع بتحقيق العالم الباحث الأستاذ حمد الجاسر ، ففي ص ١٤قال : (وتجاه بيت النائب (أي نائب الحرم) كتبخانة عظيمة للمرحوم عارف حكمة بك شيخ الإسلام بالآستانة ـ سابقاً ـ فيها من الكتب النفيسة مالا يوجد في غيرها ، ولها خَدَمة بمعاشات شهرية تأتيهم من وقفه الموقوف عليها بالآستانة) .

(١) مقالات في علم المكتبات ص ١٧١ ـ محمود الأخرس ـ عمان جمعية عمال المطابع ١٩٧٤ م .

وقال في ص ٤٧ :

(وكتبخانة شيخ الإسلام عارف حكمة بك التي لا نظير لها في أرض الحجاز ، لكثرة مافيها من الكتب النفيسة والخَدَمة والمجلدين الموظفين دائماً) .

وفي ص ٥٢ أثناء حديثه عن مكتبات المدينة قال :

(وأما الكتبخانات ، فواحدة في دار العشَرة ، تجاه بيت النائب ، للمرحوم عارف حكمة بك ، شيخ الإسلام بالإسلامبول ـ سابقا ـ وهي أعظم الكل وأعلاهم) .

(٢) وقال محمد لبيب البتنوني المتوفى سنة (١٣٥٧ هـ) في رحلته ص ٢٥٤ :

(وهذه الكتبخانة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها) .

(٣) وأما محمد كرد علي المتوفى سنة (١٣٧٢ هـ) فقد قال في رحلته إلى المدينة المنورة المنشورة في مجلة المقتبس (٧٤ سنة ١٣٣٠ هـ ص ٧٦٣) : (وأحسنها ـ يعني مكتبات المدينة ـ وربما كانت خير مكتبة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء أمهاتها ، هي مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة أفندي ، ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كتبت بخطوط المشهورين من الخطاطين ، كأن تجد الكتاب ذا العشرين مجلداً مكتوباً بخط مشرق بديع في مجلد أو مجلدين ، وفي هذه المكتبة من التسهيل على المطالعين والعناية براحتهم ، مالاتكاد تجد مثله في دار الكتب الخديوية بمصر لعهدنا ، وماذلك إلا لكثرة ريعها وإنفاقه في سبله ، واختيار القيمين عليها ، وإدرار المشاهرات عليهم) ، ويبدو أن محمد كرد علي زارها في فترة من فترات ازدهارها ، وإلاّ فإن المكتبة تعرضت ـ مع الآسف ـ في بعض عهودها إلى التعطيل المتواصل وإغلاق أبوابها في وجه الباحثين بالدعاوي المختلفة التي لاتتفق مع شرط الواقف رحمة الله عليه .

(٤) وقال صاحب (حلية البشر) : عبد الرزاق البيطار المتوفى سنة (١٣٣٥ هـ) محشيا على ترجمة شيخ الإسلام مانصه : (زرت هذه المكتبة

بعد انقضاء الحرب بين الأتراك والأشراف ، وكذا مكتبة الطـائف ، فرأينـا الأيدي قد تناهبت كثيراً من كتبها) .

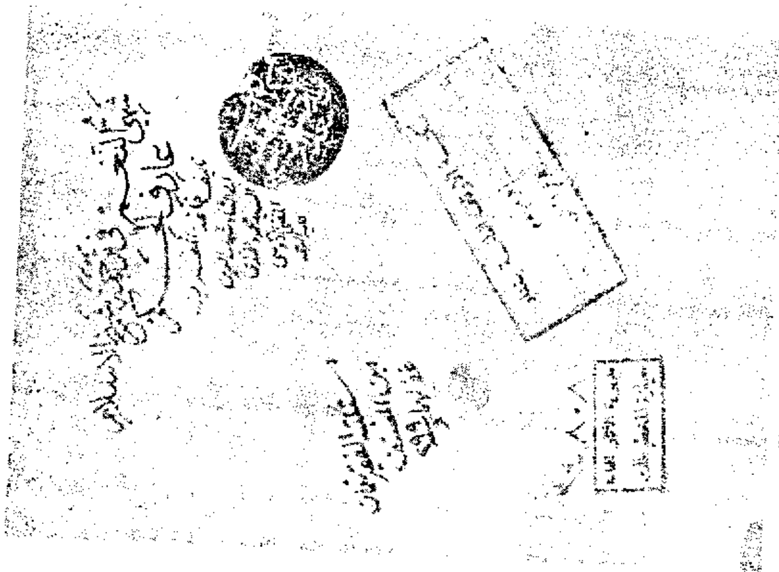
(٥) وذكر فؤاد حمزة المتوفى سنة ١٩٥١ م في كتابه (البلاد العربيـة السعوديـة) ص ٢٣٢ أنه أُخذ منها أيام الحكم العثماني قسم غير قليل مما كان فيها .

(٦) وقال علي حافظ وهو مؤرخ معاصر ، في كتابه (فصول من تاريخ المدينة) ص ٢٤١ : (مكتبـة شيـخ الإسـلام عـارف حكـمة تـأسست سنــة ١٢٧٠ هـ وموقعها في جنوب ركن المسجد النبوي الجنوبي الشرقي ، يفصل بينهـا وبين المسجد شارع .... وفيها نفائس الكتب ونوادرها) .

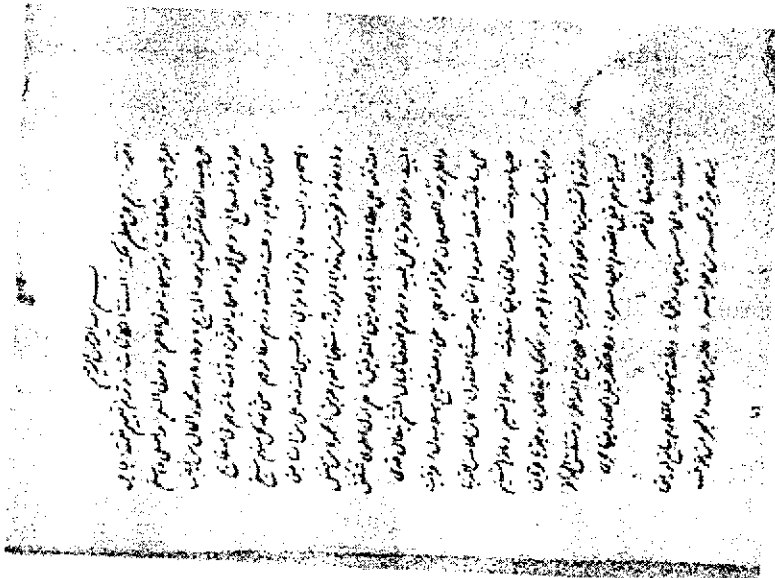
وفي مقدمة تحقيقنا لكتاب (الفصول في سيرة الرسول)[1] للحـافـظ ابن كثير الـذي تم طبعـه سنـة ١٤٠٠ هـ في ص ١٠ قلنـا : (إن العثمـانيين في أواخر حكمهم للحجاز سنـة ١٣٣٤ هـ نقلوا الأشيـاء الثمينـة من الحجرة الشريفـة إلى إستـانبول ، ونقلوا موجودات مكتبة عارف حكمة إلى دمشق تمهيداً لنقلها إلى إستانبول أيضاً ، ولكن الطرق أغلقت أمام القوات العثمانية بسبب الحرب العـالميـة الأولى ، فبقيت الكتب في الشام ، ثم أعيدت إلى المدينة المنورة عام ١٣٣٧ هـ ، وكانت قد وضعت هناك في تكية السلطان سليم ، وفاضت ميـاه نهر بردى القريب من التكيـة ، في شتاء إحدى تلك السنوات الثلاث ، ووصلت المياه إلى صنـاديق الكتب وتسببت في مسـح بعض الأسطر واختـلاط الحبر ، وتغيير لـون الـورق في بعض الكتب والمخطوطات) .

هـذا وقـد سمح المسؤولون عن هـذه المكتبـة للجامعـة الإسلاميـة بـالمدينـة بتصوير كثير من مخطـوطـاتها سنـة ١٤٠١ هـ لتـوفير تلـك المصورات بين أيـدي الباحثين ، إلا أنهـا احتفظت لنفسهـا ببعض النوادر ، فرحم الله من أوقفهـا وقـام على أمرها ويسّر الاستفادة منها .

(١) تم التحقيق بمعية الزميل الأستاذ محي الدين مستو .



الصفحة رقم (١) من المخطوطة
وفيها عنوان الكتاب



الصفحة رقم (٢) من المخطوطة
وفيها مقدمة المؤلف

الصفحة رقم (٨٧) من المخطوطة
وفيها خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَـدِمَة المؤلِّف

أحمد من ترجم عن عظيم حكمته ألسِنةُ الكائنـات ، وترنم بعميم نعمتـه بلابلُ البراهين القاطعات ، فهو سبحانه مولى الأمم ، ومولى النعم .

وأصلي وأسلم على حبيبه الذي تشرفت بمدحـه المدائح ، وعـاد مـادحـه محمود الحـال من فيض عوارفـه السوانح ، وعلى آلـه وأصحـابـه الـذين دُوِّنت مـآثرهم في صفائح صحائف الأيام ، وعلت - ولله تعالى دَرّهم - مفاخرهم ، حتى عُـدَّ كل منهم شيخ الإسلام .

وبعد :

فـإني عراني مـاعراني ، وحسبي الله تعـالى على من أضـاعني ومـا رعـاني ، فخرجت من زوايا الزوراء[1] منتهجاً أقوم طريق ، محمولاً من فضل الله تعالى على مطايا النعماء بأيـدي رفيق التوفيق ، فلم أزل أطوي شُقَق[2] البيـد ، وأرى قريبـاً كل بعيـد ، وأُرغم أنوف الجبـال الشُّم بنعـال قـدمي ، وألطم وجـه الصَّحْصَحـان[3] بحـوافر أدهمي ، حتى وصلت خليج إسلامبـول ، فرأيت على سـاحليـه قصـوراً

---

(١) الزوراء : بغداد . وكان خروجه منها سنة ٢٦٧

(٢) شقق البيـد : جمع شقّة وهي المسـافـة يشـق قطعهـا .. قـال تعـالى : ﴿ ولكن بَعُـدت عليهم الشقة ﴾ .

(٣) الصحصحان : الأرض المستوية الجرداء ، ومثلها الصَّحْصح ، والصَّحْصاح .

قُصورها أنها يبهر حسنها العقول ، كأن محاسن الدنيا عليها معروشة ، وصورة الجنان فيها منقوشة ، هواؤها نسيم ، وماؤها تسنيم[1] ، وترابها مسك أذفر[2] ، وحصباؤها جوهر ، وكوكبها يقظان ، وجوّها عريان ، وتموزها تشرين ، وكلؤها كلّه نسرين ، فهي مرتع النواظر ، ومتنفس الخواطر ، ليس للوهم قبل القدوم إليها مسرى ، ولا للفكر قبل الحلول فيها مجرى ، فحللت منها في قصر مدت عليه المحاسن بهيّ رواقها ، وغطته أشجار المكارم بيانع أوراقها :

يزهو ببرٍّ وبحرٍ من جوانبه ... فالبرُّ من طرف ، والبحرُ من طرف

وما يزال نسيمٌ من يمانيةٍ ... يأتيك منه بريّا روضةٍ أُنُف

وهو قصر الوزير الخطير[3] ، والدستور الكبير ، والبدر المنير ، الذي طالما خفّف همّي بأياديه الثقال ، وجفف غمّي بوابل جوده الهطّال ، الذي لم أجد مع مزيد إقامتي لديه قصوراً فيه ، بل أكاد أدّعي قصر الصفات اللائقة بالوزارة عليه ، على وفود معاليه ، حضرة من أخذ قديماً بيدي ، ونشلني من أوحال هموم أعظمت كبدي ، مولاي محمد حمدي باشا ، لا زال حمدي وحمدُ العالمين له غطاءً وفراشاً ، وإثر أن حللت في ذلك القصر ، حمى الله تعالى أهليه من حوادث الدهر ، اعترتني حيرة أي حيرة ، وضاقت مَنافسي حتى كأني أتنفّس من سَمِّ إبرة ، فلم أدر ـ وحرمةِ الدين ـ[4] أين المذهب ، ومن يقلّد بالأيادي من يسعى إليه ويذهب ،

---

(1) تسنيم : عين في الجنة . قال تعالى : ﴿ ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون ﴾ .

(2) مسك أذفر : قوي الرائحة .

(3) في الأصل فراغان على النحو التالي : (وهو قصر ... الوزير ، والدستور الكبير ....، الخطير) .

(4) هذا قسم بغير الله ، يندفع إليه بعض الكتاب وهم في عنفوان انفعالهم دون قصد ، في أغلب الأحيان . والجدير بهم تركه على كل حال ، والاستعاضة عنه بتعبير آخر . وهم في جميع الحالات لا يقصدون إعظام المحلوف به ومضاهاته بالله ، وإنما هو كلام يجري على اللسان ، أو =

وبقيت أصوغ وأكسر ، وأقبل وأدبر ، وأقوم وأقعد ، وأُتهم وأُنجد ، فناجاني التوفيق ، وهو لعمري نعم الرفيق : دع عنك ياشيخ هذه الخرافة ، وارْبَع[1] على نفسك فهذه دارُ الخلافة ، قم واذهب إلى ملاذك وكهفك من حوادث الدهر وعياذك ، حضرة شيخ الإسلام ووليّ النعم ، والآخذ من مطية الحق بمذود : (لا) ومقود : (نعم) ولا يختلجنّ في ذهنك الرصين ، أنه يحول بينك وبين سهل أخلاقه حَزْنُ افتراء المفترين ، فقد أنبأ العدل وبيّن ، أنه الذي إذا جاءه فاسق بنبأ تبيّن ، فقلت : قسماً بربي ، ماذاك أخشى ولكن أخشى ذنبي ، فتلا عليّ ملَك الإلهام ، ماأنستنيه حوادث الأيام :

قالوا : غداً نأتي ديارَ الحمى ... وينزل الركب بمغناهمُ

فقلت : لي ذنب فما حيلتي ... بأيّ وجهٍ أتلقّاهمُ

قالوا : أليس العفو من شأنهمْ ... لا سيّما عمّن ترجّاهمُ ؟[2]

فقمت لانَكِلاً ، وسعيت إذ ذاك إلى حضرته مهرولاً ، فرأيت الناس في

= هو لإظهار مجرد الإعزاز . قال النووي (١ : ١٦٨) في شرح حديث مسلم : « أفلح وأبيه إن صدق ـ أو ـ دخل الجنة وأبيه إن صدق » : هذا مما جرت عادتهم أن يسألوا عن الجواب عنه مع قوله ﷺ : « من كان حالفاً فليحلف بالله » . وقوله ﷺ : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » . وجوابه : إن قوله ﷺ : « أفلح وأبيه » ليس حلفاً ، إنما هو كلمة جرت عادة العرب أن تدخلها في كلامها غير قاصدة بها حقيقة الحلف ، والنهي إنما ورد فيمن قصد حقيقة الحلف ، لما فيه من إعظام المحلوف به ومضاهاته به الله سبحانه وتعالى . فهذا هو الجواب المرضي .

وقيل : يحتمل أن يكون هذا قبل النهي عن الحلف بغير الله تعالى ، والله أعلم .

(1) اربع : تمكّث وانتظر .

(2) الأبيات من شعر علم الدين أبو الحسن علي بن محمد السخاوي (٥٥٨ ـ ٦٤٣ هـ) حين حضرته الوفاة . وبعد البيت الأول :

فكل من كان مطيعاً لهم ... أصبح مسروراً بلقياهمُ

رجُل ، والدهرَ في ساعة ، والكونَ في دار ، وكانت رؤيته لعيني قرة ، ولقلبي الذي آلمه إذ ألمّ به الحزن : مسرّة ، وإن كان قد امتلأ إهابي من هيبته ، وكاد يخطف بصري نور شمس طلعته ، وجعلت سلامي إذ أقبلتَ تقبيلَ يده البيضاء ، وهو ينادي : لاتفعل ، وسلِّم حسبما ورد في الشريعة الغراء ، وتلك له على ماسمعت بعدُ من قديم العادات ، وحبذا هي ، فعادات السادات سادات العادات . ثم عاملني ـ جزاه الله تعالى خيراً ـ معاملة الوالد لولده ، وإن كانت نسبتي إليه نسبة العبد إلى سيده ، ولم أزل أتشرف بلثم ثرى بيته المعمور ، وأطوف بكعبة مقامه المزمزم بالنّور ، وأفتخر على الأمثال بمزيد المثول في حضرته العليّة ، والفوز بسماع كلماته الشريفة القدسيّة ، حتى وقفت للوقوف على سر اتفاق أهل الآفاق على الدعاء له ، وإجماعهم على أنه ماجمع في هذه الأعصار أحد من أهل الأمصار مايشبه فضله ، حيث أدركت منه كرائم خلائق ، ماأدركتها فيمن شاهدته من كرام الخلائق ، ورأيت له من محاسن الآثار مالم تغرد بمثله على ماسمعت أطيارُ الأخبار ، على أفنان تراجم الأخيار :

فردٌ ، بمثل كماله ونواله لم تسمح الدنيا ولا أعصارُها

دنيا بها انقرض الكرامُ فأذنبت وكأنما بوجوده استغفارُها

فأحببت أن أشنّف الأسماع بجواهر ترجمته ، وأفوّف البقاع بطراز آثار حكمته ، فناداني الحزم : على رِسْلك ، وانظر إلى حقيقة ماتروم من مجازك هذا بعين عقلك ، فأنّى لعنكبوت ذهنك العروجُ بلعابه إلى الفلك الأطلس ..؟ وهيهات لنضو أدهم قلمك الولوجُ على غاية في حظائر المجد الأقدس ..؟ هل اتخذت ـ لاأبالك ـ قبل السير في هاتيك المسالك خزائنَ الأرض زاداً ..؟ وهل هيأت قبل الخوض في ذلك : الأشجارَ أقلاماً ومداداً ..؟ وهل لوّح لك اللوحَ المحفوظ بأن يكون لديك قرطاساً ..؟ وهل أسرّت مراتبُ الأعداد إليك : أن تصير لنفسك أنفاساً ..؟ فقلت : لا ، والأمر كما أشرت ، ومثلما أعلنت

وأسررت ، إلا أنّ ما لا يدرك ـ كما قيل ـ لا يترك ، ولست بصدد أن أحيط ، بعجائب البحر المحيط ، أو أنظم بالأسلاك ، جميع نجوم الأفلاك ، أو أستغرق المراتب ، للعدد الذاهب . ولكني بصدد أن أروي شيئاً من أحواله وأقواله ، فأُروي صُداة[1] عشاقِ العراق بنمير زلاله ، ويكون ذلك هديتي إذا عدت إليهم ، وتحفتي لهم إذا قدمت بالخير ـ إن شاء الله تعالى ـ عليهم ، فقال : إذن دونك ، فاملأ بما شئت من ألوان موائده ماعُونك ، واقطف ماتروم من أزهار رياضه ، وأترع كأس أملك على ماتهوى من زلال حياضه ، فشمّرت عند ذلك عن ساق ، وبيّضت وجه القصد بتسويد هذه الأوراق ، وشرعت في ترجمته الشريفة ، ونقلِ شيء من سنى آثاره اللطيفة .

* * *

(١) صداة : جمع صاد ، أي العطاش ، كقاض وقضاة .

[أبرز صفات شيخ الإسلام]

عارف حكمة

فها أنا مع اعترافي بالقصور أقول ، مستعيناً بمولى تقصّر عن الإحاطة بترجمته العقول :

[عراقته] :

إن حضرة المشار إليه ، لا زالت ذوارف العوارف الإلهية منهلّة عليه ، ماترجم عن ناطق صامتَ قلم ، وما نجم[1] نجم على ذروة علَم ، هو حضرة السيد أحمد عارف حكمة بك أفندي ، كان الله تعالى له في كل ما يُسرّ ويُبدي ، من بيت عصمة ، ومعدن حكمة ، ومهبط وحي ومعترك أملاك ، ومجلى غيّ ومدار أفلاك . استقى عرقه من منبع النبّوة ، ورضعت شجرته من ثدي الرسالة ، وتهدلت أغصانه عن نبعة الإمامة ، وتبحبحت[2] أطرافه في عرصة السيادة ، حسينيّ النسب ، علويّ الحسب ، فله من الشرف ماتضع له الأفلاك خدودها وجباهها ، وتشرّف النجومُ بلثم أرضه : أفواهَها وشفاهَها :

نمتـــه العرانينُ من هـــاشمٍ ... إلى النسب الأصرح الأوضـــح
إلى نبعــــةٍ فرعُهـــا في السّما ... ء ، ومغرسهـــا في ذرى الأبطـــح

(١) نجم : طلع وظهر ، والمصدر منه : نَجْم ونجوم .
(٢) تبحبحت أطرافه : مأخوذة من البحبحة ، وهي التوسع في الشيء والتمكن فيه . ولا تزال هذه الكلمة سائدة في العامية الحجازية بهذا المعنى .

فأنّى يساجَل ..؟ أم كيف يناضَل ..؟ وهو ـ سلّمه الله تعالى ـ من قوم قد علم الناس كيف كرمُهم وسخاؤهم ، وكيف عقولُهم ودماؤهم ، وكيف رأيهم وذكاؤهم ، وكيف رجاحةُ أحلامهم إذا خف الحليم ، وكيف وفاؤهم إذا استُحسن الغدر ، وكيف سماحةُ أخلاقهم ، وصونُهم لأعراقهم ، وكيف وصلوا قديمَهم بحديثهم ، وطريفَهم بتليدهم ، وكيف أشبه سرُّهم علانيتَهم ، وفعلُهم قولَهم ، وكيف جمعوا العلمَ والحلم ، والأناة والحزم ، والصفح عن الجُرم ، والقصدَ بعد المعرفة ، والعفوَ بعد المقدرة ، فغدوا الأنْف[1] المقدّم ، والسنامَ الأكوم[2] ، والشمسَ التي لا تخفى بمكان ، والماءَ الذي لا غنى عنه لظمآن :

لـو كان يـوجـد عِرقُ مجـدٍ قبلهمْ ... لـوجـدتــه منهم على أميـال
إن جئتهم أبصرتَ حـول بيـوتهمْ ... كرمـاً يقيك مصـارع التـآل
نـورَ النبـوّة والخـلافـة فيهمَ ... متـوقّـد في الشيب والأطفـال

وقد جمع ـ سلّمه الله تعالى ـ اليوم من صفات الكمال ، ماتفرّق تفرُّقَ أياديه في الرجال ، بل لم يكد يخطر ببال ، أو يخطو إلى مجرّة خيال .

[علمه] :

فأما علمه فقسماً به[3] لو قسم على أهل المشرق والمغرب ، لطار بلا جناح بالجهل عنقاء مُغرب ، قد ترك السيد له عبداً ، والعضد متمنياً أن يكون له زنداً ، والسعد في خدمته مُجداً ، والمَجْد من قاموسه مستمداً والفخر أول فجره الصادق ، والإمام أول مقتدٍ به ولاحق .

(١) الأنف المقدم : أنف القوم : سيدهم .
(٢) السنام الأكوم : العظيم المرتفع .
(٣) هذا من باب القسم بغير الله .

[بلاغته] :

وأما بلاغته فليس لأحد إلى حقيقتها مجاز ، وقد كادت ـ ورأسه العزيز[1] ـ تأخذ بحلقوم مرتبة الإعجاز ، فهو يحزّ مفاصل الكلام ، ويسبق إلى دقائق معانٍ تعجز عنها أفاضل ذوي الأفهام ، كأنما جُمع الكلام حوله حتى انتقى منه وانتخب ، وتناول منه بيده الطِّوَل[2] ماشاء وطلب ، وترك بعد ذلك أذناباً بلا رؤوس . وأجساماً بلا نفوس ، كأنّ خاطره البرقَ أو أسرع لمعاً ، والسيفُ أو أشد قطعاً ، والماءُ أو أسلس جرياً ، والنَّجمَ أو أقوم (هدياً)[3] .

[خلقه] :

وأما خُلقه فقد استعار منه النسيمُ رقته ، والروضُ نكهتَه ، والزلالُ صفاءَه ، والبدرُ بهاءه ، فهو يغمر الغريب بعميم فضله ، حتى ينسيه خاصة أهله ، ويكرم العـالِم : بأنواع المكارم ، ويجبر الكسير ؛ بلطفه الكثيرَ ، ويغني الفقير ؛ بنظره الإكسير[4] ، ويرحم الصغير بفضله الكبير ، ويمنح الجليس ، بالتفاته الأنيس ، ويعفو عن الجناية ، مع مزيد من العناية ، وهو مع ذلك ذو مزاح له اللطافة مزاج ومنهاج ، ليس له من هاج ، لا يرد سائله ، ولا يحرم الراجي نائله ، إلى غير ذلك من محاسن لو تجسدت لاتخذتها الغواني[5] لهن حُليّا ، أو لمدت السماء كفها الخضيب وانتهبتها من هذه المغاني فالحقتها بالثريا :

أكرم بـه سيِّداً جلّت خلائقُه ... ونورُ طلعته قد أخجل القمرا

---

(١) هذا من باب القسم بغير الله .

(٢) الطول : الحبل يربط في وتد ونحوه ، ويطوّل للدابة فترعى مقيدة به .

(٣) زيادة ليست في الأصل ، لإقامة السجع .

(٤) الإكسير : شراب يزعم القدماء أنه يطيل الحياة . ومادة مركبة كانوا يزعمون أيضاً أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب .

(٥) في الأصل : (لاتخذتها لهن الغواني) .

مـا جاوز الواصفُ المُطري له شيأً ... مقدارَه ، بل ولا قد قارب العُشرا

عن جَدّه مكرمات غُرٌ قد أُثِرتْ ... في غير أحمد منها لم نجد أثرا

[تقواه] :

وأما تقواه ، فلا يقوى عليها اليوم غيرُ قواه ، فهو في هذا العصر بين العُبّاد ، على مثل سجّادة جَدّه زينِ العابدين السَّجّاد ، نقيُّ الساحة من المآثم ، بريء الذمة من الجرائم ، إذا رضي لم يقل غيرَ الصدق ، وإذا سخط لم يتجاوز جانب الحق :

أهان الهوى حتى تجنَّبه الهوى ... كما اجتنب الجاني الدمَ الطالبَ الدَّما

تراه يرى الدنيا صغيراً عظيمُها ... ويغدو لأمر الله فيها مُعظِّما

يُخفي الصدقة حتى يكاد يخفَى ما يعطيه بكلتا يديه على مَلَكِ اليمين ، ويكتم في الأسحار أرَقه حتى يكاد يحجب سهرَ عينيه عن الحاجب والجبين ، قد قسم طاعاته بدقائق أفكاره ، على ساعات ليله ونهاره ، فلا تخلو ظروف الساعات من نوع من أنواع الطاعات ، وقد رأيته بعد العشاء يدارس كلام الله جل وعلا ، ويشفي القلوب بقراءة (الشفاء)[1] ويكرر بعض محفوظاته من غير كسل ولا ونَىً ، وحققت أن ذلك وقت خصصه للمدارسة والتلاوة ، وربما جعل المذاكرة في العلوم على ماذكر علاوة .

وصح عندي من رواية ملازم حضرته المقدسة مفتي القدس طاهر أفندي : أنه ـ حفظه الله تعالى ـ حفظ نحو خمسين متناً في عدة علوم ، ولا تكاد تجد أحداً في حواشي البسيطة قد شرح صدره بحفظ ذلك إلى اليوم المعلوم .

---

(١) الشفاء : من أشهر كتب القاضي عياض .

وسمعت منه[1] أيضاً أنه حفظ من القاموس غير قليل ، ومنعه عن حفظ جميعه اشتغاله بنفع العباد ، العريض الطويل .

وكان وِرْده في كل ليلة من ليالي شهر رمضان قبل أن تتعلق بأذياله مشيخةُ الإسلام ، مائةً وعشرين ركعة يصليها إذا أرخى الليل سجوفه ، ونام من نام . وبعد أن تعلقت المشيخةُ بأذياله ، وابتُلي بأحوال مسندها وأهواله ، وضيّق القضاء وقته عن أداء ذلك ، وأخذ الإفتاءُ على يده فشغله عما كان يسلكه من المسالك : جعل بدل ذلك الورْدِ صلاةَ التسابيح[2] ، ونذر صلاتها كل ليلة فهو اليوم يصليها بعد صلاة التراويح ، وقد أخبرني هو - حفظه الله تعالى - بذلك متحسراً على مافاته ، شاكياً من شواغل المشيخة كيف ضيقت أوقاته .

هذا وقد فطم نفسه الكريمة عن التأنق بمشرب ومأكل ، واستمر على استحلاء

---

(١) وسمعت منه : أي من طاهر أفندي ، السابق ذكره .

(٢) صلاة التسابيح : ذكرها ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (باب ماجاء في صلاة التسابيح) رقم ١٣٨٦ عن أبي رافع ، ورقم ١٣٨٧ عن ابن عباس ، ونص حديث ابن عباس : حدثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم النيسابوري ، حدثنا موسى بن عبد العزيز ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب : « ياعباس .! ياعمّاه .! ألا أعطيك ، ألا أمنحك ، ألا أحبوك ، ألا أفعل لك عشر خصال ، إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك : أوّله وآخره ، وقديمَه حديثَه ، وخطأه وعمده ، وصغيرَه وكبيره ، وسرّه وعلانيته ، عشرُ خصال : أن تصلي أربع ركعات ، تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة . فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة قلت وأنت قائم : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً ، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً . ثم تهوي ساجداً فتقولها وأنت ساجد عشراً . ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً . ثم تسجد فتقولها عشراً . ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً ، فذلك خمسة وسبعون في كل ركعة . تفعل في أربع ركعات . إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل ، فإن لم تستطع ففي كل جمعة مرة ، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة ، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة » .

هاتيك الرياضة العظيمة وما فتر عنها وما كَلّ ، ولذا رقت كالمهند شفاره ، وهكذا التقيُّ يمسي ويصبح والنحولُ شعارُه ، نعم ، ربما يتفكّه بشيء من الحلويات إيناساً لضيفانه ، وإكراماً بحلو الموافقة لمن قدّمه إليه ممن حل بديوانه ، والمؤمنون - كما قيل - حلويّون ، بل هل سمعت بخلْو عن محبة الحلْو ، وكثيراً ما حلّى فمي من هاتيك الحلويّات ، كما حلّى سمعي من كلماته الطيبات ، ولعمري إن بين طعامه وكلامه غايةَ الاشتباه ، فسل إن شئت الأسماع والأفواه ، فمن ذاق عرف ، والخبير إذا استُوصف وصف .

ومما يشهد بمزيد تقواه ، التي امتاز بها على من سواه ، أنه - وقّي ضيراً ، ونُمي كتابه خيراً - منذ درج . بلوحه إلى الكتّاب ، وعرج إلى محلّ طيب صريرُ أقلامه يُلهي عن حديث سُعدى والرَّباب ، مشغوفاً بكتب العلوم والأخذ عنها ، مشعوفاً[1] بمطالعتها وجمع ماتفرق منها ، يعد منادمة غوانيها ، في ليل أو نهار ، أغلى من منادمة الأحباب ، ورشف رضاب معانيها بشفاه الأفكار ، أحلى من رشف رضاب الخَوْد[2] الكَعاب ، فجمع كتباً تود الحُور والولدان لو تعذّرت[3] بسطورها ، وتتمنى الأفهام والأذهان لو ارتضعت درَّ مسطورها ، وتشتاق العقول المجردة لو اكتست منها بالجلود ، وتشتهي النفوس المفارقة لو تعلقت بظروفها الظريفة في يوم الخلود ، فهي بين سائر الكتب واسطة قلادتها ، وتورُّد وجنتها ، وتجعّد طررها[4] وتوقّد أنوار غررها ، وحَوَرُ عيونها ، وذبولُ جفونها ، وهَيفُ قَوامها ، ورخامةُ كلامها ، فلا تكاد نفس تسمح بإخراجها من يدها ، أو تُنشبَ

---

(١) الشغف (بالغين المعجمة) والشعف (بالمهملة) : شدة الحب .

(٢) الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخَلْق . جمعها خُوَد وخَوْدات والكعاب : من نهد ثديها ، وتسمى كاعباً أيضاً .

(٣) كذا في الأصل ، وقد يكون غرضه : اتخذت منها عذارها ، أي خدها غير أني لم أجد هذا المعنى في القاموس والمعجم واللسان . ولعلها تغذّت .

(٤) طررها : جمع طرّة وهي الشعر الموفي على جبهة المرأة تصففه ، ويسمى أيضاً : القُصّة .

المنيّةَ أظفارها ـ سلبت ـ بجسدها ، ولا تصبر ولو عُمّرَ ساعة على فراقها ، أو تصيرَ رهناً في الأرض تحت طباقها ، وكانت[1] تزيد بكثير على عشرة آلاف كتاب ، ونصيب كل منها من الحسن قد جاوز النصاب ، فلو يباع بوزنه ذهباً لكان البائع في نظري مغبوناً ، بل لا يظن عاقل أنه يقدم على بيعه إلا من كان مجنوناً .

وقفُه كتُبَه وتسييرُها إلى المدينة :

فلما زيّن ـ سلّمه الله تعالى ـ صحائفه بأنواع الخيرات ، وحلّى صفائحها بجداول الصدقات ، ناداه التوفيق : كثّر الله تعالى خيرك وجعل سبحانه لرضاه سيرك ، وضاعف في الدارين أجرك ، وقدّس عن الرياء سِرّك ، وسَرّك . ثم ناجاه : بأن قد بقي ماإن فعلته لم تدَعْ في قوس الجود مَنْزعاً ، ولم تترك في كأس الصدق مترعاً ، ولا في رياض التصدق مرتعاً ، وهو وقف كتبك التي هي أعز محبوب لديك ، وأكرم مطلوب عليك ، وأغلاه أثماناً ، وأعلاه مكاناً ، وأجلّه قدراً ، وأحلاه ذكراً ، فلما شرب سَمْعُ قلبه الشريف هذا الكلام ، ووعى وعاءُ روحه المنيف ذيّاك النظام ، وثب وِثْبة الأسد ، ووقف منها بلا توقف مالم يقفه سواه أحد .

وإذا حلّت الهدايةُ قلباً ... نشطت للعبادة الأعضاء[2]

فخرج ـ ولله تعالى درّه ـ عن عشرة آلاف كتاب من ذلك ، رغبة بالدخول في حرم رضا ربه تعالى المالك ، والكلّ ـ كما أخبرني ـ من كتب العلوم الشرعية ، ليس فيه من كتب الفلسفة الإلهية ، والرياضة والطبيعية ، وأن الجلود[3] تزيد

(١) وكانت : أي كتبه .

(٢) البيت من همزية البوصيري .

(٣) الجلود : المجلدات .

على ذلك المقدار ، إذ من الكتب ما هو عشرة[1] أسفار . وبعد أن وقفه سيّره ، إلى حرم المدينة المحترمة المنوّرة ، لِما أنها ـ زادها الله جلّ شأنه شرفاً ـ تُقصد من كل فج عميق ، وكم من فوج يجاور فيها للتضلع من رحيق التحقيق والتدقيق ، فيرجى كثرة المنتفعين من الزائرين والعاكفين ، وحريٌّ بطيبة تلك الكتب الطيبة ، وبإكسير الوجود ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن تذهب إلى جوار حضرته هاتيك الكتب المذْهبة ، وقد أرسل منها ـ سلمه الله تعالى ـ بُعيد دخولي إسلامبول مع شيخ الحرم وخادم روضة الرسول ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ نحواً من ستة آلاف كتاب[2] ، وقد شاهدت بعضها بعيني فغيبني عن شعوري العجَب العجاب ، فأسأل الله سبحانه أن يجعل ذلك عملاً مرفوعاً إلى أعلى علّيين ، موضوعاً في الكفّة اليمْنى إذا نُصبت الموازين ، لأهل الشمال واليمين ، وهذا دعاء قد تلقاه ربنا ـ جل شأنه ـ بالقبول ، قبل أن أفتح تلقاء السماء أكف السؤال .

ولمّا ذكرتَ شواهدَ أُخَر ، أرى إيرادها كإيراد الشواهد على استنارة الشمس والقمر :

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وأما سائر صفاته الكمالية ، الخَلْقية منها والكسبية ، فدون عدّها عدُّ النجوم ، وأهون من إحصائها إحصاء حصباء الأرض إلى التخوم ، فكيف يستطيع ذلك قلمي الضئيل ، ولساني العاجز الكليل ..؟ فهو اليوم نعمة الله تعالى الكبرى على الإسلام ، ومنّته ـ سبحانه ـ العظمى على كافة الأنام :

ولقد تفاخر فيه ساداتُ الورى ... وهو افتخار السادة الأعلام

(١) في الأصل : (عشر أسفار) والصواب ما أثبتناه .

(٢) ذكر صاحب (مرآة الحرمين ١ : ٤٢٢) أن عدد الكتب بمكتبة عارف حكمة بالمدينة في العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري كان ٥٤٠٤ كتاباً .

أحيا بـه الله الشريعـة والهـدى   وأقـام فيـه شريعـةَ الإسـلام

أدام الله تعالى وُجوده ، وأفاض سبحانه علينا كرمه وجوده .

[لقاء المؤلف به]

ومما غَمرت به من آثار صفاته الكمالية ، وأياديه البيض الحاتمية ، أنه أرسل لي في زمن وزارة المرحوم (نجيب باشا)[1] في الزوراء ، سقى الله تعالى ثرى مثواه شآبيب العفو والآلاء : كريم كتاب بمزيد اللطف مشحون ، يدعوني فيه للخروج من بلدي ، والحضور ببدني لسور همايوني[2] فلم يطب المرحوم بذلك نفساً ، وغيرت أرباب الأغراض النفسانية منه حسّاً وحدْساً ، حتى أنه ناولني الكتاب وقد شُقَّ نصفين ، وتأوّل ذلك بما لا يقبله عقلُ مَنْ عهده بالقابلة منذ يومين ، فخوفني من مشقات السفر ، وعرّض لي بما هو أدهى وأمر ، وأمرني أن أحرر عريضة في الاعتذار ، وأستر بظلمة الليل ضياء النهار ، فكتبت حسبما أمر ، وما أظلم الخوف إذا استولى على بشر .! ثم إني أعطيته العريضة ليرسلها مع تحريراته إلى حضرة وليّ النعم المشار إليه ، فيقدمها كتخداؤه[3] في الآستانة حسب العادة لديه ، فلم أشعر إلا وقد أظهر من هاتيك الحضرة منشوراً فيه عزلي ، وحجزي عن الإفتاء وفصلي ، وفيه ذِكْر ذنب على وجه الإجمال لم أقف على حقيقته إذ ذاك بحال من الأحوال ، ثم حال بيني وبين جهة معاشي وما فيه انتعاش عيلتي وانتعاشي ، حتى إذا قدمت في الوقت المرهون لتقبيل أقدام المولى ، والاستظلال بكهف حضرته العليا ، تلطفت بالسؤال عن سبب العزل ، وما أوجب بعد كتابي لبابه ذلك الفصل ، ورجوت ذلك من بعض مخلصيه الكَمَلَة ،

(١) نجيب باشا : هو محمد نجيب باشا ، أسند إليه العثمانيون ولاية بغداد ، وإليه تنسب محلة النجيبية في بغداد ، جانب الرصافة ، توفي سنة ١٢٦٧ هـ (تاريخ العراق بين احتلالين ٧ : ٨٣) .

(٢) سور همايوني : كأنه يعني قصر الخلافة بإسلامبول .

(٣) الكتخداء : الوكيل ، والخادم ، وتستعمل أيضاً بمعنى الرئيس والقائد .

فتحرى وقت نشاط له فسأله ، فقال ـ أيده الله تعالى ـ : قد شكاه المرحوم نجيب باشا بولائه لدولة أجنبية[1] وانتصاره لهم ، مع مراجعتهم في الأمور الكلية والجزئية ، وصدّق ذلك إرساله كتاب الاعتذار إليّ على يد سفير الدولة الفرانسوية ، إذ رسوله الذي قدّمه لديّ ، وأنهى إلي أيضاً ذلك الوزير أن الأمر إذا لم يتدارك بتعجيل عزله انتهى الحال في العراق إلى أمر خطير ، فلم يمكني سوى عزله وفصله ، مع علمي بوفور علمه وفضله .

فلمـا سمعت ذلـك اقشعرّ شعري ، وذهب مني شعوري ودُهش سرّي ، فهرولت إلى أعتابه ، وقلبي يلتهب مما به ، فحلفت له بجلال الله تعالى وعظمته ،إنه لم يكن مني ذلك برمّته ، وإني ـ وعلام الغيوب ـ لبريء من ذلك الذنب براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وإن ما كان خدعة خدعها عمرو ، ولم يكد يكيدني[2] بالعزل إلا بمثل هذا الأمر ، فإني كنت أثقل عليه من ثالثة الأثافي ، لما أني أذكره بسوء الخاتمة متى أقدم[3] على فعل لرضا الدولة منَاف ، مع ماانضم إلى ذلك من نَفاق النِّفاق في سوقه ، واشتغاله بالإقبال على شأنه عن الإدبار عن سماعه إلى تحقيقه ، وكان هذا حاله إلى أن ورد حضرة ولده أحمد بك أفندي[4] إلى العراق ، فطوى بحسن تدبيره مانشرته أيدي النفاق بين الأهالي من الشقاق ، فليت وروده كان قبل أن يتسع الخُرق ، ويضيق على العاقل رتق ذلك الفتق ، فقال مبتسماً حضرة المولى : مضى مامضى ، وكل شيء حتى الإفتاء بقدر وقضاء ، فطب نفساً ، ولعل الشدائد تمر وتنسى ، ثم التفت بما التفت إليّ ، وأقرّ بما أقر عينيّ ، لازال محفوظاً ، وبعين عناية الله تعالى ملحوظاً .

(١) في الأصل : (الدولة الأجنبية) .

(٢) في الأصل : (يكديني) .

(٣) في الأصل : (قدم) .

(٤) أحمد بك أفندي : تولى شؤون العراق ـ كما هو واضح ـ مع والده نجيب باشا .

ورحم الله تعالى نجيب باشا ، وجعل له العفو غطاءً وفراشاً ، فإنه كان السبب الأقوى في تشرفي بلثم أقدام حضرة وليّ النعم ، وكشف اللثام عن حقيقة أحوالي ، الداعي لنجاة الداعي من أوحال النقم ، والحمد لله تعالى على ما كان ، ونسأله سبحانه حسن الحال فيما يستقبل من الزمان ، ثم إن المرحوم المشار إليه - لا زالت شآبيب الرحمة منهلّة عليه - معذور في تصديق ما نُسب إليّ من البهتان العظيم ، فإنه لعمري مؤمن ، والمؤمن غرّ كريم ، ومع ذلك بلّ بوابل إحسانه أوام كبدي ، بعد أن اطلع على حقيقة الحال بواسطة ولده حضرة أحمد بك أفندي ، فأنا اليوم من المترحمين عليه ، والداعين لأبنائه وسائر من ينسب إليه .

[مولد الشيخ]

هذا وقد وضع - لا زال رفيع القدر - في مهد الوجود ، ملفوفاً بلفائف اليُمن والسعود ، بُعيد الساعة السادسة من ليلة الأحد السابعة عشرة[1] من محرم الحرام ، مفتتح شهور السنة الأولى من المائة الثالثة من الألف الثانية من هجرة واحد الأنام ، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وصحبه إلى قيام الساعة وساعة القيام ، فأنشد لسان الحال ، وهو أفصح من لسان المقال :

ذا درةُ البحر المحيط ومثلُه ... بين الدراري قطُّ لم يتولّد
يا يوم مولده لقد نلت المنى ... لما أتيت ببضعة من أحمد
نور تبدّى من بدور سيادة ... وأتى إلى الدنيا بيوم أسعد
فاستبشرتْ كلّ الخليقة مُذْ بدا ... حتى اهتدى الساري به في الفدفد
والوُرْق في الأوراق أضحى ساجعا ... والطير بين مردد ومغرد

ويوم وُضع - لا زال مرفوع القدر، وجابرَ كلِّ كسر - لقّبه حضرة والده

(1) في الأصل : (السابعة عشر) . والصواب ما أثبتناه .

- عليه الرحمة - بعارف ، ولا بدْع فهو من بحار الفراسة غارف ، وقد أشار هو بعدُ إلى ذلك بقوله ، متحدثاً بنعمة الله تعالى عليه وفاضل فضله :

ألم تعلم بأن سماء فكري ... تلوح بأفقها شمس المعارفْ
تفرّس والدي فيّ المزايا ... فيوم وُلدت لقّبني بعارفْ

وقد أنشدني ذلك في بغداد الشيخ محمد المغربي القيرواني - ملكه الله تعالى وإيانا نواصي المآرب والأماني - ثم قرّطت أذني بسماعه من حضرة المشار إليه ، - لا زال نظر عين المشيخة الكبرى مقصوراً عليه - وهما بيتان طاولا قبة السماء ، وتمنطقت شمس بلاغتها بمنطقة الجوزاء ، وقد ولع بتشطيرهما وتخميسهما فضلاء العراق ، وطار صيتها بجناحيْ النسر في كافة الآفاق ، وبلغت تشاطيرهما وتخاميسها في بغداد نحو خمسين ، وفيها كسائر الأشعار في جميع الأعصار الغثُّ والسمين ، وكنت ممن شطر وخمس ، وهيهات .. أين الحصا من الجواري الكنس .. ؟ فقلت مشطراً ، ومن سوء الأدب معتذراً :

(ألم تعلم بأن سماء فكري) ... زها من وبلها روض اللطائف
ومهما أظلمتْ أرجاء علم ... (تلوح بأفقه شمس المعارف)
(تفرّس والدي فيّ المزايا) ... وعصمته تَبينُ لكل واصف
تَحقّق حكمتي ومزيد فضلي ... (فيوم وُلدت لقّبني بعارف)

وأيضاً :

(ألم تعلم بأن سماء فكري) ... تطوف ببيت عزتها الطرائف
وإن حلّت دراريها بغرب ... (تلوح بأفقها شمس المعارف)
(تفرس والدي فيّ المزايا) ... وخيّل ، غير محتاج لقائف
وأظهر سرّ تصويري بحذق ... (فيوم وُلدت لقّبني بعارف)

وقلت مخمساً ، وعلى لسان حضرة المولى متحمساً :

إلى أقصى البسيطة طار ذكري … وفوق محدّب الخضراء وكُري
فقل ماشئت في فضلي وقدري … (ألم تعلم بأن سماء فكري
تلوح بأفقها شمس المعارف)
لقد مُيّزت من بين البرايا … بخُلْق للكمال غدا مَرايا
لذاك وربما تبدو الخفايا … (تفرّس والدي في المزايا
فيوم وُلدت لقّبني بعارف)

وأيضاً :

دراري حكمة جُمعت بصدري … بها تُهدَى الحيارى حين تَسري
فلا تعجب لذاك فأنت تدري … (ألم تعلم بأن سماء فكري
تلوح بأفقها شمس المعارف)
كفاني أن خلاق البرايا … براني في الورى حَسن السجايا
ألم تسمع .. ؟ وكم سُمعت خفايا .! … (تفرّس والدي في المزايا
فيومُ ولدت لقّبني بعارف)

وتفنن بخدمتها ذو الأدب العبقري ، مدار فلك المجد : عبد الباقي أفندي العمري[1] ، وقد رأيت في ديوانه مانصه :

أنشدني هذين البيتين ، اللذين هما في البلاغة والإعجاز كآيتيْن ، جناب نزهة الأحباب ، والوسيلة التي ماكانت في الحساب ، الذي شرف منزلي الواقع

(١) **عبد الباقي العمري :** هو عبد الباقي بن سليمان بن أحمد العمري ، الفاروقي الموصلي (١٢٠٤ ـ ١٢٧٩ هـ) شاعر مؤرخ ، تولى كثيراً من الأعمال الحكومية ، ترك مجموعات من الشعر منها : (الترياق) و (الباقيات الصالحات) و (أهلة الأفكار) . (الأعلام ٣ : ٢٧١) .

ببغداد ، بنزوله فيه ـ رفع الله مجده على الأمجاد ـ : الشيخ محمد آل سفر المغربي القيرواني ، قال : أنشدنيها لنفسه حضرة ذي الشرف ، الذي تشرف به القاصي والداني ، نقيب الأشراف في دار الخلافة العلية سابقاً ، وشرف النقباء من آل عبد مناف فيما أدركه من طريف المجد لاحقاً ، البليغ المِصْقَع[1] ، والمُفْلِق[2] المقنع ، الصدر الذي له في كل ديوان لسان ، وفي كل لسان ديوان ، الأعلم الأفضل مولاي أبو المطيع السيد أحمد عارف حكمة بك أفندي ، دامت حكمة عينه بإشاراتها في كل لحظة تعيد ماتشاء وتبدي ، ولا برح متحلياً برشف الضَّرَب[3] من لسان العرب مازيّن الأعرابُ بيت الشَّعَر ، وزيّن الإعرابُ بيت الشِّعْر ، فتجاسرتُ على التشرف ، بعد ماأشرفتُ من قلة بضاعتي على كثرة التعسف ، بتشطيرهما وتضريعهما وتخميسهما وترصيعهما وتسميطهما[4] وتقريظهما على أوجه من هذا النوع ، فقلت ـ وقد داخل رُوعي[5] من الخجل الرَّوع ـ ، في مدحه الشريف متشرفاً ، وبالقصور عن نعوت هذا البيت معترفاً ، ومن عباب عوارف معارفه مغترفاً : قول هذا التشطير :

(ألم تعلم بأن سماء فكري) … تنوب عن النجوم بها اللطائف
وعن شمس النهار لكل عين … (تلوح بأفقها شمس المعارف)
(تفرّس والدي في المزايا) … ورام لحوق تالده بطارف
وأجرى ماتخيله بحذق … (فيوم وُلدت لقّبني بعارف)

(١) المِصْقَع : المتفنن في مذاهب القول .
(٢) المُفْلِق : الذي يأتي بالقول المعجب ، والحاذق في الشيء .
(٣) الضَّرَب : (بفتح الضاد والراء) : العسل الأبيض الغليظ . والقطعة منه : ضَرَبة .
(٤) التسميط : هو أن تأتي في قصيدة بأشطار مقفاة بقافية ، ثم تأتي بعدها بشطر مقفى بقافية مخالفة ، وتستمر على هذا المنهج من التزام القافية المخالفة ، حتى تنتهي القصيدة .
(٥) الروع : (بالضم) : القلب ، و (بالفتح) : الخوف .

والتخميس :

أحاط بما أحاط أثيرُ فخري ... ومن أفق الرسالة لاح فجري
فيا متجاهلاً برفيع قدري ... (ألم تعلم بأن سماء فكري
تلوح بأفقها شمس المعارف)

أنا ابن المصطفى خير البرايا ... أنا ابن سميٌ من سنّ الضحايا
أنا ابن أجلّ من ركب المطايا ... (تفرّس والدي في المزايا
فيوم وُلدت لقّبني بعارف)

التخميس للأصل والتشطير :

أضاء بحكمة الأشراف سرّي ... وقد وقَرتْ هياكُلها بصدري
فيا من كان بالأرصاد يدري ... (ألم تعلم بأن سماء فكري
تنوب عن النجوم بها اللطائف)

وحكمة عينها تجري كعين ... على كبد السما بُذاب عين[1]
فكم أثرا تحاول بعد عين ... (وعن شمس النهار لكل عين
تلوح بأفقها شمس المعارف)

ربيت بحجْر أعلام البرايا ... فغطّتني بطمطام السجايا
ومن إلهام علام الخفايا ... (تفرس والدي في المزايا
ورام لحوق تالده بطارف)

فراح يجول في طرف كبرق ... ومن قدَم يلاحظني لِفرْق
فأحرز في العلى قصبات سبْق ... (وأجرى ما تخيّله بحذق
فيوم وُلدت لقّبني بعارف)

(١) العين : من الألفاظ المشتركة ، وقد استغل الألوسي فيها هذه الدلالة ، فاستعملها بمعان مختلفة .

التخميس البروازي :

(ألم تعلم بأن سماء فكري) ... بها زُهْر المعاني كيف تسري
وقد نجمت بها ألفاظ شعري ... فإن هِي أشرقت من أفق ثغري
(تنوب عن النجوم بها اللطائف)

(وعن شمس النهار لكل عين) ... بها عوض إذا بزغت كعين
فدع أثراً ، فما أثر كعين ... بدت لقلادة العَلْيا كعين
(تلوح بأفقها شمس المعارف)

(تفرّس والدي في المزايا) ... غداة وُضعت مطبوع السجايا
بفكر فيه تنصقل المرايا ... وصحت من نجابته المطايا
(ورام لحوق تالده بطارف)

(وأجرى ما تخيّله بحذق) ... بلا زجر لطائره وطَرْق
فحقق ماتصوره بصدق ... وأدرك عَرْف عرفان بنَشْق
(فيوم وُلدت لقّبني بعارف)

[طفولته]

ثم إنه ـ دام علاه ، ولا رام الدهر غير رضاه ـ بعد أن استحق الفطام ، وتمت من حولَيْ الرضاع الأيام ، خطت له ظئره[1] اسم البخل على ثديها ففطم ، وعظم على سجيته الهاشمية أن يلتقم ثديا خَطّ عليه البخلُ ورُقم ، ثم لم يزل منه آثار ماأودع الله تعالى فيه ، تسطع[2] من بروج خلقه أنوار عوارفه ومعاليه .

(١) الظئر : المرضعة لغير ولدها ، ويطلق على زوجها أيضاً .
(٢) في الأصل : (وتسطع) .

وقد ضاق صدر الدهر عن كتم فضله … فأظهره إذ كان سرّاً مكتّماً[1]
فما هو إلا رحمة الله للورى … به ينقذ الله الأيامى من العمى[2]
فلو حققت عين الحقيقة ذاته … لقلنا هو النور الذي قد تجسما

وأول ماتعاطاه ، حين ميز شماله من يمناه ، أن تتبّع الآثار في تحصيل متعارف العلوم ، ونصب شبكة الأفكار لاصطياد عنقاء غرائب الفهوم ، واستفاض ما استفاض ، من جانب المبدأ الفيّاض ، من معارف لا تحصل بالكسب ، ولا يجدي في اصطيادها تعب ولا نصب ، فصار قلبه الشريف وعاء لعلوم فطريّة ، وفهوم نظرية ، ومعارف لدُنّيّة :

فأرى الناس ما سواه وهاداً … إذ رأينا علومه الأعلاما
ولقد كاد أن يَرى ما وراء الـ … غيب علماً قد ناله إلهاما
فإذا عُدّت الأجلّة يوماً … كان بدءاً لهم ، وكان الختاما

[حجته الأولى]

ولما بلغ من العمر ثمانياً وعشرين حجة ، واتضحت له من سبل الاستطاعة للحج المحجّة ، حزم مطية العزم بأقوى حزام ، وجزم أن يحج بحلال ماله بيتَ الله تعالى الحرام ، فخرج من بيت أبيه متجرداً عما يشغل قلبه السليم ، وسعى على نجائب الشوق للطواف ببيتٍ رفَع منه القواعدَ جدّه إبراهيم ، فعجّ وثجّ[3] ، وطاف وحج ، ونال المُنى ، في عرفة ومِنى ، وفاز بالصفاء ، بين المروة والصفا ، وحدا بالحِجْر حادي الشوق وزمزم[4] ، إذ تمشّى بين المقام وزمزم :

(1) في الأصل : (إذا) ، ولا يستقيم معه الوزن .
(2) في الأصل : (الأيام) ، ولا يستقيم معه الوزن .
(3) العج : رفع الصوت بالتلبية . والثج : سيلان دم الهدْي .
(4) زمزم : صوت من بعيد تصويتا له دوي غير واضح . أو تصويتا متتابعاً .

وكاد يمسكه عرفانَ راحته … ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
إذ قد غدت من رسول الله نبعتُه … مشتقةً ، وكذاك الخُلْق والشّيم

وغمر هناك فقراء الحرم ، بمزيد اللطف والكرم ، وأنفق عليهم من حلال ماله ، إنفاق غنيٍّ لا يخطر الفقر على باله :

فهو أعلى من أن يقال : كريم ، … إن عددنا من الأنام الكراما
يغمر الناس بالجميل ، وصوْبُ الـ … مُزن يسقي البطاح والآكاما

ومن لطيف شعره ماقاله هناك في البيت المعظم وقد احترق شريف ستره :

تحمّل بيت الله عن كل زائر … ذنوباً بها اسودّت له الكسوة البيْضا
فلما استحقوا النار من كثر مأثم … فلم يرض إلا أن تحمّلها أيضا[1]

وقد خمسه الفاضل الشيخ محمد أمين الأيوبي القادري الدمشقي[2] فقال :

لحجاج بيت الله خيرُ مآثرٍ … حباهم بهذا الفضل أكرمُ غافرِ
وحين أتوه بانكسار خواطرِ … (تحمّل بيتُ الله عن كل زائرِ
ذنوباً بها اسودت له الكسوة البيضا)

(1) قد يبهرنا البيتان بما فيهما من حسن تعليل ، ولكن فكرة تحمل الذنب - في رأيي - فكرة دخلت على الشيخ كما دخلت على غيره من النصرانية ، دون أن يتنبهوا إليها ، والمنطق الإسلامي يقرر أن لاتزر وازرة وزر أخرى . أما الغفران ، فيكون من الله ، وطريقه هي التوبة النصوح .
(2) **الأيوبي** : محمد أمين بن سليمان بن أمين بن عبد الرحمن الأيوبي ، فقيه مؤرخ ، من أهل دمشق . تولى أمانة الفتوى بدمشق ، ومن آثاره : (عقد التهاني) ترجم فيه لشيخه (محمد سعيد البرهاني المولود سنة ١١٦١ هـ) وقد كان الأيوبي حياً بعد ١١٦١ هـ . (معجم المؤلفين ٩ : ٧٣) .

سعوا قاصدين البيت في وقت موسم　　يريدون محو الذنب مَعْ نيل مغنم
خطاياهُم نافت عن الحصر من فمٍ　　(فلما استحقوا النار من كثر مأثم

فلم يرض إلا أن تحمّلها أيضاً)

وأنشد هذا الشيخ أيضاً في تلك الحادثة بيتين هما عند من يراعي خاطره بالنسبة إلى بيتي حضرة المولى الذي لا ثاني له ، في المرتبة الثالثة ، وذلك قوله :

فلا تعجبوا من حرق ثوبِ لكعبة　　غدا شأنها التعظيم من قبَلِ الباري
فقد لمست أيدي الروافض ثوبَها　　فلم يك تطهيراً لذاك سوى النار

فإنها على ركاكة مبناها ، قد سرق معناها من قول الشاعر ، وقد احترق حرم النبي سيد الأوائل والأواخر ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشرف وعظم وكرم :

لم يحترق حرمُ النبيّ لريبةٍ　　تُخشى عليه ، ولا دهاه العار
لكنما أيدي الروافض لامست　　ذاك الضريحَ ، فطهرته النار[1]

ثم إني أقول : كون البيتين السابقين لحضرة مولانا شيخ الإسلام ، هو الذي أشعَر به كتابته لها في أثناء ماله من منظوم الكلام ، وقد شاعت نسبتها إليه في العراق ، بل اشتهرت في جميع الآفاق ، إلا أني اتفقت ليلةً في آمد[2] ، مع جناب الوالد الماجد ، ذي الشرف العليّ ، السيد أحمد أفندي القلعلي ، فقرأ البيتين ناسباً لها لشيخ الإسلام كال زاده ، فقلت : أين وجدتها ؟ فقال : وجدتها في كتاب كتب منذ سبعين سنة وزيادة ، وقد حفظتها منذ ثلاثين سنة بل أكثر من ذلك ، وحفظت بيتين باللغة التركية له أيضاً وجدتها هنالك ، وهما[3] :

(١) ورد البيتان دون نسبة في ترجمة محمد بن إبراهيم الجمال الكناني في التحفة اللطيفة للسخاوي ٣ : ٤٥٦ .

(٢) آمد : (بمد الألف وكسر ثانيه) : هي مدينة من ديار بكر خرج منها جماعة من العلماء في كل فن .

(٣) والبيتان عبارة عن ترجمة للبيتين السابقين اللذين كتبها بالعربية : (تحمل بيت الله ... إلخ) .

يوكَلْنُوبْ بيتِ خُدا معصيَّتِ زُوَّارِي　　أُولْدِيأَقْ كِسْوهِسِى تَكْثِير كُنَاهإيلَهسِيَاهْ
مُستحِقْأولْمِشْإيكَنْنارَهْكَنُهْلَهْحُجّاج　　عاقِبَتْ إيتدِي تحمُّل آنِيدَهْ بيتِ الله

فقلت : يامولانا ، إن البيتين السابقين على ماعندي ، لحضرة السيد شيخ الإسلام السيد أحمد عارف حكمة بك أفندي ، فقال : ماذكرته لك هو الذي وجدته في ذلك الكتاب ، والله عز وجل هو الأعلم بالصواب . (فأوقعني)[1] ذلك الوالد في الريب ، والله سبحانه هو العالم بالغيب ، وتوارُد الخاطر غير مستحيل ، وقد وقع بين الأفاضل كثير وقليل[2] .

ثم إنه بعد أن حج واعتمر ، وغمر بزمزم إحسانه من غمر ، وعطّر الشفاه بلثم ثرى قبرٍ عطّر الكونَ ريّاه ، ونال عليلُ الغرام بلثمه : شفاه[3] ، وزاد على العرش شرفه وعلاه ، وهو قبر جده أبي القاسم ، وواسطة الفيض الإلَهيّ على العوالم ، منتهى قوس الصعود ، وأول نجم طالع من بروج السعود - لا زالت صلاة الله تعالى منهلّة على روضته ، ومطلقة في ساحة شريف حُجْرته - وعاد إلى وطنه رفيق التوفيق ، وقد كاد البيت يبكي[4] لمزيد الجزع من فراقه بالعقيق ، فعراه - لا عراه - بعد العود إلى الوطن ، حوادث ألبست مخدّرة الطبيعة البشرية ثياب الحَزَن ، حيث أصاب الدهر بسهمه غيرَ واحد من ذوي رحمه وبني أمته ، فعزم على الرحيل ، والإقامة بمعالم أجداده إبراهيم وإسماعيل ، أو عند جده أبي الطيب في طابة ، فهناك تطيب نفس المؤمن ولا تمر بها كآبة .

إذا لم تطب في طيبة عند طيب　　به طيبة طابت ، فأين تطيب ؟

(١) مابين قوسين ضروري للسياق .

(٢) في الأصل (قليل وكثير) ، والسجع يقتضي العكس .

(٣) شفاه : شفاءه ، قصره حفاظاً على السجع . والتعبير على المجاز .

(٤) هذه مبالغة يمكن تأويلها بتقدير : (وقد كاد أهل البيت) .

إلا أنه حال بينه وبين ماعزم عليه ، اختيارُه تعالى له ماهو الأوفق بالحكمة لديه ، والمرء لو نظر في مرايا الغيب لاختار الواقع ، ولو انجلى من عينه غَيْنُ[1] الريب لشاهد أسرار المواقع ، فسبحان الرب العليم والملك الحكيم .

[توليته قضاء القدس]

ثم إنه ـ أعظم الله تعالى عليه منة ـ في السنة الإحدى والثلاثين من عمره المنيف ، راوده القدر على تقلد قضاء القدس الشريف ، وكان ذلك ليحظى برؤيته البيت المقدس[2] ، كما حظي بها من قبله البيت الأقدس ، ولعل هذه القبليّة عند أرباب الشهود ، من آثار القبليّة في البروز إلى معالم الوجود ، فقد جاء في السنّة أن البيت العتيق عمره إبراهيم عليه السلام قبل بيت المقدس بأربعين سنة ، وأصل وضعه كان قبلُ بكثير من السنين . وفي بعض الأخبار أن الملائكة عليهم السلام كانت تطوف به وآدم عليه السلام بين الماء والطين ، وللصوفية في حقيقته كلام طويل ، ليس بمنقول ، وهو ككثير من كلامهم طور وراء طور العقول ، ثم إنه مع ماذكر في زوايا ذلك القضاء خبايا حكم ، وخفايا أسرار تدِق عن أن يترجمها لسان قلم .

فأجاب ـ سلّمه الله تعالى ـ بعد اللتيا والتي إلى مادُعي إليه ، وجبر قلب القضاء بقبول ماأُجبر عليه ، فسار ـ حفظه الرحمن ـ خليل الأُنس ، حتى رحل وقد اشرأبّ إليه بلد القدس ، فسرّ بمشاهدته مشاهِدَه ، وبرّ بعبادته مَعابدَه ، وكادت الصخرة الشريفة تمشي في الأرض مَرَحاً ، وأوشكت قبتها المنيفة أن تطير إلى السماء فرحاً ، وأنس به ـ وأبيه[3] ـ المسجدُ الأقصى ، ودخل من باب الرحمة

(١) الغين ـ بفتح الغين ـ لغة في الغيم . وغانت السماء : غامت .

(٢) لعلها : (بيت المقدس) . وفي العبارة مبالغة .

(٣) قسم بغير الله .

على من فيه من أنواع البشائر مالا يحصى ، ثم جاء الشرع إليه ، يشكو[1] قضاة لو داموا لقُضي عليه ، فشرع يعِده بما يسره ، وقد تساوى مايُظهره وما يسره ـ فأنجز من غير ريث مواعده ، وأحيا بحيا قضائه معاهدَه .

واتفق في تلك السنة شدةُ غلاء ، عمّت من غير غلوّ الفقراءَ والأغنياء ، فكانوا إلى حفنة حنطة ، أحوجَ منهم إلى باب حِطّة ، وإلى جفنة خبز مؤدّم ، أقرم منهم إلى بيت لحم ، فقاربوا أن يودعوا ربوع حياتهم ، ويسعوا حبْواً إلى حفر مماتهم ، وغدا الصحيح والعليل ، يُنشد ماقبلَ قيل :

ألا موت يباع فأشتريه ... فهذا العيش[2] مالا خير فيه

ألا رحم المهين نفس حر ... تصدّقَ بالممات على أخيه

فثارت به مطية المكارم ، ونارت بأرجاء قلبه سجيّة جدّه هاشم ، فأرسل رسل أمواله إلى الميرة ، وجلب من أقاصي الأماكن حنطة كثيرة ، فقسمها على الخبّازين ، ليخبزوها للجائعين ، فأعلن الناس السرور ، وأصبحوا وقد فار ـ ولكن بالخبز ـ التنور ، وأمر أن يباع بأرخص الأثمان ، ليكون النقصان صدقة خفية لا يعلمها إلا الملك الديان ، فأمن الناس من البأس ، ونزعوا لباس الجوع وهو لعمري بئس اللباس ، ولم يزل يفعل ذلك ابتغاءً لرضا ملك الملوك ، حتى عم الخصب ـ ولله الحمد ـ الغنيَّ والصعلوك ، فكم أحيا ـ دامت حياته ـ بذلك نفساً ، وأزال عنها ـ لاعراه بؤس ـ بؤساً ، فيالها صدقة تشهد بصدق تقواه ، وتقضي بأن الخير كان في تسجيل قضاه ، وقد صرف بذلك أموالاً لاتعلم إلا يوم الحساب ، ينصب الميزان ويوضع الكتاب ، وهذا بعض فضل ربه عزّ وجل عليه ، عمه في كل وقت مقبولاً لديه .

(١) في الأصل : يشكوه .

(٢) في الأصل : (مالي لاخير فيه) .

واتفق أنه ـ حفظه الله تعالى من كل ألم ـ رأى هناك قبور المسلمين عند باب الرحمة وحفر اليهود في وادي جهنم ، فقال على سبيل الارتجال :

أرى كلّ شيء أهلَــه في محلــه ... بقدس حماهـا الرب من كل وجهـةِ
قبــورُ يهــود وســط وادي جهنمٍ ... ومقبرةُ الإسـلام في بـاب رحمـةِ

وبعد انقضاء السنة ، وصل بصلة العود وطنه ، فابتهج به ابتهاج الأشباح بعـود الأرواح ، وعطشـان البطـاح بـالمـاء القراح ، وسليم[1] الفراق بمعجـون الدرياق ، والصب الكئيب بضم الحبيب .

[حجته الثانية]

وفي السنة الرابعة والثلاثين ، ناداه البلد الأمين : قد طـالت أيـام الفراق ، وقصرت عن تناول الصبر أيدي الأشواق ، وأحاطت بلابيّ الأحزان ، فكأنما طبق عليّ الأخشبان ، وشبّ بأبي قبيس قبَسُ الهيام ، وطفح من الشـاذروان ميـاه الغرام ، وكاد يسعى إليك المقام وزمزم ، وأوشك الحطيم لمزيـد حنينه إليـك أن يُحْطم ، واشرأب إلى استلام يدك البيضاء طرف الحجر الأسود ، وتمنى الحِجْرُ عودَ طلعتك الغراء ، والعَوْد ـ كما قيل ـ أحمد ، ومال الركن إلى لـذيـذ لقـاك ، وسال الميزاب بعزيز هواك ، وأُغرِم[2] الصفا والمروة بـالرّمَل إليـك ، وهمَّ الستر الشريف أن يطير فيقع عليك ، فـأقبل يـاابن الفواطم وفخر بني هـاشم ، لنبلّ شوقنـا من رؤيتك ، ونصيب غرضنا بنَبل طلعتك .

فأحسّت روحه القدسية بذلك النداء ، واحتست خندريس[3] العناية الأزلية

---

(١) سليم : لديغ ، فهي من أسماء الأضداد .

(٢) في الأصل : (وغرم) . والرمَل : نوع من السير ، وهو مما يفعله الساعون بين الصفا والمروة .

(٣) خندريس : من أسماء الخمرة .

فانتشى لوصال هاتيك العذراء ، وحل به ماحل بربوع جده إسماعيل ، ولا بـدْع فمن القلب إلى القلب سبيل ، مع أن من الجفاء ترك المستطيع الحجَّ خمسـة أعوام ، ولو كان تارك ذلك قـد حج حجـة الإسلام ، فعزم ـ سلمـه الله تعـالى ـ على المسير للوقوف في عرفـات ، وإطفاء جمرات الشوق برمي الجمرات ، ونـادى منـه لسـان الحال ، وهو أفصح من لسان المقال :

من لي بـأيـام الغُـوَيْر وحبـذا ... أيـام ذاك الربـع من أيـام
أيـام كنت أمنتُ طـارقـةَ النـوى ... وظننت أن الـدهر من خـدّامي
مرت كما مرّت خيـالات الكرى ... مـا أشبـه الأيـام بـالأحـلام .!
لله أربعنـا التي في رامـة ... كانت أجـل مطـالبي ومرامي
تلـك المـواقف لم يكن تـذكارهـا ... في القلب بـالميـاه[1] غير ضرام
وأكاد أقطـع حسرة وتلهفـاً ... مني على أيـامهـا إبهـامي

ثم امتطى مطية عزمه وسار ، ولو أعاره البازي جناحيـه لخفق بهما وطـار ، حتى وصل بعد أن قطع كل فج عميق ، وجدد العهد بعد أن جُذّ بـالبيت العتيق ، فغمر بأنواع المكارم والجود ، الطائفين والعاكفين والركّع السجود ، وانتفع بـه من النـاس مـالا يحصى ، كما انتفع بـه عن قرب أهل المسجـد الأقصى ، وقرّت برؤيتـه عيون المُشاهد ، وطابت بطلعته نفوس المَشاهد .

ثم حدا به من الشوق إلى زيارة جدّه صلى الله تعالى عليـه وسلم حـادٍ ، فغـدا ـ ولا جناح عليه ـ بلسان الحال ينادي :

يـاغنيَّ الجَمال من كل وجـه ... لست أشكـو إلا إليـك افتقـارا
مَنْ مُجيري من لـوعـة تركتني ... طـول دهري أعـالـج الأفكارا[2]

---

(١) كذا في الأصل .

(٢) في الأصل : (من مجرى) ، والشاعر يشكو افتقاره إلى رؤية وجه الرسول ﷺ .

ولم يزل يواصل الرحيل ، حتى وقف حيث كان يقف جبريل ، فلثم الثرى مفتخراً على الثريا ، ونال لعمري في ذلك الموقف مكاناً علياً ، ثم تمثل بقول المشوق الأول :

في حالة البعد روحي كنت أرسلها   تقبّل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه نوبة الأشباح قد حضرت   فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

إلى أمور بلغها بلا واسطة جدّه ، وقدمها لحضرته الشريفة وحده .

فكان ما كان مما لست أذكره   فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

وتقرب هناك بكل قربة ، وطابت به نفوس أهل طيبة ، وذكرتهم رؤيته البدر طالعاً من ثنية الوداع ، وجددت لهم أوبته الحمد مادعا لله داع ، ثم عاد - دامت عوائده - إلى الوطن ، وحقائب راحلته مليئة من المنح ، خليّة عن المحن ، فتباشر سَكَنةُ القسطنطينية بعَوْده ، واستنشقوا من أردانِ بروده عند وروده نفحات جدّه ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويسَّرَ لنا لثم ثرى قبره المكرم المعظم[1]

وله أبيات تتعلق ببعض هاتيك الأماكن الشريفة ، وتتضمن مدح الحضرة الأحمدية المنيفة ، وتشير إلى شرح شيء من أحواله - لا زال مشروح حواشي الصدر بلطف الله تعالى وأفضاله - فمن ذلك قوله ، وقد عز مثله :

ولست أبالي حين أمسح جبهتي   بأعتاب من يسمو ثراه على العرش
وفوق سماءٍ كم لـه من مَواطئ   علا فخرُه منها عُلاه على العرش

وقوله ، دام فضله :

بين قبرٍ ومنبرٍ لنبيٍّ   روضةٌ من رياض جنة عدن
فادعُ فيها بما اشتهت لك نفس   بأكفِّ الدّعا ، جَنى الخير تَجني

(١) كل ما جاء على غرار هذا التعبير فهو غير مقبول شرعاً.

وقوله ، سما فرعه وأصله :

ألم يَفُق كلّما   أعددته في القُرَبْ
حُبّي لخير الورى   والمرء مع من أحب

وقوله ، كان له من التوفيق أجلّه :

مرِّغ جبينك في موا   طئ من أُمِرتَ له بطاعة
من زار قبر محمد   وجبت له صلةُ الشفاعة

وقوله ، لا كذّبه أمله :

أقبّل أقداماً فخاري بها يعلو   بأفواه أجفان ثراها له كُحل
بروضة فخر الرسل غرّد صبابة   كوُرْق ، وإلا فالغرام له أهل

وقد شطر ذين البيتين الفاروقي[1] فقال ، وقد أجاد على عادته في المقال :

(أقبل أقداما فخاري بها يعلو)   كما قد علت فوق الثريا لها نعلُ
وألثم سبعاً من نبال شراكها   (بأفواه أجفان ثراها لها كحل)
(بروضة فخر الرسل غرد صبابة)   وردِّد على أفنانها نعته ، واتلُ
وكن ساجعاً طول المدى فوق بانها   (كوُرْق ، وإلا فالغرام له أهلُ)

وقوله ، ناب له عن حَزْن[2] الطريق سهله :

رسولَ الرضى ضاقت عليّ مسالكي   وأنت دليل العاجزين إلى الهدى
فكن لي شفيعاً يوم لا ملجأ سوى   شفاعتك العظمى التي تمنع الورى[3]

(١) في الأصل (الفاروق) ، والصواب ما أثبتناه ، وهو يعني الشاعر أحمد عزة الفاروقي العمري ، وستأتي ترجمته .
(٢) في الأصل : (حران) والصواب ما أثبتناه .
(٣) الأسلم في موضوع الشفاعة أن تطلب من الله مباشرة ، فيقال - مثلاً - اللهم شفّعْ فيّ رسولك .

وقوله ، أحاط به المجد كله :

نبيَّ الهدى حزتَ المفاخر كلَّها ... وأنت حبيب الله والرحمةُ العظمى [1]
فحاشاك أن ترضى وإن كنتُ مذنباً ... بلا فرج كربي وقد أوهن العظما

وقال مخمساً ، لازال متقدساً :

ثرى ضريح بثغر الجفن ألثمه ... وفي رباه وعاءَ الدمع أسجمه
وكم أنادي اشتياقا مَنْ يكرّمه ... (يا خير من دفنت في الترب أعظمه
وطاب من طيبهن القاع والأكم)

يا حبذا وعدُ خير أنت ضامنه ... لمغرم مخلص في الحب باطنه
يا من تجلّ عن الإحصا محاسنه ... (نفسي الفداءُ لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف ، وفيه الجود والكرم)

وقوله مشطراً ، وعما في الضمير معبراً :

(إلهي نجّني من كل ضيق) ... إلى مندوحة الفضل الوسيع
وحطّ جرائمي وأعِزَّ قدْري ... (بجاه المصطفى مولى الجميع) [2]
(وهب لي في مدينته قرارا) ... قرار ملازم الحصن المنيع
ويسّر لي بها عيشاً هنيئاً ... (وموتاً ثم دفناً بالبقيع)

إلى غير ذلك من درر تضيء به الحوالك .

وبقي بعد أن عاد إلى محله النفيس ، مقدماً الأنس بالعلم على كل أنيس ، كما أشار إلى ذلك بقوله ، ولا يستبعد مثلُه من مثله :

---

(1) لاشك أنه ﷺ رحيم بالمؤمنين ، ومن رحمته شفاعته العظمى ، وشفاعته في المذنبين .

(2) التوسّل بجاه الرسول ﷺ للعلماء فيه كلام معروف . وفي كتاب (التوسل والوسيلة) لابن تيمية رحمه الله ، التفصيل الشافي .

صحبت زيداً وعَمْراً ... وذقت حلواً ومُرّاً
فما وجدت أنيساً ... كالعلم عسراً ويسراً

وكان - دام مجده - مشغوفاً بالمطالعة ، ولا أظن في ذلك الأمر أحداً في الحال أو الاستقبال أو الماضي : مضارعَه ، وقد قال مشيراً إلى تلك الحال :

أروح وأغدو في التهاب وغلّة ... بفرط اشتياقي في مطالعة الكتب
إذا ما اختلَتْ نفسي وحرتُ (بأمرها) [1] ... أُوافي كعطشان على المنهل العذب
أهُمُّ - ولو كانت بحوراً - بشربها ... ولكنه لا يرتوي أبداً قلبي

وهذا يصدح بكمال الفضيلة ، ويصدع بعلو همته الجليلة ، وهكذا فلتكن أبناء هاشم ، والسادة الأجلّة الخضارم ، وقد أشار إلى هذه المهمة ، متحدثاً بالنعمة ، فقال - سلمه الله الملك المتعال - :

ولي همة أمضى من السيف تَعتلي ... سماكا ، وترجو فوق ذلك مظهراً
تمد الثريا عقدها فأردها [2] ... أرى قدره من جيد مجديَ مقفراً

[توليته قضاء مصر]

وفي السنة السادسة والثلاثين ، من سنيّ عمره المقرون بسنيّ العزّ والتمكين ، حكمت الإرادة الباهرة ، بإشراق أنوار يوسف قضائه على أرجاء مصر القاهرة ، فقد سلمه الله تعالى حلو ذلك القضاء من مرّ القدر ، حيث كان ملء قلبه الشريف التشرف بالعود والإقامة بمدينة جدّه سيد البشر صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكم لله عز وجل في ذلك أسرار لا تستطيع أن تلج في محكم أبراجها الأفكار ،

---

(1) مابين القوسين زيادة يقتضيها السياق . وفي الأصل بياض .

(2) لعلها : (فأرده) . وقبل البيتين في الهامش : (١٢٣٧ بعد الهجرة على بعض الإجازات الآتية) .

فتوجه إلى ذلك مجبوراً[1] ولكن غدا ـ إذ سمع به ـ صقع القاهرة مجبوراً :

بـذا قضت الأيـام مـا بين أهلهـا ... مصـائب قـوم عنـد قـوم فـوائـد

فركب البحر وهو بنيران فتنة الكفرة من أهالي مورة[2] مسجور ، وهي لعمري فتنة غدت لوقعتها الجبال الراسيات ـ والأمر لله تعالى ـ تمور ، وقد استمرّت بضع سنين ومرّت ، ولكنها علقمت ـ لا درّ درها ـ ريق الإسلام وأمرّت ، وتفصيلها تشيب منه لِمَم المداد ، وتشب به نار الغم في كانون الفؤاد ، ولم يزل ـ سلمه الله تعالى ـ ترفعه وتحطه أمواج الأراجيف ، وهو لا يبالي بما طن من ذلك على سمعه الشريف ، حتى استوت به سفينة السير على ساحل السلامة ، وضرب في أرجاء مصر فسطاط الإقامة ، فلم يبق عالم إلا حظيَ بنبيل نيلِ جوده العذب الفرات ، وسحّ عليه من سَيَحان[3] فيض فضله ماأنساه جوائح جَيَحان[4] الحاجات ، واستأنس به سائر الناس غاية الاستئناس ، وأصبح عزيزَ مصر وغزيرَ فرحه لا يقاس بمقياس ، وعاد الشرع القويم قرير العينين ، حتى كأنما عاد إليه حضرة جدّ الحسين ، حيث أنه أماط جور القضاة قبله وأذهبه ، واستوى عنده في إجراء الحق ـ خشيةَ النار ـ الماء والخشبة .

واتفق أنه زار هناك قبر حضرة الإمام الشافعي ، ومَنْ شمّ ثرى ضريحه كشمّ رياض شقائق النعمان الشافي العيّ ، فرأى على محدّب قبته الشبيهة بالفَلَك فُلْكاً

(1) يقصد : مجبراً .

(2) مورة : جزيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط في الجزء الغربي من بحر إيجة ، والشرق من الإدرياتيك ، افتتحها محمد الفاتح سنة ١٤٦٠ م ولكنها ظلت مطمعاً للبندقيين ، ومسرحاً للثورات . والثورة التي يشير إليها المؤلف هنا حدثت في عهد السلطان محمود خان الثاني (١٢٢٣ هـ ـ ١٢٥٥ هـ) الذي انتدب لاخمادها محمد علي باشا والي مصر .

(3) السَيحان : جريان الماء .

(4) الجَيحان : كالجُوح ، وهو الفساد والهلاك .

كالزورق الصغير ، لكنه قد شحن ـ إذ رسا هناك ـ بفضل كبير ، فأنشد في ذلك يقول ، وياله من قول تثمل به العقول :

أتيت لقبر الشـافعيّ أزوره ... فعـارضني فُلْـكٌ ومـا عنـده بحر
فقلت : تعـالى الله تلـك إشـارة ... تشير بـأن البحر قـد ضمـه القبر

وهما عند من له فضلٌ جلي ، أبهى من قول الفاضل ... ء الدين العاملي[1] :

قبـة مـولاي قـد عـلاهـا ... لِعظْم مقـدارهـا السكينـة
لـو لم يكن تحتهـا خضمٌ ... مـا كان من فـوقهـا سفينـة

وكذا هما ألطف من قول البوصيري[2] :

بقبـة قبر الشـافعي سفينـة ... رست من بنـاء محكم فـوق جلمـود
ومـذ غـاض طـوفـان العلـوم بموتـه ... استوى الفلك من ذاك الضريح على الجود

وأظرف مما ذكره ابن إياس في تاريخ مصر ، كما لا يخفى على من سارت به سفينة الإنصاف برياح جَوْدة فكر ، ومن ذلك قول بعضهم :

سقى تربـةَ الشـافعيّ الإمـام ... من الكـوثر الأعينَ الجـاريـة
لهـا قبـة تحتهـا سيّـد ... وبحر لـه فـوقهـا جـاريـة[3]

(1) العاملي : هو محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي ، ولقبه بهاء الدين ، عالم أديب إمامي ، شاعر ، ولد ببعلبك ، وترأس العلماء بشاه عباس ، وزار مصر ، وتوفي بأصفهان سنة ١٠٣١ هـ ، وله مصنفات كثيرة في العربية والعلوم الدينية . (الأعلام ٦ : ١٠٢) .

(2) البوصيري : هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي . لقبه شرف الدين ، منسوب إلى بوصير بمصر ، وأصله من المغرب ، وهو شاعر حسن الديباجة ، توفي بالإسكندرية سنة ٦٩٦ هـ ، ومن أشهر شعره البردة والهمزية ، وهما في مدح الرسول ﷺ . (الأعلام ٦ : ١٣٩) .

(3) فوقها جارية : فوقها سفينة .

وقد خمسها هو ـ سلمه الله تعالى ـ فقال :

ولما بدا من جانب الفيض طُورَه ... ودلّ لتلقاء المآرب نوره
وحيث تجلى للعيان ظهوره ... (أتيت لقبر الشافعيّ أزوره
فعارضني فُلْك وما عنده بحر)
فهمت مكاني حيث تخفى أمارةٌ ... وشمت أرجّي أن تلوح أثارةٌ
وإذ كُشِفت من ذي المقام ستارةٌ ... (فقلت : تعالى الله تلك إشارةٌ
تشير بأن البحر قد ضمّه القبر)

وقد سارت بها أيضاً سفن الروايات حتى وصلتا إلى العراق ، فعام في بحار تخميسها وتشطيرهما كثير من فضلاء الحذاق ، وقد نهزت بدلوهم ، وإن لم يكن لي فضل كفضلهم ، فقلت مشطراً ، وهيهات ـ أين الثريا من الثرى ..؟ :

(أتيت لقبر الشافعيّ أزوره) ... ليُشرَح مني في زيارته الصدر
وسرحت طرفي كي أرى ما يسرني ... (فعارضني فُلْك وما عنده بحر)
(فقلت : تعالى الله تلك إشارة) ... إلى حادث من وقعه عميَ الدهر
ألم تره في حيرة وكآبة ... (تشير بأن البحر قد ضمه القبر)

ومن غريب الاتفاق ، أني بعد عودي إلى العراق ، أخذت في بعض الليال ـ وقد تأججت بي نيران البلبال ـ ، رحلة السيد محمد بن السيد عبد الله كبريت[1] صاحب (شواهد ألفية ابن مالك) من رجال سنة ١٠٤٧ هـ التي سماها : (رحلة الشتاء والصيف) ، فرأيت فيها مما يتعلق بهذه القبة الشريفة ما نصه : بنى هذه

(١) **ابن كبريت** : هو محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بمحمد كبريت الحسيني (١٠١٢ ـ ١٠٧٠ هـ) ، من أدباء المدينة ، وولادته ووفاته فيها . من تصانيفه : (رحلة الشتاء والصيف) ، و (الجواهر الثمينة في محاسن المدينة) ، و (حاطب ليل) ، و (نصر من الله وفتح قريب) في تراجم أهل المدينة . (الأعلام ٦ : ٢٤٠) .

القبة ـ يعني قبة الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ـ الملك الكامل[1] أبو المعالي محمد بن الملك العادل سيف الدين بن أيوب ، وبلغت النفقة عليها خمسين ألف دينار ، وقال الأدباء في شأن هذه القبة فأكثروا ، فمن ذلك :

أتيت لقبر الشافعي أزوره ... فعارضني فُلْك وما عنده بحر
فقلت : تعالى الله تلك إشارة ... تشير بأن البحر قد ضمه القبر

وقال علاء الدين بن عثمان النابلسي :

لقد أصبح الشافعي الإمام ... وفينا له مذهب يُذهَب
ولو لم يكن بحرَ علم لما ... غدا وعلى قبره مركب

انتهى .

فإذا قد صح ذلك ، فالظاهر أن حضرة المولى إنما شطر البيتين ، فلم يُتحقّق الأمر فنسبوا نفس البيتين له ، وإن كان عذر التوارُد فيما سبق مقبولاً فليعتذر به هنا ، والله تعالى أعلم .

[تقديره لأئمة المذاهب] :

ثم إن هذا النظم مما يدل على كمال حسن اعتقاده بأرباب المذاهب ، سحّت

(١) **الملك الكامل** : اسمه محمد ، ولقبه : ناصر الدين ، وكنيته : أبو المعالي ، واسم أبيه : محمد أيضاً ولقبه : العادل وكنيته : أبو بكر . ولد سنة ٥٧٦ هـ وتوفي سنة ٦٣٥ هـ ، تملّك الديار المصرية في عهد أبيه عشرين سنة وبعده عشرين سنة أخرى . قال عنه ابن خلكان : كان سلطاناً عظيم القدر ، جميل الذكر ، محباً للعلماء ، متمسكاً بالسنة النبوية . بنى بالقاهرة داراً للحديث ورتب لها أوقافاً . وهو الذي بنى على قبر الإمام الشافعي القبة التي أشار إليها مؤلفنا الألوسي . قال ابن الأهدل : وللكامل هفوة جرت منه عفا الله عنه ، وذلك أنه سلم مرة بيت المقدس إلى الفرنج اختياراً نعوذ بالله من سخط الله وموالاة أعداء الله . (شذرات الذهب ٥ : ١٧٢) .

وما شحّت على قبورهم الشريفة سحائب المواهب ، وهذا هو اللائق بالمؤمنين والعلماء المنصفين ، لا نحو ما حكى بعض الأجلّة عن رجل يزعم أنه حنفيّ المذهب ، وقد ذكر عنده الإمام الشافعي عليه الرحمة ، فتعمم بالغضب وتعصّب ، فساق في الحال سنداً مفترىً ، وكذب على رسول الله ﷺ وافترى ، فقال : حدثني فلان عن فلان إلى أن قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : يظهر رجل في أمتي يقال له محمد بن إدريس ، هو أضر على أمتي من إبليس ، ولا نحو ما سمعته أنا من رجل يزعم أنه شافعيّ سمع بيهودي أسلم وصار حنفياً فقال والعياذ بالله تعالى : لو بقي على دينه لكان أولى ، فإن ذلك مما يضر بالدين ، بل قد يخرج المرء من عداد المؤمنين ، وأكثر ما يوجد هذا التعصب الخارج عن دائرة الرشاد في حنفية بخاري وما وراء النهر ، وشافعية الأكراد ، نسأل الله تعالى العافية ، وقلوباً سليمة صافية .

وبما يدل أيضاً على ذلك ، وسلوك حضرة المشار إليه في الأئمة أحسن المسالك ، قوله :

إن الأئمة كالمناهل في الهدى ... والناس مثل الوارد الظمآن
والنفس إن رويت بأول منهل ... غنيَتْ بلا كره لشرب الثاني
يُحْيي من الرُّحمى مواتَ قبورهمْ ... صوبُ الغمام بوابل هتّان

وقد وصلت إلى بغداد هذه الأبيات ما عدا الأخير ، فشطّرها وخمّسها من الفضلاء أيضاً كثير ، ولكن الذي أبدع منهم ، وبَعُد بُعْد الثريا عنهم ، الشاب السريّ : أحمد عزة أفندي العمري[١] .

(١) **أحمد عزة** : هو أحمد عزة بن محمود الفاروقي العمري . شاعر باحث من أهل الموصل ، تقلب في مناصب إدارية كثيرة ثم اعتزل العمل وعاد إلى الآستانة ليعكف على التأليف . له ديوان شعر كبير ، ومصنفات أخرى . (١٢٤٤ - ١٣١٠ هـ) (الأعلام ١ : ١٦٩) .

هذا ولا يعكر على ما ذكرناه تفضيلُه الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه على من سواه ، كما يدل على ذلك قوله - لا زال في كل وقت للحق مَيْلُه - :

إن الأئمة عقد در فاخر ... وأبا حنيفة دُرّة التيجان
بعلومه تزهو الشريعة ما علت ... زهر الربا بشقائق النعمان

وقوله :

نفسُ الشريعة - لو فرضت بحالة - ... تمشي على رجلين مثل الناس
شمتُ الأئمة مثل سائر عضوها ... وأبا حنيفة عالياً كالراس

وقوله :

إذا كان الأئمة عقد مجد ... غدا النعمان درّةَ تاج فخر
وكم صبح يلوح ولا كعيد ... وكم ليل يجن ولا كقدر[١]

وقوله :

إن الإمام أبا حنيفة سابق ... بخصاله فيُرى إمام أئمة
بالله منه أضاء غيهب جهلنا ... لا غرو أن يُدعى سراج الأمة

وفيه إشارة إلى حديث ، قال ابن الجوزي - ووافقه غير واحد - بوضعه ، وجعل ذلك من التساهل أو التعصب الذي أشرنا آنفاً إلى منعه ، ثم إن هذا التفضيل ليس من باب : إذا سئلنا عن مذهبنا قلنا : صواب يحتمل الخطأ ، وإذا سئلنا عن مذهب غيرنا قلنا : هو خطأ يحتمل الصواب ، بل هو من باب آخر لا يخفى عن ذوي الألباب .

(١) أي : ولا كصبح عيد - ولا كليلة القدر .

ومما ينبغي التنبيه عليه ، أن هذين الجوابين للسؤالين المقررين ، إنما هما للمجتهد المطلق الذي أصّل أصولاً وفرّع عليها فروعاً ، كالإمام أبي حنيفة ، والإمام الشافعي ، رضي الله تعالى عنهما . أو للمجتهد في المذهب الذي فرّع على أصول إمامه ، كأبي يوسف ، ومحمد ، وكالنووي والرافعي ، في قول ، رحمهم الله تعالى . وأما المقلد المحض ، فلا يلزمه ذلك ، وكيف يقول اليوم في مذهب غيره : هو خطأ يحتمل الصواب . ويقلده غداً ؟ وفي مذهبه : هو صواب يحتمل الخطأ . وينتقل منه ؟ ومتى قال فربما لزمه التناقض في اليوم الواحد مرات ، وكذا تبدُّلُ الاعتقاد من غير موجب إن كان قوله ذاك عن اعتقاد ، وإلا فلا يخفى حال قول خال عنه ، ومثل هذا لا يقال في حق المجتهد بقسميه كما هو ظاهر ، فالمقلد إن قلنا - كما نسب إلى غير واحد من الأئمة - : إن كل مجتهد مصيب ، بناء على تعدد حكم الله تعالى في الأمر الواحد ، وإنه بالنسبة إلى كل مجتهد : ما أدى إليه اجتهاده ، لزمه إذا سئل عن مذهبه ومذهب غيره ، أن يقول : كل منهما صواب . وإن قلنا - كما هو المصحح عند المعظم - : إن المصيب واحد ، بناء على وحدة حكمه تعالى شأنه ، لزمه أن يقول : الله تعالى أعلم بالصواب ، أو نحو ذلك ، ولا يلزمه أيضاً اعتقاد أفضلية مقلَّده على مقلَّد غيره ، بل يلزمه إما هذا ، أو اعتقاد التساوي ، والترجيح بلا مرجح جائز ، وغير الجائز الترجُّح بلا مرجح . أو هو غير لازم فيما ذكر ، لعدم انحصار المرجح في اعتقاد الأفضلية ، وتمامه في محله ، والله تعالى أعلم . وإنما قاله - سلمه الله تعالى - يوم تولى قضاء مصر ، قوله مضمناً :

تـوليتُ مصراً أسأل الله نصره ... بحكم القضا لما استقلّوا المواليا
على أنني راض بأن أحمل القضا ... وأخلص منه ، لا عليَّ ولا ليا

[زيارته للمشاهد ، وأكابر العلماء] :

وكان كثيراً ما يزور هناك مشهد الحسين ، وهو مشهد يلثمه الزائرون بأشفار العينين ، لما شاع فيه عند أهل مصر من الحكايات ، والأعمال - كما جاء في

الصحيح - بالنيات[1] ، وكذا يزور حضرتيْ العالمين ، والحبرين البحرين ، من ظهر فضلها في الأقطار ، ظهور الشمس في رابعة النهار : الشيخ القويسني[2] ، والشيخ حسن العطار[3] - غمرهما الله تعالى بفيض جوده المدرار - وقد قال في ذلك ، لما سئل عن شغله هناك :

سئلت بمصرَ عن شغلي ، وإني ... ذمامَ عبادة والعلمِ أرعى
فأحسنت الجواب فقلت رمزاً ... من الحَسَنين للحسَنَيْن أسعى

وزار دار جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن السيوطي ، مجدد المائة الثامنة ، وصاحب التأليفات التي في عباراتها إشارات التحقيق والتدقيق كامنة ، وقد مدحه بأبيات فقال :

جلال سيوط الحَبْرُ المفدّى ... جمالُ زمانه ، علَمَ الرواية
نُقايةُ[4] كل علم منه حُزنا ... فنرجو منه إتمام الدراية
وكان ببَرٍّ بِرٌّ بحر فضلٍ ... محيط جلَّ عن حد النهاية
سقى المولى ثراه بحورَ جود ... له سحب الرضى أوفى سقاية
كذا باقي الفحول حماة دين ... بسحر يراعهم ، وبها الكفاية

وأخبرني أنها دار صغيرة ، لكنها لنسبتها لذلك الجلال جليلة خطيرة ، وأخذ هناك من علماء أعلام ، كل منهم في حلبة الفضل إمام .

---

(١) يشترط لقبول العمل أمران ، هما : أن يكون صحيحاً ، وأن يكون مصحوباً بالنية .

(٢) **القويسني** :هو حسن بن درويش بن عبد الله القويسني (نسبة إلى قويسنا ، قرية صغيرة في مصر) ولي مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٥٠ هـ ومات سنة ١٢٥٤ هـ (الأعلام ٢ : ١٩٠) .

(٣) **العطار** : هو حسن بن محمد بن محمود العطار ، من علماء الأزهر (١١٩٠ - ١٢٥٠ هـ) ، ولد ومات في القاهرة . تولى إنشاء جريدة الوقائع المصرية ، كما تولى مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ ، له عدة مصنفات منها ديوان شعر . (الأعلام ٢ : ٢٢٠) .

(٤) النقاية : (بضم النون) خلاصة الشيء : وخياره . ومثلها النقاوة (بالواو) .

[عودته إلى القسطنطينية] :

ثم عاد حسب العادة إلى قاعدة بلاد الإسلام ، فعاد كل من أهالي مصر يحن إليه حنين يعقوب إلى يوسف عليهما الصلاة والسلام ، وأمحل من ربوع أنسهم كلّ خصيب وأقفر ، وصوّح زهرُ بهائه وكان الجامعَ الأزهر ، ولما رأت فَرُوق[1] فرق طلعته ، تبسم ثغرها فرحاً برؤيته ، وأعلن العلماء بشكر ماآل إليهم من جليل الآلاء ، وابتهجت المدارس ، وكادت تَعد بعْدَه من الدوارس ، واقعنسست الصدور ، لمضاعف السرور ، وامتلأت ولاة الأمور ، من مزيد الحبور ، وشكرت العوام ، عَوْدَه بالصحة والسلام .

[حجته الثالثة وتوليته قضاء]
المدينة المنورة

وفي السنة الثامنة والثلاثين ، ظهر كمينُ شوقه المكين ، وجعل يغرّد بالحجاز بلبل لسانه ، وتثير من العشاق سحائب العبرات صبا أنفاس جنانه ، حنيناً إلى ربوع ألفها منذ كان في الأصلاب ، وأنوار شاهدها في مشاهدها من دون حجاب ، وأنينا من بُعد العهد بلثم ثرى قبر سيد الورى[2] والمثول بين يدي حضرة رسولٍ عُرج به إلى مافوق الفوق فجرى ماجرى ، ولعله يشير إلى ذلك كله ، ماوجدناه بخطه الشريف من قوله :

ناشدْتُكِ الله سِيري نحو حيّهمُ ... كالبرق يطوي مدى الفيفا بلا مهل
تعرّج العيس من وعثاء كاظمة ... على كثيب اللوى من أيمُن الأثل
حيث العقيق يصب السيح في شُعَب ... وفوق حافاته رسم من الطلل
تجلو بها أطْمَا تهدى إلى إضم ... على مناهل آرام لدى الأصُل

(١) فروق : لقب القسطنطينية كما في القاموس . وهي بفتح الفاء كصبور .

(٢) انظر تعليق ص ٧٢ في

حتى إذا ماتبيَّنت الهضاب فقد ... بانت سعاد فهذا غاية الأمل

فنوى السير إلى مكة المكرمة ، والكعبة المعظمة ، والمشاهد المحرّمة ، فلما علم الله تعالى منه صدق النية ، وقام ألف بيّنة على شغفه بالعوْد إلى تلك البَنيّة ، وأحب - جل شأنه - أن يكون مظهراً لأنوار جدّه في المدينة المنورة ، وتتعطر أردان فضله بنفحاته المعطّرة وحجرته المعطَّرة ، قضى سبحانه أن يسيره إلى بيته الحرام ، ويصيّره قاضياً في مدينة حبيبه عليه الصلاة والسلام ، فصار - سلمه الله تعالى - قاضياً وسار ، ولولا أن القضاء غدا مطية مرامه لقُضي عليه من مزيد الأكدار ، والمرء قد يستحلي المرّ لأمرٍ ما ، ويستلذ الكريه إذا كان وسيلة لما يراه مهمّاً ، ولذا قال من قال :

أجد الملامة في هواك لذيذةً ... حبّاً لذكرك ، فليلمني اللوَّمُ

فلما وصل إلى هاتيك الأرجاء ، بدأ بأداء الحج قبل تعاطي القضاء ، وبعد أن أتم نسكه ، سلك في تعاطي ذلك ماأوصى الجدّ أن يسلكه ، ثم ختمه بحجّ وعج وثجّ ، فحسُنَ لعمري مطلعاً وختاماً ، وطاب - وحرمةِ البيت[1] - مرضعاً وفطاما .

[عدم أخذه رسوماً ولا هدايا في القضاء] :

وقد صانه الله تعالى - كما عوده - من أخذ الرسوم ، التي اعتاد القضاة أخذها ممن يحكمون له من الخصوم ، ويسميه جهلتهم حقاً ، مع اختلاف العلماء في تسميته رزقاً . وكذا لم يكن يقبل هدية ، كلية أقبلت أو جزئية - لما يعلم من حكمها بالنسبة إلى القاضي ، وحاله اليوم في ذلك كحال الحالي في الماضي ، وغرضه بلا شبهة التوقّي من الشبهات ، لغلبة فساد الأفعال والنيات في هذه الأوقات ، وقد

(١) قسم بغير الله .

رأيته إذا خشي انكسار قلب الآتي له بهدية ، من الردّ ، يشرح له حاله ويعتذر إليه ويعطيه ثمنها مضاعفاً مُتجاوزاً في الحد . نعم إذا كان المهدى شيئاً حقيراً ، وكان المهدي مع كونه من أخص أحبابه شخصاً خطيراً ، قبل ذلك منه ، وجزاه أيضاً عنه ، ومن ذلك ماسمعته أن الوزير المرحوم داود باشا[1] والي بغداد السابق ، الذي لم يدركه فيما نال من الرئاستين : العلمية والملكية ، وزيرٌ لاحق ، أهدى إليه أنفية هندية ، وأصحبها خشية الرد أبياتاً عربية ، فقال :

أنفيــة وافت الحقير من بلــد ... ألقى الشباب بها تميّتي ومضى
أرسلت بعضاً إليكم معْ حقارته ... أمر التشارك بالمهدى بذاك قضى
تفوح أرواح هند من معارفها ... إن شمها (عارف) من عرفها نهضا

ومثل هذا يعد من فكاهة الأحباب ، ومن حِقاقها ينشق عَرْف اللطافة ذو العرانين الشم من ذوي الألباب ، ثم إنه لا يخفى اختلاف البحر في الأبيات ، فلو قال :

أنفيــة لو أتت للخدن من بلد ... قضى الشباب بها جلبابه ومضى

لكان أولى ، لكن المشار إليه لم يكن متدرباً في الشعر ، بل نظم مثلي البيت أو البيتين أحياناً ، فليعذر في ذلك .

ثم إنه ـ حفظه الله تعالى ـ مع ماسلف ، عمّ عوامَّ أهل طيبة بطيّب الإحسان ، وخص خواصهم بصيّب أياديه الحسان ، وتلك نَشنشة[2] منه ألفوها ،

(1) **داود باشا** : كرجي الأصل . نسبة إلى كرُج ، وهي من ثغور أذربيجان ، وكان يهتم بالفقه والأدب والتفسير ، وعمل قائداً للجيش العراقي في عهد سيده سليمان باشا (أحد ولاة العراق) وفي عهد ابنه سعيد باشا ، فقضى على الفوضى وقمع الفساد ، وصار والياً عليها سنة ١٢٣٢ هـ وتطلع إلى الاستقلال فعزله السلطان محمود ، ثم أرسله ابنه عبد المجيد شيخاً للحرم النبوي سنة ١٢٦٠ هـ فظل في المدينة مشتغلاً بالعلم والتدريس إلى أن توفي بها ودفن بالبقيع سنة ١٢٦٧ هـ ، وكانت ولادته سنة ١١٨٨ هـ . (الأعلام ٢ : ٣٣١) .

(2) النشنشة : الصوت والحركة ، ومنها صوت حركة الدرع والقرطاس والثوب الجديد ، ونحوه .

وشنشنة[1] هاشمية فيه عرفوها ، ولا تسل عما نال هو من جدّه الحبيب الأعظم ، فذاك ـ وجدِّه الكريم[2] ـ جدٌ مطلسم ، الله تعالى به أعلم .

[التفاف العلماء والأدباء من حوله] :

ومما اتفق له هناك من الفكاهات الأدبية ، والمطايبات الشعرية ، أنه تشرف بمجلسه الشريف جماعة من الأدباء ، وحلّ فيه جملة من أفراد فحول الشعراء فوقع السؤال عن معنى قول من قال :

أوَ ماتراني في محاولة العُلى ... مُلْقي المريح متيَّماً بالمتْعِب
كهلال أول ليلة في مشرق ... وكشمس آخر ساعة في مغرب[3]

فتحيرت بزات[4] أفكار من حضر حظيرته المنورة ، وعرض لها نحو ما يعرض مما سوى الاستقامة للخمسة المتحيرة ، فقال ـ سلمه الله تعالى ـ : أنا أوضح لكم المعنى بتشطير ، وأعينكم[5] فيما يعنيكم بمنظومة من منثور التقرير ، فقال مشطراً ، وأنشد مفسراً :

(أو ماتراني في محاولة العلى) ... أطأ الثريا فوق صهوة أشهب
أمسي وأصبح في العذيب وبارق[6] ... (ملقي المريح متيماً بالمتعب)
(كهلال أول ليلة في مشرق) ... سئم الخفا ، فبدا بأفق تغرُّب

(1) الشنشنة : مثل النشنشة . وبكسر النون : العادة الغالبة . ومنه المثل (شنشنة أعرفها من أخزم) يضرب في قرب الشبه في الخَلق .

(2) قسم بغير الله .

(3) في الأصل : (من مغرب) . وملقي : كان حقها النصب بالفتحة الظاهرة .

(4) البزات : جمع بزة ، وهي الهيئة .

(5) في الأصل (أو أغنيكم) وقد يكون ماأثبتناه أنسب .

(6) في الهامش : (وأجول مابين العذيب وبارق) .

وكنور صبح[1] حين يعترض الدجى   (وكشمس آخر ساعة في مغرب)

وحاصل المعنى الذي أشار إليه حضرة المولى : أن الشاعر فيما قال ، يشبّه الهلال ، من حيث إنه لم يسترح خفيّاً في المشرق ، بل جهد بحسب ما يُرى في السير نحو المغرب ليشرق ، وكذا يشبّه الشمس في المغرب آخر ساعة من النهار ، من حيث إنها لم تبق كاسفة اللون حسبما تشاهدها الأبصار ، بل جهدت في سراها ، لتطلع فترتفع ، فيبهر ضياؤها ، والذي يغلب على المشاعر أن هذا هو ما أراد الشاعر ، وهو زهرة ربيع لا يتحمل الفرك ، وخصر أهيف لا يعاب إذا برك . وأبعد مما قاله في الهلال من القيل والقال ، ما قاله بعضهم ضمن أبيات ، هي لعمري على كثير من الطباع أبيّات :

إذا الكريم رأى الخمولَ نزيله   في بلدة ، فالرأي أن يتحولا
كالبدر لمّا أن تضاءل جدّ في   طلب الكمال ، فحازه متنقلا

وقد أرسلت هذا التشطير إلى فضلاء بغداد ، فأحجم معظمهم عن تثنيته ، إذ رأوه مفرداً في جميع المراد ، نعم إن شيخ الأدب ، وأشعر شعراء العرب ذا الفكر العبقري : عبد الباقي أفندي العمري ، شطر التشطير ، وداعب في بعض الشطور الفقير ، فقال :

(أو ما تراني في محاولة العلى)   شغفاً أزاحم أهلها بالمنكب
وبحافرٍ صفعَ الأهلّة نعلُه   (أطأ الثريا فوق صهوة أشهب)
(وأجول ما بين العذيب وبارق)   جولان وامض بارقٍ في غيهب
مستبدلاً طيب المنام بسهر[2]   (ملقي المريح متيماً بالمتعب)
(كهلال أول ليلة في مشرق)   يبدو ضئيلاً مثل زورق مركب

(١) في الهامش : (أو مثل صبح جاء يخترق الدجى) .

(٢) بسهر : الصواب دخول الباء على (طيب المنام) لأنه هو المتروك .

أو كالشهاب أبي الثناء بموطن   (سمّ الخفا ، فبدا بأفق تغرّب)
(أو مثل صبح جاء يخترق الدجى)   صفّاً بصف ، موكباً في موكب
أو نفس حر سيم خسفاً بدره   (وكشمس آخر ساعة في مغرب)

ولما أُنشد في حضرة مولاي المشار إليه التشطير ، عرضت لديه أنه وقع يوماً في الزوراء السؤال عن معنى قول نهشل بن جرير :

غلامان خاضا الحرب من كل جانب   فآبا ولم تُعقد وراءهما يد

فاختلف الفضلاء في معناه ، ثم خاض كل في تشطيره حسبما رآه ، فقال الفقير :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب)   بعزم له تعنو الكماة وتسجد
ولم تستطع ضمّ الرماح أكفُّهم   (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

وقال العلامة أمين أفندي السويدي[1] :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب)   وشمل الأعادي منهما متبدد
وآلوا على أن لا تعاقد بينهم   (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

وقال خاتمة أدباء العراق ، السيد عمر آل رمضان[2] :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب)   تقاعس عنه الباسلُ المتعود
وغيرهما لم ينزل الحرب ثالث   (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

(١) **السويدي** : هو أبو الفوز محمد أمين بن علي بن محمد سعيد السويدي البغدادي ، من علماء العراق وباحثيهم ، توفي بنجد في بريدة أثناء عودته إلى العراق سنة ١٢٤٦ هـ من الحج . ومن تصانيفه : (سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب) وغيره . (الأعلام ٦ : ٤٢) .

(٢) **عمر آل رمضان** : هو عمر بن رمضان بن محمد بن علي بن درويش الهيتي أصلاً ، البغدادي داراً ، كان من أدبائها وشعرائها المعدودين . وكان معاصراً للشاعر عبد الغفار الأخرس ، وجرت بينهما مهاجات ، فلما توفي الهيتي سنة (١٢٥٢ هـ - ١٨٨٦ م) رثاه الأخرس بقصيدة مؤثرة . (المسك الأذفر ص ١٨٥ ط الجبوري) .

وقال محمد آل شبلي العامري[1] :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب) … وللحتف ما بين الفريقين مورد
وقد قصرت أيدي التفضل عنهما … (فآبا ولم تعقد وراءهما يد)

فأعجبه ذلك ، وضم هو إليه - لا زال الفتح الإلهي مفاضاً عليه - قوله :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب) … تسيّجه بيض وسمر تسدد
بكرٍّ وفرٍّ نازلا وتسوّرا … (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

وقوله :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب) … بكرٍّ وفرٍّ ، والكماةُ ترصّد
وشدّا ونالا والرؤوس تطايرت … (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

وقوله :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب) … رضيعي لبانِ الليث والحالُ تشهد
وحلاّ وشدّا كرة بعد كرة … (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

وقد أرسلت ذلك هدية لفضلاء بغداد ، فشكروا[2] النعمة كعادتهم لتزداد ، وشطروا التشطير ، وأرسلوه أيضاً إلى هذا الفقير ، فقال المفتي الأسبق الجليل ، حضرة فخر العراق : عبد الغني أفندي آل جميل[3]

---

(1) **العامري** : لم أعثر على ترجمته .

(2) في الأصل : (فشكر) .

(3) **عبد الغني أفندي** : من فضلاء العراق (١١٩٤ - ١٢٧٩ هـ) ، أتقن فنون العربية واتسع في سائر العلوم ، ورحل مراراً إلى دمشق وصاحب فضلاءها كالشيخ عبد الرحمن الكزبري والشيخ حامد العطار ، ثم فوض إليه رضا باشا إفتاء الحنفية في بغداد ، وأصيب بعد ذلك ببعض الآفات والبلايا . وله شعر لطيف منه القصيدة الرائية التي كتب بها إلى صاحبنا الشهاب الألوسي بالآستانة . (أعيان القرن الثالث عشر ١٨٥) .

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب) … ونارُ الوغى بالهندوانيّ تُوقد
على كل موّار العنان مطهّم … (تسيّجه بيض وسمر تسدّد)
(بكرٍّ وفرٍّ نازلا وتسوّرا) … محالاً به هامُ الغطاريف تسجد
وكل بنان قد أشار إليهما … (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

وقال اللوذعي الحاذق ، شيخ الأدب العمري السابق :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب) … على ما به (جار)[1] الخناصر تُعقد
وكم رصدا في مأزق الطعن أنفسا … (بكرٍّ وفرٍّ والكماةُ ترصّد)
(وشدّا ونالا والرؤوسُ تطايرت) … كما انحط من فوق الشواهق جلمد
وقد ذهبا في حلّ ما عقد العدا … (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

وقال نبعة الشجرة الفاطمية / السيد محمد أمين أفندي واعظ القادرية[2] :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب) … وبحرُ الوغى بالطعن والضرب مُزبد
وفي حلبة الهيجا الضروس تراهما … (رضيعيْ لبان الليث والحال تشهد)
(وحلاّ وشدّا كرة بعد كرّة) … حُبيّ وعريّ للأسد فيهن مِقود
فغابا بنقع يرجع الطرفَ خاسئاً … (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

فعرضت ذلك على حضرة المولى ، والفلك السامي الأعلى ، فارتضاه وأعجبه ، وكثيراً ما يمدح من العراق أدبه ، ورأيت أكثر ميله في التفضيل إلى تشطير حضرة

---

(1) كذا في الأصل .

(2) **محمد أمين أفندي** : هو محمد أمين البغدادي ،الحنفي الشهير بالواعظ ، تخرج بسفيان الوهبي . وكان يجيد الخط بضروبه على قاعدة ياقوت المستعصمي ، توفي ببغداد ودفن في تكية البكري . ومن آثاره : فتاوى سماها : (العلم الزخار ومنهاج الأبرار) ، و (نظم التوضيح شرح التنقيح) في أصول الفقه . (١٢٢٣ - ١٢٧٣ هـ) . (معجم المؤلفين ٩ : ٧٠) و (المسك الأذفر ص ١٧٦) .

عبد الغني أفندي آل جيل ، فمنعني الأدب أن أقول شفاهاً : عندي أن التشاطير الثلاثة كالحلقة المفرغة لا يدرى طرفاها .

ثم ذكر له الفقير ، أن للبيت قصة جرت مع أبي سعيد أحمد بن خالد الضرير[١] ، ذكرها الجلال السيوطي في (الأشباه والنظائر النحوية) ، والفاضل الصفدي في (نَكْت الهميان في نُكَت العميان) ، تدل على حسن المعنى الذي أشار إليه السيد عمر آل رمضان . فاستبعد ذلك ، وهو حريّ بالاستبعاد ، وإن كان استقْربه المرحوم داود باشا الوالي الأسبق في بغداد ، ومع هذا شطر البيت على ذلك المعنى تشطيراً عجيباً ، ولمح به ـ ولله تعالى دره ـ تلميحاً غريباً ، فقال وأبدع في المقال :

(غلامان خاضا الحرب من كل جانب) كماةُ العدا نارَ الوغى فيه توقد
وقد أبطلا تثليثَ الاثنين مضربا (فآبا ولم تُعقد وراءهما يد)

فإن المراد على ذلك بقوله : (فآبا ... إلخ) أنه لم يعدّ سواهما ، بل عد بالخنصر والبنصر وحدهما ، فهما اثنان لم يعزّزا بثالث من الشجعان ، فأشار إليه ـ سلمه الله تعالى ـ ألطف إشارة ، وإشارة شيخ الإسلام تغني عن العيان ، بقوله : (قد أبطلا) أي أنهما حيث لم يكن لهما ثالث أبطلا قولهم : (الشيء ما ثُنّي إلا وقد يُثلث) وهو مثل مشهور ، لا يصدق كليّاً ، إلا بجعل الثالث النسبة بين الاثنين التي الخارج طرف لها عند الجمهور ـ فلله تعالى در حضرة المولى من مفرد في جمع الفضل ـ لاثنين على مر الدهور .

---

(١) **أبو سعيد الضرير** : هو أحمد بن خالد البغدادي ، كان عالماً باللغة ، من تصانيفه : (الردّ على أبي عبيد في غريب الحديث) ، و (الغريب المصنف) ، ولقي أبا عمرو الشيباني وابن الأعرابي . وأقام بنيسابور وأملى بها : المعاني والنوادر . وكانت له حظوة لدى طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان . (بغية الوعاة ١ : ٣٥) .

ومما اتفق له ـ أدام الله تعالى عليه فضله ـ أنه سأل في هاتيك الربوع بعض علمائها الأعلام ، الذين اصطادوا شوارد العلوم في المسجد الحرام ، عن مسألة ماأظن أنه سأل عنها أحد ، ولا تكاد تخطر على قلب إلى الأبد ، فقال ـ لا زال كعبةَ الأجلال ـ :

أيا كعبة الأفضال[١] ، لا زال فضله مطافَ الورى في دفع أعظم شبهة
أتعلم أرض أربعٌ من جهاتها غدت كعبةَ العباد من دون كعبة
وما ثَمَّ عذر والتحرّي ولا ولا وفيها صلاة الفرض والنفل صحّت
وإن علّق الزوجُ الطلاق بكونها فما الحكم شرعاً بين زوج وزوجة ؟
أفيدوا ، جزيتم خيرَ من جلّ برُّه وفي حلها[٢] حارت عقول البرية

فطافوا حول كعبة الجواب ، فمنهم من فتح له ومنهم من لم يفتح له الباب ، وقد شرفني يوماً بالسؤال ، فقلت ـ وإن لم أكن من أولئك الرجال :

أيا كعبة الأجلال ، لا زال فضلُه يجرّ رداء الفخر فوق المجرّة
ولا برح البيتَ الذي شدته على مطاف الورى في دفع أعظم شبهة
ويا شيخَ كلِّ المسلمين وركنَهم ومهرعَهم في حلّ كل عويصة
ومَنْ منه تحقيق الحقائق حيث لا سواه بهذا العصر (عارف حكمة)
أتيتم ـ وربِّ الراقصات إلى مِنى[٣] ـ بنظمٍ دعا كلَّ القلوب فلبّت
وقال لأنواع البلاغة : أقبلي فحنّت مطاياها ، وجاءت بسرعة
سألتم به كي تَشْحذوا ذهن سامع وذاك لعمري هديُ خيرِ البريّة[٤]

---

(١) في الهامش : (الإجلال) .

(٢) في الحاشية : (وفي وصفها) . وهذه الأبيات من شعر الألغاز بالمسائل العلمية ، وهو من الألوان التي سادت في ذلك العصر بين الأدباء والعلماء .

(٣) الراقصات : النياق .

(٤) في الهامش : (خير الخليقة) .

فقلتم على وجـه التلطف بـالـذي ... تريدونه بالقول من ذي رويّة :

(أتعلم أرض أربعٌ من جهاتها ... غدت كعبة العباد من دون كعبة

ومـأثمَ عـذر والتحري ولا ولا ... وفيها صلاة الفرض والنفل صحّت

وإن علّق الزوجُ الطلاق بكونها ... فما الحكم شرعاً بين زوج وزوجة ؟)

فيا سيدي قد جُبتُ كلَّ تنوفة ... وحثحثت فيها مشعلّة فكرتي[1]

وأوغلت كي ألفي جواباً محققاً ... وأنّى لمثلي أن يفوز ببغية ؟

وغاية ما في البال أن تلك تربة ... لكعبتنا ، أنعم بها ، خير تربة

من الجهة السفلى فكل جهاتها ... غدت قبلةً في كل فرض وسنّة

وكل طباق هكذا ذاك صادق ... عليه بلا أمر يريب بفرقة

وإن رام كوناً آخراً فليفد به ... لنعلم منه كيف حكم القضية

وهذا جواب العبد ، والفكر قاصر ... فديتك يامولاي - من طول غربة

وتحقيق نفس الأمر من حضرة غدت ... مطافاً لأهل العلم من كل بلدة

لها الله في كل الأمور ، ولم تزل ... تفوق الثريا رفعةً أي رفعة

أفيدوا - جُزيتم خيرَ من جلّ برّه ... وحلّ على راجيه أعظمُ منّة -

فتحقيق هاتيك العويصة مشكل ... وفي حلّها حارت عقول البريّة

فعرضت ذلك على حضرة المولى بطوله ، فجبر قلبي بعد أن استنشد فيه بقبوله ، لمزيد فضله وطَوْله[2] .

وملخص الجواب :

أن تلك الأرض ما كانت مساحته للداخل في الكعبة من الجهة السفلى وبينها وبين الكعبة من جميع الجهات تسعون درجة ، وتصدق على أرض سرداب ، مثلاً

(١) التنوفة : الفلاة لاماء فيها ولا أنيس ، جمعها تنائف .

(٢) الطَّوْل : الفضل والغنى واليسر والمنّ . ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم ... ﴾ .

حفر تحت الكعبة ، وعلى أرض آخر[1] حفر تحته ، وهكذا ، كما تصدق على الأرض الظاهرية المسامتة من تلك الجهة . والقبلة في الحقيقة كعمود طرفاه الفلك المحدد للجهات ، فمن علق الطلاق بكونها ، بأن قال : إن كانت هذه الأرض موجودة فامرأته طالق ، طلّقت زوجته ، وربما يقال : المراد بتعليق الطلاق بكونها : الحلف بالطلاق على كونها ووجودها ، وحينئذ[2] يكون الحكم عدم الوقوع ، ولذا كنت قلت أولاً :

فإن علق الزوج الطلاق بكونها ... على ماذكرنا لم يؤاخذ بفرقة

فعدلت عنده لنوع خفاء في مبناه ، والأمر بعد ما سمعت أولاً من أمر تلك الأرض سهل ، كما لا يخفى على من له ذرة من فضل ، ثم أني راجعت الكرة الأرضية لتحقيق أن تلك الأرض : هل هي مغمورة أو معمورة ..؟ فرأيت ما يدل على أنها مغمورة ، وأن بالقرب منها جزائر صغار ، والله تعالى أعلم .

وأنشدت هذه الأبيات على ركاكة قوافيها ، وقصور ما أودعته فيها ، لواحد عصره ، والثاني وسادةَ العقد والحلّ في مصره ، الشيخ العلامة المحاكي ، بنقد بيانه البديع السكاكي ، السيد عمر فيضي أفندي البيّاسي ثم الأنطاكي[3] ، وهو رجل من سادات الأنام ، والعلماء الأعلام ، تولى مدة في أنطاكية القضاء ، ثم نُصّب فيها - إذ كان جديراً - لإقامة جدار الإفتاء ، وله انتساب تام للطريقة النقشبندية الخالدية[4] واطلاع على علوم الطلسمات[5] والعزائم وسائر العلوم الحَرْفية ، وقد

(١) أي وتطلق أيضاً على كل أرض سرداب آخر حفر تحت ذلك السرداب الأول .

(٢) في الأصل : (وح) ولعلها رمز لحينئذ .

(٣) البيّاسي : نسبة إلى بيّاس (بفتح الموحدة وتشديد الياء مفتوحة ، وهي مدينة صغيرة شرقي أنطاكية وغربي المصّيصة) . من علماء القرن الثالث عشر ، مات بعد ١٢٦٧ هـ .

(٤) نسبة إلى الشيخ خالد النقشبندي ، الذي سيأتي ذكره قريباً .

(٥) ليست الطلاسم علماً ولا تعاطيها بالمشروع ، ولكنها أهمّت الناس كثيراً في عصور الانحطاط . وكذلك ما أشار إليه من العلوم الحرفية (نسبة إلى الحرف) .

اجتمعت به كثيراً فرأيته قد اتخذ من الفضل مكاناً عليّاً ، ومتى سمع ذو دراية تقريره للحقائق والدقائق فهم منه أنه لا يجهل شيّاً ، وذكر لي غير مرة أنه رأى بعض الصحابة من الجنّة ، ولله تعالى قوة جأشه ، حيث رأى ما رأى ولم تعتره جِنّة ، مع أن كثيراً من الجن ـ على ماذكر ـ يروح ويغدو إليه ، حتى أن جنياً من أكابرهم يقال له نسطور ، قرأ صحيح البخاري جميعه عليه وكثيراً ما ينقل عنهم حكايات ويملي ، ولكن لمن لا يعدّ ذلك منه حديث خرافة كغريب مثلي .

ومن أعجب ما سمعت منه أن الفجر الكاذب فُقد ظهوره ، لاختلاف وضع الشمس منذ سنوات ، فقلت : سبحان القادر ، قد سمعنا عن الصادق ، طلوع الشمس من مغربها آخر الزمان ، وما سمعنا بفقدان ظهور الفجر الكاذب في وقت من الأوقات ، فقال : هذا مقدمة ذاك ، فافهم ـ تولى الله تعالى هداك ـ . .

ولما عرضت عليه نظمي ، وما أدى إليه سقيم فهمي ، أحب أن ينظم أيضاً في ذلك ، درر أبيات تضيء في الليل الحالك ، فقال ـ وأعجِبْ بذاك المقال .! ـ :

أيا سيداً قد نال كلّ فضيلة ... وفاق بعلم عمّ أهل البسيطة
ولا زال يجني للمعارف عارفاً ... بأحكام آيات العلوم الشريفة
وذا (أحمد) قد نال من علم (أحمد) ... وقام به مستنصراً للشريعة
فذا شيخ إسلام وذاك رسولهم ... عليه سلام مع صلاة لطيفة
كذا الآل والأصحاب مع كل عالم ... وشيخهمُ المبدي لتلك الدقيقة
بنظم بليغ معجز كلّ فاضل ... يفوق على فوق النجوم المضيئة
فلا عالمٌ إلا وكفّ جوابَه ... مخافةَ أن لا يدري ما في القضية
وذاك بقول العارف المسند الذي ... له الباع في كل العلوم الغزيرة :
(أتعلم أرض أربع من جهاتها ... غدت كعبة العباد من دون كعبة
وما ثَمّ عذر والتحري ولا ولا ... وفيها صلاة الفرض والنفل صحّت

وإن علّق الزوج الطلاق بكونها ... فما الحكم شرعاً بين زوج وزوجة ؟)
أقول : نعم ، فالأرض ماتحت كعبة ... يخط إليها مستقيم مسامت
فإن كمثل البيت كلّ مسامت ... له في العلى ، أو كان أسفل صخرة
وتلك لفرضٍ للصلاة ونفلها ... وليست بذا للطائفين ككعبة
على قدْره في ذاك يركع نحوه ... يصلي إليه العابدون كقبلة
فإن كان في ذي الأرض قوم فإنهم ... يصلون نحو النقطة المستديرة
وذاك لأن البيت قبلة عابد ... من العرْش مع فرش لغير نهاية
فمن كان في علْوٍ وكان مكلّفاً ... كذلك في سفل بتوجيه مخبت[1]
وصلى إليها الفرض من كل جانب ... ونفّل ماقد شاء من كل سنّة
فإن علّق الزوج الطلاق بكونها ... فذا واقع للكون من غير شبهة
وليس له دعوى الجهالة نافع ... لإثبات تلك الأرض بين الخليقة
فهذا جواب من مشتّت فكرة ... بعيد عن الأوطان والأهل والتي[2]
وحيث الإمام الحبر كان خطابه ... لمفردنا ، والمعنى فيه لجملة
وكان الذي يبغيه منا مراده ... لتشحيذ أذهانٍ وتصحيح فكرة
وإظهار علم نافع بمسائل ... بقالب إشكال لأهل الشريعة
فأبدى لنا من نظمه عِقْد جوهر ... ليَهدي ـ أتدري ـ للعلوم الغريبة[3]
وهذا لنا من فضله خير نعمة ... لإظهاره تلك الأمور الخفية
فلازال يبدي هكذا بدوامه ... وإحسانه فينا ليوم القيامة
بجاه إمام الرسل ماقلت منشداً : ... أيا سيداً قد نال كل فضيلة

انتهى .

(١) في الأصل : (كمخبت) .

(٢) في الهامش : (سألته عن المراد بالتي ، فقال : الزوجة) .

(٣) في الأصل : (ليعدي) .

وقد نقلته من خطه النوراني كما رأيته ، وأنّى لأبناء العراق أن يقرطوا آذانهم بلآليه ، ويعطروا أذهانهم بعبير عنبر معانيه ..؟

ولما رأى ذلك ذو الفضل البادي ، الشيخ أحمد بن سليمان الأروادي[1] ، تصدى أيضاً للجواب نظماً ، وأتى بما يجري مجرى الماء لمن يظما ، وهذا الشيخ رجل فاضل لم أتشرف بصحبته ، ولم أفز لسوء طالعي بمشاهدة طلعته ، لكن سمعت من العلامة الأول : السيد عمر فيضي أفندي[2] ، أنه من أجلة خلفاء حضرة مولانا الشيخ خالد النقشبندي[3] ، ـ قدس الله تعالى سره ، وغمر بفيوضات رحمته قبره ـ وأنه يتفجر علماً ، وينهال نثراً ونظماً ، وإذا أشكلت عليه مسألة ، وأعيته ـ وقلما يتفق ـ معضلة ، يأتي بنحو قدح مملوء من الماء ، فينظر فيه ، فيقف من غير ريث على قعر الأمر وخافيه ، ولما أخبرني الفيضي بهذه قلت : يا مولاي أخبرني عن سره ، فقال : إنه يرى الجن في الماء فيخبرونه عن حال ما أشكل من أمره ، فعامت سمكة ذهني في مياه الأفكار ، وقلت : سبحان من جعل الماء مرايا الجن لمن شاء من عباده الأخيار[4] .

(١) الأروادي : مؤرخ من طرابلس الشام ، وأصله من جزيرة أرواد ، وهو من رجال الأدب والحديث . له أكثر من مائة مصنف ، منها كتاب كبير في (التاريخ) ، و (التبر المسبوك في نهاية السلوك) وهو في التصوف . مات سنة ١٢٧٥ هـ بطرابلس . (الأعلام ١ : ١٣٣) .

(٢) عمر فيضي : سبقت ترجمته .

(٣) النقشبندي : هو أبو البهاء خالد بن أحمد بن حسين النقشبندي ، المجددي ، (١١٩٠ ـ ١٢٤٢ هـ) يقال : إنه من ذرية عثمان بن عفان ، استقر في بغداد منذ صباه ، ثم رحل منها أيام داود باشا إلى دمشق ، وتوفي بها . من تصانيفه : (شرح مقامات الحريري) و (شرح العقائد العضدية) وغيرها . وللشيخ محمود أبي الثناء الألوسي كتاب في ترجمته سماه : (الفيض الوارد على روضة مرثية مولانا خالد) . وهو متصوف له طريقة وأتباع . (الأعلام ٢ : ٢٩٤) .

(٤) هذه من القصص التي كانت تشيع في تلك العصور ، فتشغل الناس بالترهات ، وتصرفهم عن طلب الحل لمعضلاتهم في الكتاب والسنة .

ولهذا الشيخ أيضاً مؤلفات عجيبة ، واستنباطات غريبة ، وقد نشر الطبع بعض رسائله ، وهو غيض من فيض فضائله ، وقد وفقت فوقفت على جوابه ، وتحقيقه الذي أودعه به ، حيث أنه أرسله إليّ ، فهو اليوم ـ ولله تعالى الحمد ـ لديّ ، ولكن لكوني بصدد الاقتصاد والاقتصار ، صددت عن نقله ، وإن كان مما تتعجب منه ذوو الأفكار ، واكتفيت بنقل نظم من هو أعلم منه بمراحل عند الناس ، السيد الشريف الذي شرفت به أنطاكية وبَيّاس ، مع أنه متّحد معه في المعنى ، ومشترك في المنزل والمغنى :

فإن لم يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غذته أمه بلبانها

عودته إلى إسلامبول

ثم إن حضرة مولاي المشار إليه ، ـ جعلنا الله تعالى من أهل الحظوة لديه ـ بعد أن قضى التفث[1] ، منزهاً بتوفيق الله تعالى عن شوائب الرفث[2] وفاز أهل المدينة المنورة بحلو قضائه ، كما حازوا ما هو أحلى من المنّ من آلائه ، عاد كرها إلى دار الخلافة إسلامبول ، حيث إن قلبه معلق بأستار الكعبة ، وروحه ثاوية بحجرة جدّه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . وكم أراد بعد العوْدِ العوْدَ بالأهل والعيال ، ناوياً الإقامة بهم في دار مظهر الرحمة والجمال ، فأبدى له بعض مخلصيه ، محاذير كلية تُعنيه ، فيما يَعنيه ، منها انتفاخ أوداج سوء الظن من حضرة السلطان ، وانفتاح أفواه الأعداء بأنواع الهذيان ، لما أن الفتنة المصرية قد علا ضرامها ، وكاد يصل إلى الإكليل هامُها ، وهي فتنة التهب منها فؤاد[3]

(١) التفث : هو ما يصيب الحاج أثناء حجه من أوساخ ، بسبب تركه الادّهان والحلق والغسل ، ثم يزيله بالتحلل . قال تعالى : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ﴾ .

(٢) الرفث : الكلام القبيح ، وكلمة تدل على كل ما يريد الرجل من المرأة في سبيل الاستمتاع بها من غير كناية . قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم ... ﴾ .

(٣) في الأصل : (فوائد) .

الإسلام ، وأعقبت كيّاً في صفائح وجوه الأيام ، وتفصيلها يغص منه القلم بريق مداده ، ويعبس وجه القرطاس الأبيض عن حالك سواده ، على أن الشهرة تغني عن التفصيل ، وحسبنا الله تعالى القاهر من كيد القاهرة ونعم الوكيل .

ولما ذكر المخلص لحضرة المولى ماذكر ، وأخطر ببال الشريف وجه الخطر ، بقي ثاوياً على مثل جمر الغضى ، ناوياً الرحيل إذا مر المحذور وانقضى ، فلم يزل يذكر هاتيك الأيام ، التي حلت ثم خلت فمرت كأنها أحلام . ومن ذلك قوله :

لله أيامُ أُنس بالحمى سلفت ... كأنها صبح عيد ليلةَ القدْر

أو أنها جُونة العطار قد حُشيت ... بالمسك والعُود والمِنْديل والعطْر [1]

وقوله مشطراً :

(سلام مثلما فاحت رياض) ... كأنَّ زهرها تُهدي الغوالي

وباكر رندها مزنُ التهاني ... (وقد مرت بها ريح الشمال)

(على دهر مضى ، مافيه عيب) ... مُضيٌّ الخَوْد في حلل اللآلي

وما في البال منه اليوم شيء ... (يعاب به سوى قصر الليالي)

إلى غير ذلك . واشتغل ـ سلمه الله الملك المتعال ـ بنشر الفضل ونثر الأفضال ، يأوي إليه الغريب فيسبغ عليه فضله . وينسيه ـ ذكره الله تعالى فيمن عنده ـ أحبّته وأهله ، ومثل ذلك ذاتيّ من ذاتياته ، متعنا الله تعالى والمسلمين بطَوْل وطُول حياته .

(١) جونة العطار : حقّ أو سلّة بالغةُ الصغر ، مستديرة مغشاة بالجلد ، يحفظ فيها العطارُ الطيب .

[تكليفه بإحصاء سكان بعض المقاطعات]

وفي السنة السادسة والأربعين من سني عمره الذي هو بسنيّ البركة ـ إن شاء الله تعالى ـ قرين ، ألقى الله ـ سبحانه ـ في نفس حضرة سلطان المسلمين ، حبَّ الاطلاع على كمية نفوس رعيته أجمعين ، لما أن رعية السلطان ، كعائلة الإنسان ، بل هم على العِلاّت كأبناء عَلاّت [1] والمرء طبعاً يحب الاطلاع ، على كمية أبنائه حيث كانوا من البقاع ، مع أن في اطلاع الملك على كمية الرعية ، منافع للملك جليلة جلية ، ففكر حضرة السلطان في نفسه ـ غمر الله تعالى بالرحمة ثرى رمسه ـ وتأمل في تعيين من يرسله لتلك المصلحة الدينية والدنيوية ، ممن له معلومات داخلية وخارجية ، ويكون قد طار صيته في الآفاق ، ووقع على وكر فضله وديانته طائرُ الاتفاق ، وكان حاله بين رعيته ، كحال النبي في أمته ، يتحرى في التحرير ، ويكف بكفّ عقله الأوهام عن ذهن الصغير والكبير ، حيث أن ذلك أمر لم تعهده الناس ، فمتى أحسوا به وقعوا في وادي تضلُّل وضربوا أخماساً بأسداس ، ونُصبت على عقولهم خيام الأوهام ، وصار للخيالات الفاسدة في أذهانهم القاصرة ازدحام ، فيختلّ المرام ، وتنحلّ رابطة الانتظام ، فلم يخطر بباله الخطير ـ عليه الرحمة ـ أحد ، وذلك بعد أن أتْهم وأيْمنَ وأشأمَ وأعرقَ وأنجدَ ، سوى حضرة المولى المترجم ، ـ حفظه الله تعالى من كل ألم ألَمّ ـ فذكر ذلك لخاصّته ، وأظهره لبطانته ، فقالوا : أصبت القرطاس [2] ، وأخذت من الجسد الرأس ، وظفرت بواحد جمع الألوف ، وبمنفرد أحاطت به من صنوف الكمال صفوف ، وأتيت بالحكيم الذي يُرسَل ولا يوصى ، والرئيس الذي يطاع ولا يعصى ، وفزت برجل لو أراد تحرير النجوم ، لرأيتها في جو جريدته تحوم ،

(١) أبناء عَلاّت : تقال لمن يكون أبوهم واحداً وأمهاتهم مختلفات . والعَلّة الضرة . فإذا كانت أمهم واحدة وأباؤهم مختلفين ، قيل لهم : أبناء أخياف .

(٢) القرطاس : الهدف .

كأنها تتمنى أن تكون نقاط مافيها من الرقوم . أو قصد تحرير ذرّات الجبال ، لرأيتها منهالة لديه قد أوصلها الفرح إلى حد الخبال ، كأنها تتمنى أن تكون غبار نعليه ، أو ذرور المصحف تترب بين يديه . فدعاه عند ذلك حضرة السلطان ، ـ غمره الله تعالى بوابل الغفران ـ وكلّف بلطفِ خاطرَه الخطير ، واقترح عليه إذ كان عينَ رأسِ الكمال أن يكون ناظر التحرير ، فرجا العفو عن ذلك فلم يرجُوه ، واعتذر فلم ينفعه الاعتذار بوجه من الوجوه ، وماذاك إلا لأن الله عز وجل أراد أن ينعم به على الرعية ويتفضل :

وكم لله من لطفٍ خفيّ ... يدقّ خفاه عن فهم الذكيّ

فتوجه ـ سلمه الله تعالى الملك الولي ـ ، إلى جهة إيالة (فِلْبَه) من قطعة روم إيلي[1] ، فجرّدت بنظره النفوس ، وقلبٌ كلٌّ بخُلقه النفيس مأنوس ، وقد استوى التحرير بلا فرية ، نفوس ثلاثمائة وست وستين قرية ، وعاد وقد أرضى الراعي والرعية ، وترك له هناك بما فعل طيب الدعوات الخيرية ، وشكره السلطان على فعله ، وكل ذلك من مزيد كرم الله تعالى عليه ومضاعف فضله .

[توليته نقابة الأشراف]

وفي السنة السابعة والأربعين ، اتخذه حضرة أمير المؤمنين ، نقيباً على بني عمه الأشراف الطاهرين ، حيث إنه ذو نسب فخم ، وشرف ضخم ، يستوفي شرف

(١) روم إيلي : هي المنطقة الأوربية في الدولة العثمانية الواقعة غربي البحر الأسود .
و (فلبه) : هي العاصمة الشرقية لهذا الإقليم ، وقد فتحها مراد خان الأول (حكم ٧٦١ ـ ٨٢٤ هـ) . واسمها في اللغة الأجنبية فيليبوبوليس (Philippopolis) أي مدينة فيليب ، نسبة لمؤسسها : فيليب والد الإسكندر الأكبر . وتقع هذه المدينة إلى الجنوب الشرقي من صوفيا ، بين صوفيا وأدرنة على خط واحد .

الأرومة ، وكرم الأبوة والأمومة ، ماأتته المحاسن عن كلالة[1] ، ولا ظفر بالهدى عن ضلالة ، بل تناول المجد كابراً عن كابر ، وأخذ الفخر عن أسرّة ومناير :

شرف تنقّل كابراً عن كابر ... كالرمح أنبوباً على أنبوب

فهو من مضر في سويداء قلبها ، ومن هاشم في سواد طرفها ، ومن الرسالة في مهبط وحيها ، ومن الإمامة في موقف غرّها :

آباؤه من دوحة نبويّة ... طابت منابتها وطابت أغصنا
لولاهمُ ماطاف بالبيت فتى ... كلا ، ولا سار الحجيج إلى منى
لولاهمُ في الحي ماداع[2] دعا ... لله : حيّ على الصلاة وأذّنا
لولاهمُ فوق المنابر مارقى ... راقي[3] ، ولا قرأ الحديث معنْعَنا
لم تُحصَ تعدادا فضائلُ بعضهمْ ... ولو استحال الكون طرًّا ألسنا
لو أنصفت أمّ العلى رفعتْ لهم ... من فوق أبراج الدراري مسكنا

وقد جمع شرف الأخلاق ، إلى شرف الأعراق ، وكرم الآداب ، إلى كرم الأنساب[4] ففلك المجد عليه يدور ، ويد العلى إليه تشير ، وروض الشرف به أنيق ، ولسان الثناء به نطوق :

فذاك الفريد بهذا الزمان ... ومنهجه المنهج الأقوم
فمنه الفخار ، وفيه الفخار ... بمثله فليفتخرْ آدم

(١) عن كلالة : الكلالة أن يموت المرء وليس له والد أو ولد يرثه ، والمقصود هنا أن مجده عريق .
(٢) في الأصل : (الداعي) .
(٣) في الأصل : (الراقي) .
(٤) في الأصل : (الإنسان) .

[نسبه] :

فهو ابن المرحوم السيد إبراهيم عصمة بك أفندي ، ابن المغفور (له)[1] السيد إسماعيل باشا ، ابن المبرور السيد إبراهيم باشا ، إلى أن ينتهيَ إلى حضرة الإمام الحسين ، قرّة عين سيد الكونين ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وشرف وعظم وكرم .

نسب كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ، ومن فلق الصباح عموداً

[فرح الأشراف بنقابته] :

فلما سمع بذلك الأشراف ، شكروا مولاهم على ماأولاهم من عظيم الألطاف ، وأنشدوا بلسان الحال وقالوا ، بعد أن تفيّؤوا ظلال الفخر وقالوا[2] :

إن النقابة أُلبست بجَنابه ... تاجاً ، وألبسه التُّقى أبرادا

فالحمد للمولى على أفضاله ... عاد الزمان بأسره أعيادا

وبقي هذا النقيب التقي في نَصَب هذا المنصب ثلاث سنين ، ثم جدّ في الاستعفاء عنه اشتغالاً بما هو الأهم لدى أجداده الطاهرين ، فبقي في البيت عماداً لأهل البيت ، رضي الله تعالى عن الحي من حيهم والمَيْت .

[الألوسي يطلب منه ختم نسبه] :

وقد كنت كتبت له عريضة أرجو فيها ختم جريدة نسبي ، لكن كانت بعد انفصاله بكثير ، فلم أتصل بحصول أربي ، على أني ذكرت يوماً له ـ سلّمه الله تعالى ـ ذلك فقال : لم تصل إليّ ، ولم تُعرَض في وقت عريضتك عليّ ، ثم قال ملاطفاً ـ كما هو دأبه ـ لو وصلتْ لكتبت عليها : (من بطّأ به علمه ، لم يسرع به

(١) مابين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

(٢) قالوا : من القيلولة .

نسبه) ، فقلت : يامولاي وهذا أيضاً من أياديك المستجادة ، لما فيه من الموعظة الحسنة مع حسنى الشهادة ، وكنت أرسلتها على يد المرحوم نجيب باشا ، وحاشا أن أظن به سوءاً ثم حاشا ، وهي هذه :

يا من جعل خاتم أنبيائه ، غرة جبين الكائنات على الإطلاق ، وأثبت أنه سيد أحبائه بأخلاقه التي تشهد النقباء أنها سادات الأخلاق ، أسألك بأنبيائك الذين عدوا في الأنساب ، كما دلت عليه الأنباء : أبناء عَلات[1] ، وأتوسل إليك بخُلّص أحبّائك ، الذين غدوا في الأحساب ، حسبما أشارت إليه الأخبار : أخيار الموجودات ، أن تحفظ حضرة المولى العالم الذي لو[2] تجسد العلم لكان أحد جواهره المفردة ، بل لو جمع العالم في فرد لرأيته ثانياً ركبته بين يده ليستكمل ببعض ماعنده ، كيف لا ..؟ وهو النور المشرق من بروج شمس النبوة ، السابحة في فلك الوجود ، حيث لامتحرك من الأفلاك بإحدى الحركتين ، والنور المونق في فروع شجرة الفتوّة ، السابغة في فضاء الجود ، حيث لا محدد هناك لإحدى الجهتين ، وليّ المكارم ، سيد الأكارم ، علويّ العزائم ، سليل الفواطم ، فخر بني هاشم ، عارف حكمةٍ خفيت عن الأعاظم ، لا زال لعين الزمان قرّة ، ولجباه الأيام غرّة .

وبعد : فإن العبد قد رَقّ لمرور الزمان رَقّ[3] نسبه ، وأشفت على شفا جرف الاندراس رقوم رقيمه مما حل به ، فقدّم ماحرره لحضرة مولاه ، أولاه الله عز وجل مما يشاء فوق ماأولاه ، وكان له عوناً في أخراه وأُولاه ، راجياً أن يلتفت إليه بحسن الظن فيطرّز بردة قبوله بطراز رقمه ، وأن يتوجه إليه بآلائه التي هي

(١) رواه أحمد (٢ : ٤٩٣ ، ٥٤١) وما ذكره ليس من التوسل المأثور .

(٢) في الأصل : (لم) .

(٣) الرق : (بالفتح) : جلد رقيق يكتب فيه . والصحيفة البيضاء .

أحلى من المن ، فيتوجه ـ دام مجده ـ بشريف ختمه هذا وختام الرجاء التفويض لأمر وليّ الإنعام ، والتفويض في كل الأمور خير مبدإ وختام ، انتهى .

[توليته الإفتاء في مجلس الأحكام العدلية]

وفي السنة السادسة والخمسين من سنيّه المباركة السنية ، حكم القضاء بتوليته الإفتاء في مجلس الأحكام العدلية ، فكان فيه نوراً يُهتدى به إلى معالم الهدى ، ويُجتنب بضيئه عن مهاوي الردى ، ولم يزل يرشد بآرائه ، كما يَهدي بأنوار إفتائه ، فهو كما قيل[1] :

لو لاح لِنَيْلِ سنى آرائه ... أضاء من صباحها وما عسا[2]

وعارفٌ بالناس ذو فراسة ... أخفت[3] له ما قد توارى واختفى

شهم الجَنان ، لوذعيٌّ ، فاضلٌ ، ... أشمّ عرنين العلى ، عالي الذرى

فاق الأنام بالتقى وبالحجا ... وزينة المرء التقى مع الحجا

سعى إلى الفضل فنال ما ابتغى ... وليس للإنسان إلا ما سعى

ألهمه الله علوماً بعضها ... لو نشرت سُدّ بها رحب الفضا

لا يختشي في الله لوم لائم ... أفتى على الحق ، وبالحق قضى

وفي تلك الأيام ، اقتضت المراحم السلطانية ، الوقوف التام على أحوال الرعية ،

(1) في الهامش : (السيد عبد الغفار شاعر الدنيا) ، فلعله هو صاحب الأبيات ، والسيد عبد الغفار الأخرس كما في (المسك الأذفر ص ١٩١) هو عبد الغفار بن عبد الواحد بن وهب ، ولد في الموصل بعد ١٢٢٠ هـ ، ونشأ في بغداد . وكان شاعراً رقيقاً ، من أكبر شعراء عصره ، وهو من تلامذة المؤلف أبي الثناء . له مجموعة شعرية مطبوعة . وتوفي سنة ١٢٩١ هـ .

(2) عسا الليل : اشتدت ظلمته ، ومضارعه يعسو .

(3) أخفت له : أظهرته واستخرجته .

خشية أن يكون فيهم من جار عليه وزيره ، وحاد عن جادة الإنصاف في أمره أميره ، فبقي في قيد الجور أسيراً ، لا يجد له من دون الله تعالى وليّاً ولا نصيراً ، وفي ذلك مضار ظاهرة ، تمحق المُلك والمِلك في الدنيا والآخرة ، ومن المعلوم احتياج هذه المادة ، إلى تفتيش رجل قد سلك في إحقاق الحق أقوم جادة ، ذي عفة وديانة ، وصدق صادق وأمانة ، لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم ، ويصغر في عينه الظالم ، وإن كان من الأعاظم ، قد تقمّص بالرحمة ، وارتدى بعليّ الهمة .

فلما رأى حضرةُ السلطان ، انحصارَ الكليّ المذكور بهذا المفرد في ذلك الزمان ، كلفه بأن يزيل بأنوار نظره وفكره ، كَلَف الخفاء عن أمر الرعية ، ويوقفه بسيره وسَبْره ، على تفصيل مجمل أحوالهم الجلية والخفية ، لينال من التهب فؤاده من حرارة الظلم برْدَ عدله ، ويسرح مَنْ هزل فصيلُه من شدة العَدم في رياض فضله ، وليفطم ولاة السوء أطفالَ أطماعهم ، من ارتضاع ثدي آمالهم الفاسدة ، وليلجموا بلجام الزواجر أفواه أتباعهم ، من انتهاش لحوم الرعية بجديد أسنان تعدّياتهم الكاسدة ، ولينام قطا قلوب الناس في مراقد الأمن من مزعجات ليالي الاعتساف ، ولتغرد بلابلُ ألسنة العباد على أفنان الإخلاص بنغم شكر نِعَم العدل والإنصاف .

فلم يرـ سلّمه الله تعالى ـ بُدّاً من مديد الامتثال ، وامتطاء ظهر مطية السفر والارتحال ، والتشمير عن ساق الجد ، غير مستوف الأمر من يوم إلى غد ، لأداء هذه المصلحة العامة على وجهها ، وحَوْزه جزيل الثواب منها كما حازه من شِبْهها ، فتوجه أيضاً إلى ممالك روم إيلي ، فاطلع من أحوال أهاليها على كل جزئي وكليّ ، فأماط ـ بعد أن أحاط علماً ـ جميع المظالم ، وخلص المظلوم بيد همته الطولى من يد الظالم ، ونشر مطويّ العدل والإنصاف ، وطوى منشور الجور والاعتساف ، فازّينت الأرض بأزهار الإحسان ، وأضاءت أرجاؤها بأنوار الأمان ، وشكر كل مولاه ، على جميع ما أولاه ، واستنهض الرَّجْل والخيل بطويل

الثناء ، واستغرق النهار والليل بعريض الدعاء .

ثم عاد يجر رداء الأجر ، ويحوز رُواء التوجّهات السلطانية في السر والجهر ، وقد شاهد ـ سلمه الله تعالى ـ من ذلك نُوق الأمل ، وسوف يشاهد من الله عز وجل ما هو أجل .

[توليته الإفتاء في مجلس العسكرية]

وفي السنة المتممة للستين ، وهي من غرر السنين ، خفق لواءُ الإرادة الإلٰهية ، على حسن نظام الأمور الكونية ، فتواترت أفواج أفكار السلطنة المجيدة المجيديّة ، بجعله ـ لا زال في مقصد الحق ـ مفتيَ مجلس العسكرية ، فجلس فيه مفتياً ، وقام بأمر الدين والدولة معتنياً ، فسرّت قلوب الناس ، الرفيق والفريق ، وطابت النفوس بخندريس الاستئناس ، وحلا ألفُ ألفِ ريق ، حيث كان هو المرجع والمشير ، في أمر الصغير والكبير ، والحقير والخطير ، والمأمور والأمير ، بعبارات تشربها المسامع ، وحكمٍ يُسرّ بها السامع :

حكَمٌ على أهل العقول يبثّها	متقونة الأوضاع والأحكام
ويريك في ألفاظه وكلامه	سحرَ العقول وخبرة الأفهام
ولقد أدار على الورى جام الحجا	فالناس صرعى راحِ ذاك الجام
تمّت به غرّ المعالي والعلى	ومحاسن الأشياء بالإتمام

[توليته مشيخة الإسلام]

وفي غرة ذي الحجة من شهور السنة الثانية والستين ، أعظم الله جلّ جلاله المنة بمشيخته على جميع المسلمين ، حيث انحلّ نظام[1] الحياة من جسد حضرة شيخ الإسلام مصطفى عاصم أفندي ـ عطر الله تعالى مرقده الشريف بعطر غفرانه الشذيّ النديّ ـ فاقعنْسست صدور علماء دار الخلافة الكبرى ، واشرأب كل منهم

(١) في الأصل : (عصام الحياة) .

لوصال غانية الصدارة على منصة المشيخة العظمى ، والله تعالى أعلم حيث يجعل أمانته ، ومن هو الحريّ بأن يؤيد به رسالته ، فرفع الأمر لحضرة السلطان الأعظم ، والملك المحدَّث[1] الملهم ، وذكرت له الرجالَ عدة من العلماء الأعلام ، الذين يُظنّ كل منهم أنه كفؤ كريم لكريمة مشيخة الإسلام ، فقال أيّده الله تعالى وأبّده ، وخلّد ملكه ونوّر خَلَده : اربَعوا على طَلَعِكم ، غيرَ من ذكرتم عندي ، ويأبى الله تعالى والمسلمون إلا السيد أحمد عارف بك أفندي ، وقد نصّبته شيخ الإسلام ، وجعلته مرجع الأحكام للخاص والعام ، ولئن افتخرت أجدادي بمشيخة ابن الكمال[2] وأبي السعود[3] ، فأنا أفتخر ـ ولله تعالى الحمد ـ بمشيخته على أولئك الجدود ، وهو ـ سلمه الله تعالى ـ إذ ذاك جليس كتبه ، لم يمرّ شيء من ذلك الأمر بشريف لبّه :

غافل والسعادة احتضنته	وهو عنها مستوحش نفّار

فهرع إليه وكلاء الدولة ، وعرضوا عليه الأمر كله ، فقال : أنا في شغل شاغل عما

(١) المحَدَّث : الصادق الظن (بفتح الحاء والدال) .

(٢) **ابن الكمال** : أحمد بن سليمان بن كمال باشا ، شمس الدين ، كان جده كمال من أمراء الدولة العثمانية ، ولكن الله وفقه للاشتغال بالعلم ، أخذ عن المولى لطفي ، والمولى القسطلاني ، والمولى خطيب زاده ، والمولى معروف زاده ، وغيرهم ، واشتغل بعد ذلك في التدريس ، ثم تولى القضاء بأدرنة ، فعسكر أناطولي ، ثم رجع إلى التدريس ، وبعد وفاة المولى علاء الدين علي الجمالي عين مفتياً بالقسطنطينية . ومات وهو مفت بها سنة ٩٤٠ هـ له تصانيف كثيرة منها : (تفسير القرآن الكريم) ، لم يكمله . (الشقائق النعمانية ص ٢٢٦) .

(٣) **أبو السعود** : أبو السعود بن محمد بن مصطفى العماد (٨٩٨ ـ ٩٨٢ هـ) ولد بقرية قريبة من القسطنطينية بها زاوية لأبيه ، درس على والده ، واشتغل مدة بالتدريس ، ثم تولى قضاء بروسة ، فالقسطنطينية ، ثم قضاء العسكر في ولاية روم إيلي ، ثم تولى الإفتاء في دار الخلافة سنة ٩٥٢ وبقي فيه إلى أن مات ، من تصانيفه التفسير الذي سماه : (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) المشهور بتفسير أبي السعود . (العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ص ٤٣٩) .

تقولون ، وما المشيخة العظمى عندي إلا شيخة هرمة لو تعلمون ، على أن بلاءها جسيم ، وخطرها عظيم ، وعسلها صاب ، وشراب لذتها سراب ، لا يقال للعاثر فيها : لعا[1] ، ولا يأمن فيها العثار من سعى ، وأنا شيخ قد سلمت السبعون عليّ ، وتسلّمت قوى بدني التي أهدتها أيام الشبيبة إليّ ، فليلتمس لها بعل غيري ، وودّعوني ودعوني وسيري ، فقالوا : لعمرك هذا أمر نفذت به الإرادة ، وحكمت بحسنه العقول المستجادة ، فلا تجدي فيه الأعذار ، ولا تخدى[2] في نقضه مطايا الأفكار ، ولم يزالوا يراودونه على ذلك ثلاثة أيام ، ثم زفوه حتى أجلسوه على منصة مشيخة الإسلام ، فضمته إلى سَحْرها ونحرها ، وقصرت طرفها عن غيره في سرّها وجهرها ، وسجدت شكراً لله تعالى على ذلك ، وحمده - سبحانه - الملِك والمالك .

وتسابق الناس إلى تهنئة المشيخة به ، وبذل كل من الشعراء الروم وغيرِهم دُرَرَ أدبه ، وممن نظم في ذلك الباب ، وعام في ذيّاك العباب ، الفاضل الذي جرى سيل فضله فطمّ على القَرِيّ[3] ، شيخ أدباء العراق عبد الباقي أفندي العمريّ ، نظم موشحاً تقلد من جلالة المعنى بذي الوشاح ، ونادى على موشحات الأندلسيين : هاؤموا للنزال فأنا ابن قيس لا براح ، وقد صدّره بديباجة ، دراري ألفاظها في سماء الفصاحة وهاجة ، فقال :

لبس النَّوْروز[4] ثوباً مُعلَما … حيكَ من غَزْل عيونِ النرجسِ
طرّزته إبرَ الوبْل بما … رقّ من صنع الجواري الكُنّسِ

☆ ☆ ☆

والربى كلّلها قَطر الندى … وطلاها بشذور الذّهبِ

(١) لعا : صوت معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته . وفي الدعاء عليه يقال : لا لعا له .
(٢) تخدى : تسرع .
(٣) القَرِيّ : كغني ، مسيل الوادي .
(٤) النوروز : والنيروز أيضاً : عيد الربيع بالفارسية .

فأحالتها الغوادي عسجدا … مستحيلاً من لجين السّحبِ
فهي حيث الطلّ فيها انتضدا … خندريسٌ نضّدت بالحَبَبِ
جال ساقيها يُحَيّي النُّدما … بطِلىً فيها حياةُ الأنفسِ[1]
ينعش الروح ويُحْيي الرّمما … كلّما جاد بحثّ الأكْؤسِ

☆ ☆ ☆

وعلى الأعواد قام العندليبْ … يَروي عن إسحاق ألحانَ العراق[2]
وانبرى يلحن في معنى اللبيب … بنشيد رقّ معناه وراق
وتلا ما قد تلاه ابنُ الخطيب[3] … ونحاةً بسباق وسياق
وابنُ سهل[4] لو وعاه أبْهَما … ذكْرَ توشيحاته في تونس
ولأضحى لاعباً فيه كما … لعبت ريح الصبا بالقَبس

☆ ☆ ☆

ونسيمُ الروض قد بات عليلْ … مثل قلب المستهام المدْنَف
أو عيونٍ كحّلت من غير ميل[5] … لغزال بابليٍّ أهْيف

(١) الطّلى : الخمرة .
(٢) **إسحاق** : هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي الفارسي الأصل ، التميمي بالولاء . كان عالماً باللغة راوياً للأخبار ، حافظاً للأخيار ، اشتهر كما اشتهر والده بالموسيقى والغناء ، ولد وتوفي ببغداد (١٥٥ - ٢٣٥ هـ) له تصانيف كثيرة منها : (أخبار عزة الميلاء) ، و (أغاني معبد) ، و (قيان الحجاز) ، وغيرها . (الأعلام ١ : ٢٩٢) .
(٣) **ابن الخطيب** : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن معيد السلماني الأندلسي ، الشهير بلسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ) ، تولى الوزارة في بلده غرناطة وعمره عشرون سنة ، ثم اضطر في آخر حياته إلى الارتحال إلى المغرب والجزائر ، ثم استطاع أعداؤه استرجاعه إلى غرناطة ومات في سجنها مخنوقاً متهماً بالزندقة . ترك نحو ستين كتاباً منها : (الإحاطة في تاريخ غرناطة) ، و (طرفة العصر في دولة بني نصر) ، وغيرها ، وكان يلقب بذي الوزارتين : (السيف والقلم) . (الأعلام ٦ : ٢٣٥) .
(٤) **ابن سهل** : إبراهيم بن سهل الإشبيلي (٦٠٥ - ٦٤٩ هـ) أبو إسحاق ، من شعراء الغزل المشهورين ، كان يهودياً وأسلم ، وأصله من إشبيلية ثم سكن سبتة بالمغرب الأقصى . وكان كاتباً لواليها ومحلاً لثقته ، ورسوله إلى تونس . له ديوان شعر مطبوع . (الأعلام ١ : ٤٢) .
(٥) الميل : (بكسر الميم) : المقصود به هنا المرود الذي يكتحل به . أي آلة الاكتحال .

فإذا ما هبّ في وقت الأصيل   وهو معلول، به القلب شَفِي

وببغدادَ إذا ما نسما   ضاع نفحُ الطيب بالأندلس

وكسا شَمَّ الأنوف الشَّما   بسوى شَمِّ القنا لم تعطس

☆ ☆ ☆

وترى القيناتِ جسّت وترا   يُطرِب السامعَ لو كان جماد

وطرا[1] ما فيه نقضي وطَراً   وننال القصد منه والمراد

وورى الوجد أماماً وورا[2]   وبأقداح الطِلا واري الزناد

قدَح النار فأبدت ضرَما   لمعُه شقّ جيوب الحِنْدس[3]

والدجى أذياله قد لمّا   ونجا في نفسه بالغلَس

☆ ☆ ☆

باسقاتُ النخل في طلْع نضيدْ   تتهادى كالعذارى في الحُلي

تصدح الوُرْق عليها بنشيد   كنسيبي رقةً أو غزلي

ذكّرتني ذلك العيشَ الرغيد   ولياليه، نجاوى الموصل[4]

أتمنّى لو أراه حلما   والتمنيّ رأس مال المفلس

من أقام الحزنُ فيه مأتما   كيف يُجديه ادكارُ العُرُس.؟

☆ ☆ ☆

لا تسل عما جرى نهرُ الفراتْ   وسلَنْ دجلةَ عمّا قد جرى

من عيون نزحتْها العبرات   وعليها حرّمت طيبَ الكرى

كم على الكَرْخ[5] بقلبي حسرات   عشعشت، والحزن فيها وكّرا

عِنْدما تخطر أبكي عَنْدما   فيبل الدمعُ مني ملبسي

يا لأيامٍ تقضّت بالحِمى.!   ذكرُها في القلب لم يندرس

☆ ☆ ☆

(١) وطرا: أصلها وطراً، ثم سهلت الهمزة لتجانس (وطراً) بعدها، التي بمعنى: حاجة.

(٢) وورا: أصلها ووراء، ثم قصرت لتجانس (وورى) قبلها.

(٣) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٤) الموصل: بلد الشاعر.

(٥) الكرخ: كلمة نبطية بمعنى النزل أو المحلة. ومنه كرخ بغداد، وهو محلة فيها معروفة.

للحيا والبرق ضحكٌ وبكاء   من رأى الضدين في وقت معا..؟

جمعت في لمحةٍ نارا وماء   أي نوعين بفصل جمعا..؟

والثرى من ذا وذا نال ثراء   والصَّبا هبت فنمَّت أربُعا

ولذا في خطة الدنيا نما   باتفاق الكلّ طيبُ المغرس

هكذا فليكُ جودُ الكُرَما   ينعش الموتى بردُّ النفس

☆ ☆ ☆

طُرَرُ الأنهار في أمشاطها   سرّحتها كفُّ أنفاس النسيمْ

وانبرت تختال في أقراطها   وُرَق الدوح على الدرّ النظيم

وغوالي الورد في أسفاطها   نحن وقت الفجر في طيب الشميم

بعد ما الثلجُ لها قد عمّا   وتغشت من حياً في برنس

والندى خدّ الروابي نمنما   فتلفّعن بثوب السندس

☆ ☆ ☆

قهقه الإبريق في وجه القدحْ   وسقاه من لَماه قَرْقفا[1]

فغدا يرقص من فرط الفرح   وعليه حَبَبُ الدرّ طفا

وجرى الساقي بسلسال طفَح   وكفى من راحه ما وكَفا[2]

وسماءُ الكأس أبدت أنجما   لُحْنَ في سما النجوم الخُنّس

ترجمُ الهمَّ إذا ما هجما   رجْمَ عفريتٍ مريدٍ مُبلس

☆ ☆ ☆

خلِّني يا سعد من وصف الربيع   ومن التشبيب في بنت الدنانْ

واعفِني عن نعتِ ذي الحسن البديع   بمعاني المنطق الزاهي البيان

وامتدح مثلي أبا الندب المطيع[3]   فأنا في كل وقت وأوان

أحمد المولى على ما أنعما   حمد عبدٍ حلّة الفضل كُسي

(١) القرقف: الخمرة.

(٢) وكفا: من الوكْف وهو: تقاطر المطر ونحوه من السقف.

(٣) أبو المطيع: كنية الشيخ عارف حكمة.

مــدحُـه شرف شعري مثلمــا   جـــدُّه شرّفَ روحَ القــدُس

☆ ☆ ☆

حكمـــةُ الأشراف من حكمتـــه   أشرقت في الكــون إشراقَ الشمــوس
ومنـــارُ الحــق من طلعتـــه   سعـــدُه زالت بــه كلُّ النحــوس
وأبـــوه كان في عصمتـــه   نفسُـــه أطهر من كل النفــوس
وبـــه الـــدين المبين اعتصما   فهـــو في ذمـــة ليث أشــوس
بجاه بعـــد مـــا عـــزّ حِمى   بـــات يرعـــاه بعين الحَرَس

☆ ☆ ☆

شيخ إسـلام الـورى ، مفتي الأنـامْ   (عـــارف) بـــالله لا ربّ ســواه
في أمـــان الله للكلّ أنـــام   وهـو مَنْ رقـدتُـه فيهـا[1] انتبـاه
(عصمـة) مـاهي من وضع عصام   عصمت بعـــد النبيّين أبـــاه

أخطت المـــأمـــونَ والمعتصما   كخَطـا السهم لـدى نـزع القِسي
عصم اللهُ بهـــــا من عصا   مِنْ بني الـــزَّهْرا كرام الأنفس

☆ ☆ ☆

أصبح الـدين بـدار السلْطنــهْ   مثلمـا أمسى قرير العين فيــهْ
وحـوى من كل شيء أحسنـــه   واحتمى من كل ســوء وَكَفِيـــه
كم حـديثٍ عن أبيـه عَنْعنـه   بـأبي أفـدي عـلاه وأبيـــه
فلقــد شرّف منــه نسما   ليس للخبث بـــه من مَلْمس
إذ غـدا يروي حـديث الرُّحمـا   أوّلاً سلْسلـــه عن أنَس

☆ ☆ ☆

ومنهم عين وجوه أهالي كويْ سنجق[2] ، ومن بالصدق وحسن المعاملة بين نِجار الخيريّة تحقق ، الحاج أبو بكر حويزاده ـ أكرمنا الله تعالى وإياه بالحسنى

(١) في الأصل : (في انتباه) .

(٢) **كوي سنْجق** : قضاء في شمال العراق تابع للواء أربيل ، والنسبة إليها : الكويَي (بفتح الياء الأولى) . منها محمد بن عبد الله الكويَي (١٢٩٨ ـ ١٣٦٢ هـ) .

وزيادة ـ وقد نظم قصيدة سينية ، باللغة الفارسية ، وشطّرها عبد الباقي أفندي باللغة العربية ، فكانت كبَزّ ، حيك من قزّ وخزّ .

ومنهم نجل ذي الخلق العِطري ، واحدُ أقرانه الحاج ميرزا هادي الجوهري ، وقد نظم أيضاً قصيدة فارسية ، أخبرني حضرة المولى أنها نالت من البلاغة المرتبة العلية ، ولم يتيسر لي إثباتها في هذه الأوراق ، وإن كانت مما رقّ وراق .

[اهتمام الشعراء بمدحه]

وللشعراء ولع في مدحه من قبلُ ومن بعدُ ، وقد جاوز مانظموه فيه ـ وحق أياديه[1] ـ الحدّ ، فلا تكاد تسمع بفاضل في مشارق الأرض ومغاربها ، إلا وقد أتى في مدحه برائق الأشعار وغرائبها ، وكلٌّ يناديه بلسان حاله ، مخاطباً له على عظيم جلاله :

ولكم عـددتُ لـك الجميـل ولـذّ لي   خُطَى غـداة عـددتـه وكـلامي
إني أعـدّ وإن رقمت محـاسنـا   كمراتب الأعــداد والأرقـام
لكن رأيت لـك المديـح مشوبـة   فمحـوتُ في إثبـاتـه آثـامي

ومن العجب أنك لاترى في مدحه شعراً إلا وهو يرشح بالفصاحة ، ويتوشح ـ ولله تعالى درّه ـ بدرر الرجاحة ، فهو كما قيل :

أعدَتْ فصاحتُـه مـافيـه من مِـدَحٍ   فـالشعر فيـه رديئـاً مثلَ جيِّـده[2]

(١) هذا قسم بغير الله .

(٢) في الهامش : القائل شيخنا عليّ أفندي من أبيات في مدح داود باشا .

[مديح الشاعر محمد أمين المدني]

فمن ذلك قصيدة لشيخ الأدب الناظم الناثر ، ومعطّر أندية المعارف بأنفاسه العواطر ، محمد أمين الزّيْلة وي المدني[1] ـ سقاه الله من خندريس لطفه المريء الهنيء ـ وقد أرسلها إلى حضرته العليّة ، وهو ببولاق مصر متوجهاً إلى القسطنطينية . وهي قوله ، وبالله تعالى فضله :

مليـــح حكمُـــه نَصَف   بهـــاه فــوق مـــا نَصِف[2]
بـــأفــق جبينــــه قمر   منيرٌ ليس ينكسف
وفي محراب حـــاجبــــه   مريضُ الجفن معتكف
وورْدُ خـــدوده بـــالطر   ف ، لا بـــالكف يُقتَطف
ومن يـــاقــوت مبسمـــه   لجـــوهر ثغره صـــدَف
وخمرةُ ريقـــــه دبّت   بقـــــدٍّ زانـــــه الهَيَف
فـــا تلقـــاه إلا مثـ   لَ غصنِ البـــان ينعطف
فـدع يـاعـاذلي عـذَلي   فـــالي عنــه مُنصرَف
فصبري عنـــــه مختلف   ووجـــدي فيـــه مـؤتلف
وإني عـــاشــق دنِف   براه أســـاه والأسف
وقلبي هـــائم كلِف   بيـــدرٍ مـــابــه كلَف
يعـــذّبني ويَعــذُب لي   عـــذابي فيـــه والتّلف
وجــورُ الحِبِّ عنـــد الصَّبّ   عـــدل مـــابـــه جَنَف

(١) محمد أمين : هو محمد أمين بن حبيب بن أبي بكر بن خضر الزللي ، المدني الخطيب ، أديب له نظم كثير حسن ، واشتغال بالتاريخ ، توفي سنة ١٢٤١ هـ ، ومن كتبه : طبقات الفقهاء والعباد والزهاد ، فرغ من تأليفه سنة ١٢٢٥ هـ ، ويوجد الجزء الأول منه مخطوطاً بدار الكتب المصرية . كما له ديوان شعر صغير ننتوي تحقيقه إن شاء الله . (الأعلام ٦ : ٤٦) .

(٢) مانصف : في الأصل : (مأصف) ، والتصحيح من ديوان الزللي المخطوط .

فيـــا من مهجتي تقفـــو   هـــواه وعنـــه لاتقِف
متى تـــدنـــو فيعصيَني   ضنى بـــالجسم مكتنِف ..؟
متى بنمير قُربـــك يَر   تـوي من شفّـه اللّهَف ...؟
متى يعتـــاد أجفـــاني[1]   كرى عنهن منصرف ...؟
متى تُمحَى بـوصلـك من   أسـاطير الجفـا صُحف ...؟
فطيبٌ لقـــاك يكفيني   وحسبي ذلــك الشَّرَف
كما يكفي بني الحـــاجـــا   ت مـــولىً جـــوده يكِف
إمـــامُ الفضـل مَنْ كلّ الأ   فـاضـل خُلْقــه يقفـوا[2]
سليـلُ المجـد (أحمـد عـا   رفٌ) بـــالعُرف يُعتَرَف
بليـــغ ، دُرّ حكمتـــه   بـــآذان العلى شنَف[3]
فريـــدُ العصر مَنْ عن مصـ   رَ قـد رُفعت لــه سجُف
تـــولاّهـــا على حكْم الـ   قضـا بـالعجـز معترف
فـأبـدى الحـقّ حقـاً ، والأ   بـاطـلُ عنــه تنحرف
وأصبــح من مَعين العـــد   ل بــالراحــات يغترف
وكلٌّ من معـــاني جـــو   ده يَرْوَى ويرتشف[4]
وفرْط مهـــابـــةٍ كم من   عنيـــد منـــه يرتجف
وكم شيبٍ وشبـــــان   بــه استكفـوا العنـا فَكُفـوا
وكم ســـارت تحفّ بطـــا   لبي معروفــــه تُحَف

(١) في الديوان : (إجفالي) .

(٢) هذ البيت في الديوان جاء بعد تاليه هنا .

(٣) الشنف : (بفتح الشين وسكون النون ، وقد حركه هنا للضرورة) : القرط ، وقد يخصص الشنف بما يعلق في أعلى الأذن ، والقرط بما يعلق في أسفلها . جمعه شنوف وأشناف .

(٤) في الأصل : وكل من در جوده يروى ويرتشف وفي الديوان (مكرر جوده) .

فما هو غير بحر في المكار … م ماله طرف[1]

وكم في أرض مصرٍ منـ … ـه آثار .! وكم طُرَف ..!

فها هي بعد مدّته … على علياه تلتهف

وهذا دأب آباء … وأجداد له شَرُفوا

بسيرة عدلهمْ وضَحَ الـ … ـهدى وتجانف الجَنَف[2]

فما منهم فتى إلا … وقد فخرت به السلَف

ومولانا لهم خلَف … يجلّ ، وحبّذا الخلف

على أطم المفاخر قد … علت لجنابه غُرَف

وسار بسيرة العمريْـ … ـن في الأحكام يتصف

فهل يلفى له مثْل … بهذا الوصف متّصف

وأمّ الدهر قد يئست … وخامر عقلَها الخَرَف

وحاشا أن يكون له … نظير معْه نأتلف

سوى النجل المطيع ومن … له بأصوله شرَف

وعنى بالمطيع ولده محمدا ، الملقب بذلك ، وكثيراً ما يكنّى حضرة المولى به ، توفي عليه الرحمة في أوائل مشيخته ، وأعقب ابنا يُدعى إبراهيم عصمة بك ، رأيته في سن نحو سبع سنين وهو يقرأ القرآن العظيم ، ويحفظ بعض أبيات متضمنة مناجاة ، وأثر النجابة ساطع عليه ، وطرف المجد ناظر إليه ، أسأل الله تعالى أن يُعظم جَدّه[3] ، ويسرّ به غاية المسرة جَدّه :

(١) في الديوان : (فما هو غير بحر للمكارم) . والبيت بعده من الديوان .

(٢) الجنف : الميل والظلم . ومنه قوله تعالى : ﴿ فمن خاف من مُوصٍ جنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه ﴾ .

(٣) جَدّه : حظه .

فسوف يُرى بأردية الر … ئاسة وهو ملتحف[1]

فقد دلت مخايله … على ما عنه ينكشف

فهذا الشبل من ذاك الـ … ـغضنفر ليس يختلف

أرانا الله بدركا … له يجْلى به السّدف

فيا من ليس يحصر بعـ … ـضَ آي صفاته الصّحف

إليك زففتَ جارية … حُلاها التّيه والصَّلف

عَروبا غادةً عذرا … ءَ ، روضُ جمالها أُنُف

يحاكي الميمَ مبسمُها … وعادلَ قدّها ألف

فلا هي عانس يَخشى … مُواصلَها ، ولا نَصَف[2]

فقابلها بإقبال … وبشْرٍ ظِلُّه يرف

وعذراً للمحبّ إذا … بدا لك نقصُ ما يصف

فطرْف الذهن مطروف … وبدرُ البال منكسف

بقيتَ منعّما لـزهو … رِ روضِ المدح تقتطِف

ومِنْ صافي سلافِ المجـ … ـدِ طولَ الدهر ترْتشف

مدى الأيام ماحِبٌ … بحِبّ ظل يأتلف

وقوله أيضاً ، وقد حكى روضا :

ديارَ الصّبا حيّاك غادٍ ورائح … يباكر أكناف الحمى ويراوح

وجادك إن ضنّ الحيا بعهاده[3] … من الجفن هطّالٌ على الخدّ سائح

إذا انهلّ تخضرُّ الوهادُ بوقعه … وتخضلّ هاتيك الربى والصحاصح

ولا زال معطارُ النسيم إذا سرى … يفاوحُ مغناك الشذى وينافح

(١) هذه الأبيات تتمة للقصيدة السابقة .

(٢) النصف : (بفتح النون والصاد) : المرأة الكهلة . والجمع : أنصاف ، ونُصُف .

(٣) العهاد : مطر أول السنة ، ومكان نزوله . ومثله العهادة .

مغـاني مـرّات بزاهِر روضهـا ... طيـورُ التهـاني بـاغـمـاتٌ صـوادح

قضيتُ بهـا شطرا من العمر لاهيـا ... ولم يُثنني عمـا أحـاول نـاصـح

ولمـا رأيت الرشـدَ قـد لاح فجره ... تيقّنت أن الغيَّ فيـه قبـائـح[1]

وأنّ انهاكي في الهـوى غير لائـق ... وداعي الفنـا نحوي مُماسٍ مُصابـح

ولـو أنني استدركتُ مـافـات وانقضى ... لما طوحتْ بي عن حماها الطوائح

فـأعظِمْ بهـا دارا ، وأكرم بنـاسهـا ... أنـاسـا لهم كفُّ المعالي تصافح ..

فليس يسامي الدهرَ ساميَ مجدهمْ ... سوى ماجدٍ بالجاه والمال سامح

كقُطب سماء المجد (أحمد عارف) ... بـه يَهتدي للرشد سارٍ وسارح

أجـلّ قضـاةِ المسلمين ، أدلّهمْ ... إلى الحق إن يجنح إلى الزيغِ جانح

محقق أبحـاث العلـوم بكشفـه ... غـوامضَ مـا لاحت لهنّ لـوائح

جلا صدأ الإشكال صيقلُ فهمِـه ... فمـا مشكلٌ إلا بـدا وهـو واضح

وأحرزَ قصب السبق في كل غـايـة ... فتـاليـه في يوم الرهـان مُـلاوح[2]

إذا مـا ادلهمّ الخطبُ في معضـل بـدا ... لـه زنْـد فكر في المهات قـادح

فكم حـلَّ من رمـز ، وأظهر مضمرا ... من الكنز لم يلمحه بالفكر لامح ..

وكم بجديد الذهن في حـدّ حـادث ... أبـان فلولاً لم تُبنها الصفائح ..

فأنّى يـوازَى أو يـوازَن فضلُـه .. ؟ ... ومقـدارُه في كفـة الفضل راجح

وأنّى يـدانَى في عـلا مجـدِه وقـد ... نمتْـه إلى العليـاء صيدٌ جحاجح . ؟

كرامٌ فخـامٌ طيبـون ، وجـوهُهُم ... وآراؤهم في الداجيـات مَصابـح

يرَوْن اكتسابَ الحمد ضربةَ لازب[3] ... عليهمْ ، ومن يبـغ الثنـاءَ فرائـح

فكم في عكاظِ المكرمـات محامـدٌ ... لهم نَميت[4] آيـاتُهـا ومَمـادح . !

(١) في الديوان فضائح .

(٢) ملاوح : أي تفصل بينها مسافة فلا ينظر إليه إلا من بعيد .

(٣) في الأصل : (لازم) والتصحيح من ديوان الزللي المخطوط .

(٤) في الديوان : (تليت) .

ومن كان هـذا الأصلُ منبتَ فرْعـه ... فللـدهر في سامي عـلاه مـدائـح

فيـا أيهـا البحر الخضمّ الـذي بـه ... سفـائنُ آمـالي جـوارٍ سـوابـح

لسـدّتـك العليـاء أهـديتُ غـادةً ... عَروبـا عليهـا للجمال مـلامـح

فهيِّئْ لهـا بيتَ القبـول تكرّمـاً ... وإن ظهر التقصيرُ منهـا فسامحوا

فـلا زلتَ في عـزّ يـدوم ورفعـةٍ ... وكلٌّ إلى جدوى أياديك طامح

إلى بـابـك السـامي تسير مـدائـح ... ومن سيبـك الهـامي تسرُّ منـائـح

وأنت لأربـاب الإجـازة خـاتـم ... ونظمي لأبـواب الإجـادة فـاتـح

(مديح الشاعر عبد الرحمن الصفتي)

ومن ذلك مانظمه الشيخ عبد الرحمن الصفتي حيث قال ـ عليه رحمة الملك المتعال ـ :

أُسِرّ مـا بمعـالمي إعـلانُـه ... وأكنّ مظهر مـا بهـا عنوانُـه

وبنـاءُ مستتر الضمير على شفـا ... قـد أعربتـه نـواصبـاً أشجانـه[1]

ومقـدمـات الوجـد تنتج صبْوتي ... وقيـاسُ شكلي قـد بـدا برهـانُـه

معنى تصوُّر في بـديـع محـاسن ... وافٍ وقـد أشجى الفـؤادَ عيـانُـه

فكأنّ وجنتـه وآسُ عـذاره ... روض وحفَّ بهـا النعيمَ جِنـانـه

وأشبّهـا مـاءُ الحيـاء فـأزهرتْ ... لهبـا جنـاه من المحب جَنـانـه

وغدت مجوسُ الخال تعبدُ منه مـا ... بين الجـوانح قـد ذكت نيرانـه

مـامـاس في بُرْد المحـاسن قـدُّه ... إلاّ زهـا وصبَتْ لـه أفنـانـه

يغنيـه معتقـلُ القـوام عن القنـا ... وعن الظُّبـا مـاأغمدت أجفـانـه

فـالحسنُ شـاكلَ صبّـه في عشقـه ... وقـد استحـال عليها سلوانـه

(١) يظهر في هذا البيت والبيتين بعده استغلالَ الشاعر للمصطلحات النحوية والمنطقية .

من حين أوهمني الصدودَ تدلّلا … مَرَحاً ، وخاطرَ خاطري هجرانه
مازال بحر الدمع ينثر لؤلؤاً … حتى تنهّر سائلا مَرْجانه
لم أنسه[1] إذ زارني ثملاً بما … هو من رحيقِ رُضابه نشوانه
ويقول لي : اقطف بثغرك من جنى … خدّي الشقيقَ ، فقد وفَى نُعمانه
واحرصْ على فُرَص اللذائذ آمنا … واعلم بأن الوصل آن أوانه
في ليلة تحكي طوالعُ سعدها … وجهَ الذي لعلاه دان زمانه
وغدا يفاخر سالفَ الأعصار إذ … شرُفتْ على ماقد مضى أحيانه
(العارف) العلَمُ الشهير (بحكمة) … بلغت لما بهر النُّهى إتقانه
ينبيك (أحمدُ) فعْله عن وسْمِه … إن جاز ميدانا كبَتْ فرسانه
يسعى ليدرك ماوراء المنتهَى … وجنودُ ربّك ماسعى أعوانُه[2]

ورث المكارم كابرا عن كابر … وعلى أساسات التقى بنيانه
لم يرتضع طفلا سوى ثدْي العلى … فكأنما المجدُ الرفيع لبانه
حتى استوى عَمداً لدينِ محمد … وبه استقام وشيّدت أركانه
خدم الهدى بيراعه وبباعه … فيخطّ مِنْ دمِ مَنْ بغى تبيانُه
هو في البلاغة والندى مهما همَى … بحرٌ تفيض على الورى خلجانه
أعدى الزمانَ سخاؤه ، فسخا به … وبمثله لازال يبخل آنه
إن كان بَرُّ البرّ أضحى مخصبا … بعد القِفار ، فإنه سلطانه
أو كان بحرُ العلم أصبح طاميا … عذْبَ المذاق ، فإنه خاقانه
طلْقَ الثلاثة ، لاعدمتُ وجودَه : … يدُه ، وباسمُ وجهه ، ولسانُه
لطُفَتْ شمائله فطابت مشربا ، … عطرُ الشذى ، أرجُ النسيم : زمانُه
وإذا تشاكل خَلقُه معْ خُلْقه … فالحسن بينهما وفَى ميزانه

(١) في الأصل : (لم أنس) .
(٢) ماسعى : ماظرفية مصدرية .

إن تسجد العلياءُ شاكرةً فقد … رُفِعت على هاماتها تيجانه

إلى آخر ماقال ، ولم أنقله لما في نسخته من السقم والاعتلال .

ولهذا الفاضل قصائد كثيرة في حضرة مولاي المشار إليه ، لازالت عين العز الممدود قاصرات الطرف عليه ، إلا أن فيها بالنسبة إلى غيرها الغث والسمين ، والمَخْشَلَب[1] والدرّ الثمين ، وكأنه ـ رحمه الله تعالى ـ عجل في عرضها ، فلم ينقّ من الهشيم أريض روضها ، وعلى الشاعر أن يهذب شعره ، ويعيد إليه نظره مرة بعد مرة ، ولله تعالى در من قال ، وأحسن في المقال :

لاتعرضنْ على الرجال قصيدة … مالم تكن بالغتَ في تهذيبها
فمتى عرضت الشعر غيرَ مهذّب … عدّوه منك وساوساً تهذي بها

[مديح الشاعر عبد الله بن عبد الشكور]

ومن ذلك موشح للمفلق الأديب الأريب ، الحائز من ظرف الظُّرف أوفر نصيب ، شيخ العربية ، الشيخ عبد الله بن عبد الشكور المكي الشهير بهنديّة ، ـ تغمده الله تعالى شأنه بألطافه السنيّة ـ وهو قوله ، ـ لازال متوشحاً بالشهرة فضله ـ :

ياآلقومي من غزال ربْربِ … زاد هَجْري ، والهوى برّح بي
ثغره فيه مُدام وحَبَبْ
ولآلٍ وأقاحٍ وضَرَب
ليس يطفي مابقلبي من لهب

(١) في الأصل : (والمشخلب) ، والصواب ماأثبتناه ، وهو الزجاج . قال شوقي :
خلَوا الأكاليل للتاريخ ، إنّ له … يَداً تؤلفها درّا ومخشلبا
(الشوقيات ١ : ٧٩) .

غيرُ تقبيلي لـــــذاك الشنبِ   رشفَـــــــةً يُطفئ عنّي لهبي
حرّ أكبـــادي على برد اللّمى
رشفُـــــــه يُبرِد عن قلبي الظما
أتُرى يـامن رعى البيض الـدُّمى

تسمـحُ النفس بهـــذا الطلب   بعــد إبعـــادي وكثْر التعب
أنت بـالألحـاظ تصطـاد الأسودْ
وعلى العشـاق بـالحسن تسود
بجفـــون وعيـــون وقـــدود

وقسيٌ من نبـــال الهـــدُبِ   وقعهـــا فيـــه دواعي العطَب
يـاشبيـة الغصن يـاحلـوَ الجنَى
يـاشقيـق البدر ، يـاباهي السنى
زُرْ فتىً ألبستَــــه ثـوبَ الضنى

وتفضـل جُنـح ليــلٍ غيهبِ   كهـــــلالٍ مختفٍ في السحب
أو تعِـدني وغْــدَ زُورٍ ومحـال
أنــا أرضــاه على أيَّـة حــال
أو تعُـدني لـو كطيفٍ في خيـال

أيّ بـــدر دائمـــاً في الحجُب   خـافيـاً عن عين عَنْقـا مُغرب
قـدّك الميـاس يُـزْري بـالأسلْ
كم أسيرِ عـــاشـق مثلي قَتَــل
أنــا مقتـولٌ بـأسيـاف المُقَـل

وبقـدٍّ يـزدري بــالقُضُب   فـأينْ يـا قـاتلي عن سببِ
فـوفَى لي بـاللقـا ظبْيٌ الصريمْ
وأتـــاني في دجى الليــل البهيم
وسقــــــاني من لمى درٍّ نظيم

وتنعمتُ بخـــدّ مُـــذْهب   مـا رأتْنـا غيرُ عينِ الكـوكب
قلت لّمــا زار قبــل الغلَسِ
واجتمعنــا في ريــاض النرجس
فــأدرْهـا من لمــاك الألعس

ريقـــةً تفضـل طعمَ الضَّرَب   هي أشهى من رحيـــق العنبِ
ثمّ لّمــا لاح ضــوء الفلَـــق
وتغنّى الــوُرْق فــوق الــوَرَق
ومحـا الصبـحُ خضـابَ الشفَـق

زان مـــدحي في كريم الحسَب   (عـارف) المولى صحيح النَّسب
ذو المعـالي ، قـاضي[1] الشرع الحنيفْ
مَعْـــدِن الفضـــل وكهف للضعيف
الشريف ابن الشريف ابن الشريف

نجـل طــه الهـــاشمي اليثربي   بضعــةُ المختـــار خير العرب
قـد حبــاه الله وهّــاب المِنَنْ
بـالكمــالات وبـالخُلْـق الحسن
فنراه ســــــالكا خيرَ سَنَن

يبتغي الفـــوز وخيرَ القُرَب   زادَه الرحمنُ فضــــلا وحُبى
مـاجـدٌ مـا خـاب مَنْ أمّلَـه
فلــذا مــا خــاب من أمّ لــه
جـلّ مـولانـا الــذي كمّلــه

(١) قاضي : الوزن يقتضي قراءتها منصوبة بقطع النعت .

وحبـــاه من علـــوّ الرّتب   همـــةً يسمـــو بهـــا للشّهب

راحتـاه في النـدى مثـلُ البحـار

لم تـزل تَهمي لجينـا ونُضـار

فسَلِ العـافين[1] من كلّ الـديـار

كيف يُروَى مـدحُـه في الكتب   خـالـدا فيهـا مـدارَ الحِقَب

يـاإمـامـا بـالنـدى جـاد لنـا[2]

قـاطعـا حجّـةَ من جـادلنـا

فـاقضِ يـاعـارفُ فينـا ولنـا

أنت فُقتَ النـاس كهـلا وصَبيّ   وبمــــدحي زال عني وَصَبي

جئتَ تقضي في حمى خير الأنـام[3]

وتُري النـــاسَ حـــلالاً وحرام

ثم وافيتَ حمى البيتِ الحرام

فـاجتمعنـا بـإمـام الأدب   حـازه بـالإرث والمكتسب

فـوجـدنـاكَ لنـا خيرَ أنيس

واحـداً في فضلـه ، نعم الجليس

عصمـةَ الله ، الرئيس ابن الرئيس

معـدن الفضـل ، وفيّ الأدب   (عـارف) قـام بـأسنى الرُّتب

انتهى ...

وأقول لعمري غيرَ مداهن : الفرق كالصبح ظاهر عندي ، بينه وبين موشّح

(١) العافين : طلاب الحاجات .

(٢) جادلنا : الأولى من الجود والثانية من الجدال .

(٣) إشارة إلى توليه القضاء بالمدينة .

العمريّ عبد الباقي أفندي ، فماء ولا كصَدّاء[1] ، ومرعى ولا كالسعدان :

ومـاكل مخضـوب البنـان بثَنـةٍ   ولا كلُّ مصقـولِ الحـديـد يمـاني

وقد أنشد هـذا صاحبُه لـدى حضرة مولاي - سلمه السلام - ، ضحوة نهار الجمعة السابع عشر من ذي الحجة الحرام ، لتسع وثلاثين من المائة الثالثة من الألف الثانية ، وهي سنة الحجة الرابعة لحضرة ذي الأيـادي المتواليـة ، وكان قـد اجتمع بحضرة المشار إليه قبلُ بثلاثة عشر يوماً ، فأنشده قوله - رحمة الله عليه - :

قـد تشرّفت بـاجتماعي بنـدب   حـائـز الفضـل والتقى والمعـارفْ

ارتجـالا أرختـه طـاب حجّـاً   معـدن العلم والكمـالات عـارف

وله شعر نفيس ، من قصائـد ونتف وتشـاطير وتخاميس ، وقـد جمع حضرة المولى في مجموعه المفرد في بابه طرفاً صالحاً من ذلك ، فارجع إليه تجد ماترتـاح لـه الأرواح هنالك .

| تفضيل المؤلف لشعر محمد أمين |

وأعلى من ذلـك الشعر وأغلى ، وأجلّى بلاغـة منـه وأحلى ، شعر الشيخ أمين أفندي الزِّيْله وي ، فهو - ورب الشعْرَى - من نهر مجرة البلاغة بعـد المرور عليهـا مرتوٍ ، وقد جمع أيضاً من ذلك حضرةُ المشار إليه ، مـا حلق في جو سماء اللطـافـة والطرافة بجناحيه :

فرائـد تَستحلي الرواةُ نشيـدهـا   ويلْهـو بهـا عن كاعب الحيّ سـامرُ

ولـولا ضيـق الـوقت لشرحت صدر هـذه الأوراق ، ممّـا رقّ من قـوافيهـا

(١) ماء ولا كصداء : هو من الأمثال العربية ؛ وصَدّاء كَكَتّان ، وصَدْآء كسلسال : بئر أو عين اشتهرت عند العرب بشدة العذوبة .

الشريفة وراق ، وما تقدم من شعره يشهد بصدق ادعائي جلالتَهُ ، فليكتف بـه من لاعلة في أدبه ، ويعجبني مما ينسب[1] إليه تشطيرُ البيتين لأبي الحسين الجزار[2] وذلك قوله ، وقوله :

(أقـول لهم وقـد حثّـوا المطـايـا) إلى أين السرى . ؟ ومتى اللقـاء . ؟
خـذوني ، أو خـذوا روحي وإلا (قفوا نفسا ، فساروا حيث شاؤا)
(ومـا عطفـوا عليَّ وهم غصـون) وشـأنُ الغصن عطفٌ وانحنـاء
ولا قـالـوا : نعـود ، فقرّ عينـا (ولا التفتـوا إليَّ وهم ظبـاء)

ولهم[3] غيرُ ذلك مما لاأستطيع له عدّاً ، ولا أجد لبحره حدّاً ، من قصائد مختلفة اللغات ، متفقة اللسان على أنه رأس السادات ، ويحسن أن يقال فيها ، خطاباً لهاتيك الحضرة ـ لازال الحسن ثاوياً في مغانيها ـ :

خـذهـا بمدحـك ذا المكارم والعلى أصـلُ البهـا ، فرعُ المشفّـع طـه
أبكارَ يبـدو الـدرُّ من ألفـاظهـا ويثير كثبـان العبير ثنـاهـا
تُـزري بنـوّار الحـدائـق بهجـة ويفـوق أنـوارَ البـدور سنـاهـا
يلهـو النـديمُ بسكرهـا عن خمرة ولـوَ أنّ من عهـدِ الكليم بقـاهـا
وكـذا الكئيب لـدى الهمـوم ببثّهـا يسلـو كآبـة حـالـه وشجـاهـا
كقـلائـد العقيـان نَظمُ جمـانهـا وسـلافـةِ النُّـدمـان في مجراهـا
قِـدمـاً لَـو أنّ ابنَ الحسين[4] ببعضهـا وافَى بني حمـدانـه وفّـاهـا

(١) في الأصل : (ما) .
(٢) **أبو الحسين الجزار** : يحي بن عبد العظيم بن يحي ، جمال الدين ، شاعر مصري ، كان جزَاراً بالفسطاط ، أوصله شعره إلى السلاطين والملوك ، وكان بينه وبين السرّاج الورّاق وغيره من شعراء عصره مداعبات ، ولد سنة ٦٠١ هـ وتوفي سنة ٦٧٩ هـ . (الأعلام ٨ : ١٥٣) .
(٣) ولهم : أي للشعراء في مدحه .
(٤) ابن الحسين : أبو الطيب المتنبي .

وكـذا لـو الأزريُّ[1] سـام بيـوتَهـا مـا جرَّ فضـلَ إزاره بجماهـا
نشرتْ مـديحـك في الأنـام فعبّقت كلَّ الـوجـود بنشرهـا وشـذاهـا
صاغت قـوافيهـا الحسانَ مصاقعٌ ، غررُ البـلاغـة بـل نجـومُ سماهـا
من كلّ أنجبَ لـو تُنـال فضيلـةٌ بحمى الثريّـا نـالهـا وسماهـا
نُبْـل القرائح ، من سنـاء ، فهومهم شمسُ الظهيرة تستعير ضيـاهـا
يـا من غـدا أعلى البريّـةِ منصبـا وأجـلَّ مَنْ فـوقَ البسيطـة جـاهـا
تلـك المـدائـح لم تـزدك تشرفـا لكن مقـامـك رفعـةً أولاهـا
لا زلت في العليـاء أشرفَ طـالـع ترْقى على أعلى السما جـوزاهـا

[مدائح الناثرين]

وأما ماجاء في مدحه والثناء عليه من النثر ، فلا يُحصَى أيضاً أو يحصى دررُ البحر ، وقد رأيت من ذلك عدة رسائل تُزري برسائل ابن العميد ، وتُري عبد الحميد فيما أتى به غيرَ حميد ، وجملة مقامات لو رأى الحريريّ سندسها البديع ، لما اكتفى بقوله : هيهات أن يدرك الظالع شأو الضليع ، ولكوني على جناح السفر

(١) على هامش هذا البيت مكتوب : (محمد رضا البغدادي الشاعر المفلق) ، ويبدو أنه هو المقصود بالأزري ، لا كاظم بن محمد الأزري البغدادي أيضاً .
وجاء في معجم المؤلفين (٩ : ٣١٣) : محمد رضا الأزري ، أديب شاعر ، درس العلوم العربية على أخيه الكبير يوسف الأزري وغيره من فضلاء عصره ، توفي ببغداد ، ومن آثاره ديوان شعر . أما كاظم فقد جاءت ترجمته في الأعلام (٥ : ٢١٥) : كاظم بن محمد بن مهدي بن مراد الوائلي البغدادي (١١٤٣ ـ ١٢١١ هـ) الشهير بأزري (بضم الهمزة وسكون الزاي) ، شاعر فحل ، من أهل بغداد ، يلقب بشاعر أهل البيت . له قصيدة تزيد على ألف بيت مطلعها : (لمن الشمس في قباب قباها . ؟) وله ديوان مطبوع ، أكثره مدائح في آل البيت . (الأعلام ٥ : ٢١٥) .

قصصت جناح التحرير ، ولولا أن طائر القلب محلق في جو غائلة ذلك ماارتكبت هذا التقصير .

وقد أراني ـ دام ظله ـ رسالة طويلة ، كتبها له حضرة ذي الفضائل الجليلة الجليلة ، روض العلم المعطار ، مولانا الشيخ حسن العطار ، وقال : قد أجمع علماء الحجاز ومصر ، أنه أوحد الأدباء في حسن النثر . فطالعتها بأسرها ، ووقفت على حقائق نثرها ، ودقائق سرها ، فقلت : يامولاي ، لم يَعْدوا عن الحق في ذلك الإجماع ، إلا أنه بالنظر إلى أدباء مآدب هاتيك البقاع ، وإلا ففي بغداد وما والاها من الديار ، أدباء عقاقيرُ[1] رياضِ نثرِهم ماشمَّ نحو عبيرها جونة عطّار ، وإنهم لو سمعوا قوله في مفتتح هذه الرسالة ، الدالة على ماله من البسالة : (ماروضة كلّل الطلُّ درَّ تيجانها) ، لقالوا بدله : ماروضة كلّل درّ الطلّ تيجانها ، مدّعين أنه أولى من كلمته التي قالها ، على علوّ شأنها . فقال ـ سلمه الله تعالى ـ : إنه لابأس بما قال ، ووجّهه بما يرتاح له البال ، ثم قال : لو نوقشت أنت في نثرك لوجد نحو ذلك فيه . فقلت : نعم ياسيدي ، عصمنا الله تعالى من المناقشة بعظيم كرمه وأياديه ، ثم استنوق الجَمل ، وخضنا في تفاصيل غير هاتيك الجُمل .

ومما كتبت لحضرته بعد أن استقر على منصة مشيخته :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أحمد مولى عارفاً كلٌّ من في الوجود ، أنه ـ عزَّ سلطانه ـ وليُّ النعم ، وغارفاً حسب استعداده كلُّ موجود ، من بحر جوده ـ جلّ شأنه ـ الخضم[2] .

وأصلّي وأسلّم على من نبغت درر حكمته ، من بحار عصمته ، فاختطفتها

(١) العقاقير : جمع عقّار ، وهو نبت يتداوى به ، ونبت له رائحة طيبة أيضاً .

(٢) في الأصل : (عارف وغارف) ،والصواب ماأثبتناه .

أذهان ذوي الأنظار ، بأيدي الأفكار ، وبزغت دراريّ هدايته ، من مطالع رحمته ، فاجتلتها أعيان أولي الأبصار ، بأعين الاستبصار .

وعلى آله الذين حُفظت بلا شقاق سماءُ مجدهم عن طريان الخَرْق والالتئام ، فأمنت أن تروّع بانشقاق ـ وحرمة جدّهم[1] ـ يوم تشقّق السماء بالغمام ، وخفقت رايات فخرهم ـ ويالله تعالى أبوهم ـ بنسائم لطائف ، إنّي تارك فيكم الثّقلين[2] وبدت أنوار فجرهم ـ عميَ من يَجفونهم ـ فاتضح صبح الهداية لذي عينين ، وتجلت غواني فضائلهم تميس بأرْديةِ طرّزتها يدُ الوحي بنقوش : ﴿ يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيت ﴾[3] ، وجلّت مغاني شمائلهم عن أن يهبّ فيها ـ ومرسلِ الرياح ـ إعصارُ نقصٍ : لو أنّ ، وعسى ، ولعلّ ، وليت .

وعلى أصحابه الذين أحاطوا ببدره إحاطة الهالة ، وملؤوا قَليب قلبِ شانئه ـ وعزة شأنه[4] ـ بما هاله ، فرجع ـ وحَقّ له ـ يلتمس زلة قدم لهم ـ ران عَلاكعبه ـ بخفيّ حنين . وأماطوا بما أشرق عليهم من نوره ماادلهمّ من ظلمة ليل الكفر وديجوره ، فأصبحت ـ والحمد لفالق الإصباح ـ أنوارُ الملّة الحنيفيّة قد ملأت مابين الخافقين .

وبعد :

فلا يخفى أن الله تعالى جَدُّه وجلَّ جلاله ، وعمّ على وجهٍ لايحيط به الخيالُ نوالهُ ، ماتجلى لهذه الأعيان فأبرزها من خزانة علمه ، وجعلها ترفل بأرْدية

(١) هذا قسم بغير الله .

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل علي بن أبي طالب) رقم ٢٤٠٨ ، والمقصود بالثقلين كما جاء موضحا في الحديث المذكور : كتاب الله ، وأهل بيته ﷺ .

(٣) (الأحزاب : ٣٣)

(٤) هذا قسم بغير الله .

الجود ، في أنديـة الوجـود ، وتتردد بين حَـزْن القـدر وسهلـه ، إلا ليُسري بعبـده سبحانه من مكة للاستدلال[1] بها إلى حرم صفاته المقدس ، وربما يعرج به جبريل لعقل[2] على بُراق الهـدايـة ، حتى يـوصلـه اللطف على رفرف العنـايـة ، إلى محـل يسمع منه صريف أقلامِ الإرادة الجارية بمداد الحكمة ، من فيضـه تعـالى الأقـدس .

ولما كان ذلك الإسراء وكذا الوصول إلى مـاتنقطع دونـه آبـاط رواحل الآراء ، مما يقصر عنه بنفسه الحجا ، قد يتوقف بحسب جرْي العادة على أسباب أخر ، أجلّهـا إرسال المرسلين ، مبشرين ومنذرين ، مرغبين ومرهبين ، لِتنهضَ العزائم ، ويهبّ من منامه النائم ، وتقوم الحجـة على من أبى واستكبر ، أطْلع - جلّ وعلا - في سماء رحمتـه من بروج حكمتـه شمـوسَ المرسلين ، فنـوّر تبـارك وتعـالى بهم الحـوالـك ، وأوضح المسـالـك لكل سـالـك ، وقطع عـذر المتخلفين ، وجمع - جلّ شـأنـه - في خاتمهم ، ماتفرّق في صفـائح صحـائف عـالَمهم ، من نقوش الفضـائل والفواضل ، وخصّه من بين عموم أولئك الأخيار ، بالرفع إلى مقـام قـابَ قوسين ، وميّز حـالـه بـالاطلاع على حكم مـا يجري من الأقـدار ، حتى أشهـده بعين الرأس رأسَ العين ، فأين من علومه علومُ الأواخر والأوائل ..؟ وقـد أودع صلى الله تعـالى عليـه وسلم ماأودع ، من جواهر هاتيك العلوم ، حِقاقَ[3] قلوبِ آله وأصحابه ، ونالوا مـا نـالوا حيث كانوا بمرأى منه ومسمع : من زواهر الفهوم ، فعرفوا حق المعرفة معـالم سنتـه ومطالع أنوار كتـابـه ، فلمـا اختـار عليـه الصلاة والسلام الرفيقَ الأعلى ، وفـارق لوصالِ عشاق حظائر القدس هذه الحياةَ الدنيا ، لم يألوا جهدا في دعوة العبـاد لمـا خُلقوا له ، ولكل منهم - رضي الله تعالى عنهم - في نشر شريعتـه وسلوك طريقتـه ولَهٌ ، فرموا عن قوس واحدة صولات الأضاليل بأحجى أنوس[4] ، وهزموا متقلدين

(١) في الأصل (الاستدلال) .

(٢) كذا في الأصل . ولعلها : يقلّه

(٣) في الأصل : (ففاق) .

(٤) كذا في الأصل . أو أقوس .

بهم متساعدة ؛ جيْشات الأباطيل بكل أشرس أشوس ، وغـدا إيوان كسرى ينظر ماحلّ بجلاّسه ، بأعين انشقت لـه كأعين الجن ليلـة الميلاد ، وبـدا التـاج يـنـاجي النعال بما جرى على رأسه ، بأفواه خلقتها له ألسنة القنا يوم الطّراد ، فلما امتطى من امتطى منهم غـارب الشهـادة ، وأفضى بهم طـالـع السعـد إلى أن حلـوا أزرار الرواحـل إذ حلـوا في دار السعـادة ، ورحـل البـاقـون على يعمـلات[1] أعمـالهم الصالحة ، حتى أنـاخوهـا قريرة العين في سوق عكاظ تجارتهم الرابحة ، قيّض الله تعالى لدينـه القويم أقوامـا مـاقيّض إذ ذاك الزمـانُ مع كثرة الـدوران بين نهـاره ويسـار ليلـه : أمثـالهم ، فقـامـوا لنصرتـه على سـاق ، وأقعـدوا على العجز أهـل الشقاق ، وصيّروا - بتأييد الله تعالى وفضله - أفعالهم أفعى لهم .

وعلى هـذا المنـوال حـاكت الإرادة الإلٓهيـة برود الـزمـان ، وفي ذلـك المجـال جالت خيول العادة الربانية مطلقـة العنـان ، فما مرّ عصر إلا وقـد حلا بـأجلّة عرجت على معارج التوفيق إلى معالم التحقيق منهم المدارك ، ولا تزال طائفـة من هذه الأمة قائمة بأمر الله تعالى لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله عزّ وجل وهم على ذلك ، نعم إن الأعصار متفاوتـة في ذلـك قلـة وكثرة ، وحبلى الليـالي لا تلـد توأما - وحرمة أبيك[2] - في كل مرة ، وإن اختلاف أقدار العلماء لأكثر بـالاتفـاق من اختـلاف أقـدار كـواكب السماء ، وهم على العـلاّت لأجسـاد هـذه الأعيـان أرواح ، وعلى سـائر الحـالات لليـالي عـالم الإمكان أصبـاح ، بهم نـدرك شـوارد الأحكام ، وبنورهم تنجـاب سجف ظلَمَ الأوهـام ، ولولاهم لتوارت الغبراء - وحقّ لها - برمـاد ، ولخلعت الخضراء - ولا لوم عليهـا - حليّهـا ولبست أثواب الحـداد ، ولكان ماكان ، مما يتلعثم عنده لسان القلم ويتعثر قلم اللسان :

(١) اليعملات : النوق النشيطة .

(٢) هذا قسم بغير الله .

تلك المفاخر لا مفاخرُ جاهل — نال الثراء بجدّه وبجهده
مجد له عنَتِ الوجوه وطأطأت — شمّ الأنوف لشأوه ولسعده

ولما كاد الزمان ييأس أن يرى بعينيْ شمسه وبدره ، فتى من أولئك العلماء الأعلام ، وأوشك الفلك أن يصفق براحتيْ شرقه وغربه في أثناء سيره ، أسفا على فقدان من يقوم بأمر أطفال الحوادث من مشايخ الإسلام ، منَّ الله جل جلاله ، وتعالى جَدّه وعمّ نواله ، على هذه الأمة المحمدية ، والشريعة المرضية المصطفيّة ، فأنزل جل وعلا ملَك الإلهام من سماء الإنعام[1] ، على قلب حضرة ملك غدا خليفة الرسول ، فبدأ يُدعى الإمام والعياذَ للعوام[2] ، والمخصوص بمزايا تقصر عن شرحها العقول :

كأنها ويراعَ الواصفين لها — بحر مقيس إلى منقار عصفور

حضرة ظلّ اللهِ ـ سبحانه ـ التام الذي لا يتقلّص ، وفضله ـ تبارك وتعالى ـ العام الذي لا يتخصص ، السلطان ابن السلطان ، والخاقان ابن الخاقان ، السلطان عبد المجيد خان ، ابن السلطان الغازي محمود خان ، لا زال قرةَ عين الإسلام ، وناشرَ لواء العدل على مفارق كل فريق من الأنام ، فألهمه ـ جلّت نعماؤه ، وجلت آلاؤه ، والملوك ـ كما استفاض ـ مُلْهَمون : أن يقرّ عينَ التقوى ، ويسرّ فؤاد الفتْوَة[3] ويشرح صدر الفتوى ، ويدأب بالدعاء له المسلمون ، فأنعم ـ أيده الله تعالى ـ على الإسلام ، بمشيخة حضرة مولىّ[4] رفع الله تعالى قدره ، إذ بوّأه يوم وُضع مهْدَ (معرفة الحكمة) ، ونصّبه يوم فتح فاه ، بالتكلم بما يرضاه ،

(١) في الهامش : (الإعظام) .
(٢) في الأصل : (والعياذ والعوام) .
(٣) الفتوة : اسم مرة من الفتوى .
(٤) يقصد الشيخ عارف حكمة .

هاديا بما منحه إياه لهذه الأمة ، ولم يزل ـ سبحانه ـ آخذاً بيده ، منوّراً بأنوار العلم والعمل كواكب سعده ، مالئاً بصيته الآفاق ، مثّمنا[1] بوقاره السبعَ الطباق ، حتى أجلسه بعظيم سلطانه على كرسي المشيخة العظمى ، وجعل رأيه أعظم قوائم عرش الخلافة الكبرى ، وسلم إليه مقاليد سماوات الشريعة الغراء ، وأحيا به عهد النبوة حين أفني ، فكأنه تخيل أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مافني ، أو أنه عاد إلى ما كان عليه في هذه الحياة الدنيا ، ولا بدْع فهو بضعة من ذلك النبيّ البيّنة ، ودرّة استخرجتها يد الأقدار من أصداف أصلاب بنيه ، فأصبح الزمان ناشر راية أنهاره البيضاء ، شاكراً لذلك المنّ الأوفى ، شكر روضٍ غمره بعد اليأس نوالُ السحاب ، وأضحى الفلكُ دائراً بكسوته الخضراء فرحا بهذا المولى دوران مولدي[2] أسكره بعدَ النأي وصالُ الأحباب ، وسارت أحكام الشريعة تميس بأردان محظورها ومباحها ، مطرّزة بطراز لا ونعَمْ في رياض القبول . وصارت أعلام السياسة تنوس ذوائبُ سرورها وأفراحها ، بنسائم إشارات وليّ النعم على أعلام معقولٍ لا يزلزلها المنقول ، ورفع العباد والعُبّاد أكفّهم بالدعاء لحضرة الخليفة الأعظم ، واستغرقوا النهار والليل ، واستنهضوا الرَّجْل والخيل ، بالثناء على حضرة أمير المؤمنين في هذا العالم ، وابتهج العلماء ابتهاج الأشباح بالأرواح ؛ وطاروا ولا جُناح ، بأجنحة الأفراح في جو الارتياح ، فلا تجد عالما إلا والسرور ملء إهابه ، ولا فاضلا إلا وقد أحاط به الحبور إحاطة ثيابه ، وازّينت بقاعُ الفضل بملابس الأنس وتبرّجت ، وتعطّرت مشامّها بعبير الحظوة وتأرّجت ، وأنْجد للعلم وأتْهم ، وأيمن وأشأم وأعْمَن ، وأعْرق ، وغرّب وشرّق ، فلو رأيته وقد صدحت بلابلُه على أفنان العلى ، وجُلّيت عرائسه في الملإ زاهية الحلل والحلى ، لرأيت نعيماً ومُلْكاً كبيرا ، ولو أبصرته وقد أشرقت شمسه ، وحسد اليومَ

(١) يشبه الشيخ عارف بسماء ثامنة .
(٢) كذا في الأصل ، ولعلها موله .

عليه أمسه ، وتنوع إلى أشرف الأنواع جنسه ، وجاوز الحدّ على أحسن رسم أنسه ، لملئتَ فرحا وسرورا ، وكيف لا وقد انتهى أمر مشيخة الإسلام ، ورئاسة الأمر والنهي بين العلماء الأعلام ، إلى حضرة ذي المجد الذي لو لبست حليته الليالي لقامت لها الحِرباء[1] تترقب ، والفخر الذي لو حاز الفجر بعض ضيائه لما وُجد إلى أن تُكوّر الشمسُ وتُموّر الجَرباء[2] : غيهب ، المولى الذي لم يدع منقبة في الكمال إلا حازها ، ولا مرتبة في الجمال إلا جازها ، ولا مكرمة إلا امتطاها ، ولا فضيلة إلا منه مبدؤها وإليه ـ وربّك ـ منتهاها . ولعمري إن كان الكمال بدرا فهو هالته ، أو كرةً فهو مركز دائرته[3] ، أو خدّاً فهو توريده ، أو صُدغاً فهو تجعيده ، أو لفظا فهو معناه ، أو جسما فهو صورته وهيولاه :

قطب تدور عليه أفلاك الهدى	مذ كان يرتضع الهدى في مهده
عرش به عَلَم الشريعة ثابت	إذ قام كرسيّ العلوم بجَدّه
وسماء عرفانٍ كأن نجومه	طلعت علينا من مطالع بُرده
ظفرت يدُ الأيام منه بجوهر	قد حيّر الألباب جوهرُ فرده
نادته أعلام الأنام ، وصدقُهم	يبدو كما تبدو طوالع سعده :
ياسيدا من حيدر ومحمد	مَنْ مثلُ والده الإمامِ وجَدّه ..؟
جدّدت فينا دينَ جدّك فارتقَت	أضواؤه لّما قدحت بزنده
فروَيْت من أخباره وروَيْت من	آثاره ، وخَلَفْتنا من بعده

(١) الحرباء (بكسر الحاء) : دويبة معروفة ذات قوائم أربع ، دقيقة الرأس ، مخططة الظهر ، تستقبل الشمس نهارها وتدور معها كيف دارت ، وتتلون ألوانا شتى . وأراد هنا الإشارة إلى إشراق الليالي بولاية الشيخ .

(٢) الجرباء : السماء .

(٣) في الأصل : (ركزه ودائرته) .

قد كنت في يوم الكساء ضميةً	مخبوءةً في ظهر أكرم وُلْده[1]
مازال يعبق منك نشرُ عبيره	حتى شممنا منك ريحةَ ندّه
طوبى لقد قرّت وإن بَعُد المدى	عينٌ لنعمانِ الإمام بمَجْده[2]
لو كنتَ في أيامه لحللتَ في	سوداء سؤدده ومهجةِ وجْده
لكنّما أُخّرت كي يبقى له	ذكر يدوم وقد ثوى في خلده

وقصارى ما يقال ، أو يخطر بالبال ، إنه لو صوّر نفسه لم يزدها على مافيه من كرم الخصال[3] ، فليس في الإمكان أبدع مما كان ، حضرة سيدي وسندي ، ومن هو بعد الله تعالى ملاذي ومعتمدي ، شيخ الإسلام ووليّ النعم ، سميّ جدّه الذي بشر باسمه عيسى بن مريم ، صلى الله تعالى عليهما وسلم .

اللهم كما أبديته شمساً في سماء شريعتك فأيّده ، وكما نوّرت به خَلَد خليفتك فخلّده ، اللهم كن له في أُولاه وأخراه ، واختر له من الخير أولاه وأحراه ، اللهم واجعلنا من أحظى الخدم عنده ، وإن كنا لا نستحق إلا تفضّلا منه : رفدَه .

هذا ولما شرب سمعي حميّاً هذا الخبر ، الذي عطر الكون من مبتداه ، وتغلغل سويداءَ فؤادي صحةُ إسناد هذا الأثر ، بلا علة توهن قواه ، تمنيت لو سعيت ولو على رأسي لتقبيل أقدام ذلك المولى ، والقيام على ساق الخدْمة بين

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب فضل أهل بيت النبي ﷺ) رقم ٢٤٢٤ عن عائشة قالت : خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مِرْط مرحّل من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء عليٌّ فأدخله ، ثم قال : [إنما يريد الله ليُذهِب عنكم الرجسَ أهل البيت ويطهّركم تطهيرا] .
المِرْط المرّحل : الكساء الموشى بنقوش على صور رِحال الإبل .

(٢) نعمان الإمام : أبو حنيفة رضي الله عنه .

(٣) إشارة إلى قول الشاعر :
ولو صوّرتَ نفسك لم تزدها ... على مافيك من كرم الخصال

الخدَمة في حظيرة حضرته العليا ، ولـه الفضل في الآخرة والأولى ، وبشرتُ نفسي حسبما اقتضاه حدْسي ، وأسررت إليها : أن سيثمر ، إن شاء الله تعالى بِحَيا ألطافه ـ دامت حياته ـ فوق أنامل غرسي ، فقد صرفت شطرا من نقد عُمري في خـدمـة كتاب الله عز وجل ، وأتعبت في تفسيره جسـدي وفكري ، وهو أعزّ من أن يصل الفكر إلى كنه حقيقته وأجل ، وقـدّمت منـه لحضرة الـدولـة العليـة ، ـ لا زالت لجسد الدولة روحاً ، ولا برحت أياديها الحاتمية ، لأبواب الآمال ، مادامت الأيام والليالي ـ مفاتيحاً ، في كل عـام أو عـامين سفرا ، راجيـاً في الـدنيا والآخرة برّاً وأجراً ، فما زالت أيادي الدولة العدلية والجيـديـة تغشـاني ، وترفع لإحيـاء رسوم العلم في أقصى حدود الممالك المحروسة شأني ، فها أنا شاكر هاتيـك الأيـادي ، ذاكر في كل محفل وناد ، مستزيد بشكريها ، رتبـةً فوق الرتبـة التي هـذا العبْـدُ فيهـا ، وهو وإن لم يكن أهلاً فالدولة العليّة ـ أيدها الله تعالى ـ لذلك أهل ، والإحسـان في نفســه حسن نفيس أينما حــل ، وقــد جعلت السِّفْر الســادس من التفسير[1] وسيلتي ، واعتمـدت بعـد اعتمادي على فضل الله تعـالى على حسن ظني بحضرة المولى وصدْقِ عبوديّتي ، فكم قـد رفع ـ رفـع الله تعـالى عنـده قـدره ـ قـدْرَ أمثـالي . ! وكم . ! وكم . ! وحل ببنانِ نعَمه إشكال أشكالي ، وهكذا فليكن شأن وليّ النعم . وأعوذ بالله جلّ وعلا أن أحرم منه برّاً ، وهو العالم البَرُّ الذي شاع علمـه وبِرّه بحراً وبَرّاً .

حـلَّ السماكَ ومـا حَلّت تمـائمـه   عن رأسه وحبا العـافين منذ حبا[2]

فلا بدع إن أناخت نفسي رواحلَ الأمل ببابه ، واستمْرت في ساحة أفضالـه غرسي بوابل سحابه :

يسقـط الطير حيث يلتقـط الحب ، ويغشى منـازلَ الكرمـاء

(١) يعني كتابه في التفسير المسمى بروح المعاني وهو اثناً عشر مجلداً كا ذكرنا في مقدمة التحقيق .
(٢) حبا : الأولى بمعنى أعطى ، والثانية من حَبْو الوليد .

والمرجـو من المراحم العليـة ، والأخـلاق المحمـديـة ، العفـو عمـا وقـع لي في التفسير من الأوهام ، والأخذ بيدي إذا كنت عاثراً في ذلـك الميـدان الـذي لم يزل مزدحم أفكار ذوي الأفهام ، وإني وإن لم أكن من فرسانه . ولا ممن تعده الأبطـال من شجعانه ، إلا أن حبّ التشبّه دعاني لذلك ، وحداني لسلوك هاتيك المسالك :

إن لم تكـــونـــوا منهم فتشبهـــوا   إنّ التشبّــــه بــــالكرام فــــلاح

وعلى العلاّت فأنا طفل العلماء الأعلام ، وما لطفل العلماء سوى حضرة شيخ الإسلام ، فبشرى لنفسي وللمسلمين بأيـاديـه ، ودُرر منـاقبَ ـ لله تعـالى درّهـا ـ جُمعت وختمت فيه ، وله ـ أيّده الله تعالى ـ مني مادامت الحياة : الـدعـاءُ ، وأنـا العبد الداعي في نشر مطويّ الثناء عليه (محمود وأبو الثناء)[1] ، وأحمـد الله تعـالى على نعمه التي عمت جميع العوالم ، وأصلي وأسلم على نبيه البيّنة الفاتح الخاتم .

انتهت العريضة بطولها ، وأنّى تستطيع أن تستوعب فضائله بفصولها .. ؟

وقـد كنت تـوسلت في إرسالهـا مـع سِفْر التفسير إلى حضرتـه المجللـة بعظيم البهاء ، بحضرة المشير والدستور الكبير نجيب بـاشـا الوالي إذ ذاك في الزوراء ، فلم يأتني منهـا علم ولا خبر ، وغُمَّ عليّ هلالُ أمرهـا فلا عين ولا أثر ، حتى وصلت في سَفَري هــذا إلى حضرتــه ، وتشرّفت بلثم أذيــال منصّتــه ، وجسّرتني أخـلاقـه الأحمدية على السؤال ، واستكشاف حقيقة الحـال ، فقـال ، إنها لم تصل إليّ ، ولا ذكرها أحد لدي ، فإن كانت مثبتة عندك فأرينها ، لأقف على ماحررت فيهـا . فكتبتها وعرضتها ، فكأنه ـ سلمه الله تعالى ـ أعجبه جودة تهـذيبهـا فعزم على أمر بعض الوراقين بتذهيبهـا ، فعلمت أن حضرة المشير المشـار إليـه لم يرسلهـا إليـه ، لأمر مُرّ أضره عليّ وطوى جنبيه عليه ، وقد أظهر بعدُ ماأضمر ، ـ عفا الله تعـالى

(١) يستغل المؤلف اسمه هنا بديعياً .

عنه وغفر ـ ، ماأعلن وماأسرّ ، فكل شيء بقضاء وقدر ، وأحمد الله تعالى كما حمدته فيا تقدم ، على أن صار ذلك سبباً لوصولي إلى حضرة مولاي وليّ النعم ، وفوزي منه بلثم يد وقدم ، وداعياً لسفر ظفرت فيه بحقائب عجائب ، ماكنت أظفر بإحداها لولا ذاك في أحقاب ، ودقائق أسرار لا يستطيع بنانُ البيان أن يدوّن أدناها ـ والقلمِ الأعلى[1] ـ في كتاب .

وقد كنت كتبت لحضرة المولى غير هذه العريضة ، لكن أظن أنها شُقّت[2] فلم تنشقْ نشرَ رياض سدته الأريضة ، نعم أوصلوا إليه جواب كتابه الذي دعاني به إلى إسلامبول ، إلا أنه قد قدمنا من كان في ذلك الرسول .

[بعض أشعار الشيخ]

ولم يزل ـ حفظه الله تعالى ـ وهو على منصة المشيخة العظمى ، التي هي بلا خلاف أخت الخلافة الكبرى ، يلاطف الكبير والصغير ، ويؤنس الغنيّ والفقير ، ويلقى بالبشر من أقبل إليه ، ويمنع المقبل من تقبيل أذياله أو يديه ، يكلم كل جليس بلغته ، وما أفصحه أداءً في تركيته وعربيته وفارسيته . ! وله في اللغات الثلاث شعر نفيس ، يلهو به النديم عن تعاطي كؤوس الخندريس ، وقد قدمنا بعضاً منه ، ولنذكر بعضاً آخر حيث لا غنى عنه ، مقتصرين على العربيّ حسب أمره ، ومن أراد غيره فليرجع إلى دواوين شعره ، فمن ذلك قوله :

يا من يروم الحرْزَ في أوقاته ... منْ كل شيطان وذي سلطان
اخترْ كلام الله جلَّ جلاله ... فالخير كل الخير في القرآن

(١) هذا قسم بغير الله .
(٢) في الأصل : (إنه شق فلم ينشق) ، والمقصود أن عريضته قطعت ولم تصل لشيخ الإسلام .

وقوله :

إذا مادهتك النائبات بوقعها ... وضاقت عليك الأرض من كل جانب
فصلّ على خير الأنام محمد ... وذلك درياقٌ لجرح النوائب
عليه صلاة الله ثم سلامه ... مدى ماتجلّى البدر وسط الغياهب

وقوله :

يا من يهم متيّماً يشكو[1] النوى ... بوصال من قد خصّ[2] بالآيات
اختر لنفسك منهج الصلوات كيْ ... تهدى له بدلائل الخيرات

وقوله ، وقد كتبه على الرائية المسماة بجالية الكَدر ، نظم أسماء أهل بدر[3] ، رضي الله تعالى عنهم ـ للعلامة السيد علي البرزنجي المدني عليه الرحمة :

أصحاب بدر عمَّهم أنس الرضى ... أسماؤهم تحوي الفوائد كالمطر
فالْزَم قراءتها فإنك تجتلي ... في مدلهمّ الخطب جالية الكدر

وقوله ، وقد كتبه عليها أيضاً :

أصحاب بدر من تلا ... أسماءهمْ في النُّوب[4]
يُكْفَى الأسى فإنها ... جاليةٌ للكُرب

(١) في الأصل : (بشكوى) .
(٢) في الأصل : (قض) والذي خصّ بالآيات هو الرسول ﷺ .
(٣) جاء في ملحق التراث بجريدة المدينة ـ رجب ١٤٠٢ هـ العدد ٥٥٣٣ : (جالية الكدر بذكر أسماء أهل بدر ، وشهداء أحد السادة الغرر) ، وأن صاحبها العلامة المؤرخ السيد جعفر بن حسن بن عبد الكريم البرزنجي ، وعدد أبياتها ١٩٣ بيتاً ،. ضبطها وشرح غريب ألفاظها وعلق عليها فضيلة الدكتور السيد محمد علوي مالكي الحسني ، وصدرت عن دار السقاف للطباعة والنشر والتوزيع ، في سرابايا بأندونيسيا .
(٤) لم يصح شيء في هذا الباب على مانعلم . رضي الله عن أصحاب بدر أجمعين .

عليهم الرضوان ما جرت دموع السُّحب

وقوله ، وقد كتبه على رسالة في المولد الشريف :

من أمالي مولد الهادي الأمين … شنّف الأذهان بالدرّ الثمين
تنشرح صدرا وتظفر بالمنى … حيث وافى رحمة للعالمين
فعليه وعلى الآل وصحـ … ـب صلاةٌ وسلام كلّ حين

وقوله :

تُخفّف عاتقي جمراتُ نار … على الكانون : من ثقل الكساء
ويحلو حسنُ منظره لعيني … لأن النار فاكهة الشتاء

وقوله :

ترحّلْ ولو من بين قوم أقارب … إذا ما بدت أفعالهمْ كالعقارب
فإن لم تجد طرق الخلاص فلُذْ إلى … كريم له يسعى لديغُ النوائب

وقوله :

يجري الزمان كماء من ذوي عجَب … وإنّنا بسيل السيل كالحطب
من ذا الذي حاول العيش الهنيّ فلم … يفجأه ما يختشي من طارق النوب ؟

وقوله في الشيب والشباب :

ليلُ الشباب تولّى … وصبح شيب قد وجب
وأنت من نوم الهوى … لم تنتبه ، ياللعجب . !

وقوله أيضاً :

أشبابي ، أكنت ماضيَ سيف … أو وميضَ البروق بين الغياهبْ
غبت أو لُحتَ بين لمحة طرْف … عوضني منك صبحُ حسن العواقب

وقوله أيضاً :

مدى ليل الشباب رقدت لهواً … وعِيسُ الدّهر بالأعمار تَخدي
فأيقظني صباحُ الشيب لكن … على ما فات حزني ليس يجدي

وقوله ، وما أنطقه أيضاً :

قميصَ دجى شبابي شَقّ دهري … وكنتُ به أواري كلّ ضير
فمن كل الجوانب لاح شيبي … فأرجو أن يكون صباح خير

وقوله أيضاً :

تحمّلت من دهري أسىً لا أطيقه … مدى العمر حتى الشيب ، والشيب مُضعف
فأضحى بذاك الحمل قدّي مقوّساً … وقد كان مثل السهم ، والله يلطف

وقوله أيضاً :

ولما شعرتُ الشيبَ عظميَ مُوهيا … فأمسى دجى البلبال ملقىً على بالي
فواجهني شَعْري بذا الشِّعْرِ ضاحكاً : … (ألا عِمْ صباحاً أيّها الطلل البالي)[1]

وقوله أيضاً :

زمان شبابي (كنت)[2] في كل معهد … أرى الدهرَ طلْق الوجه بالبشر يبسمُ
فلما بدا شيبي وأصبحت ذا عَناً … أرى قلبه يبكي عليّ ويرحم

وقوله أيضاً :

كأنك إذ وافى المشيبُ مصبّحاً … وقد زاح من ليل الشباب ظلامه
ترشّف كاس العمر عذباً مروّقاً … فأبدى بياض الجيد مسكاً ختامه

(١) هذا الشطر لامرئ القيس ، فهو تضمين .
(٢) مابين قوسين زدناها للوزن والمعنى .

وقوله :

سقيا لليلة أنس قد سهرت بها ... في سكر وجد ونامت أعين النُّوب
كأنما الجو والبدر المنير لها ... ساقٍ وفي كفه كأس من الذهب

وقوله :

أمالت غصون الروض أيدي النسائم ... على نرجس فيه الذبول مراقب
فصارت لوجه الأنس تنظر للربا[1] ... عيونامراضا جمّلتها الحواجب

وقوله :

أيدي النسيم بأغصان الربا لعبتْ ... فحلية الزهر من لباتها سقطت[2]
خافت ضَياعا فمالت كي تناولها ... ثم الصَّبا صدّها بالذيل فاضطربت

وقوله :

خلتُ الغصون الزاهرات إذا انثنت ... من فوق درع لاح كالديباج
سُفناً على بحر الزمرّد حِمْلها ... دُرَرٌ قد اضطربت من الأمواج

وقوله :

ياليلة سلفت بإخوان الصفا ... في طيِّ روض بين نشر أقاح
قنديلها كأس يدور ، وزيتُها ... راحٌ يجلي الروحَ بالأفراح
لو أستطيع - وحقِّ ليلة مغرم[3] - ... لفديتُ غيهبها بألف صباح

(١) في الأصل : (منظر الربا) . ولكنّ الوزن يختل .
(٢) في الهامش : (وجبت) .
(٣) قسم بغير الله .

وقوله في الشمع :

كأن الشمع غصن من لجين ... تفتح فوقه نور النُّضار
وينشدنا الفَراش على ذُراه ... بمنطق حاله مثل القماري :
(تمتّعْ من شميم عرار نجد ... فما بعد العشيّة من عرار)[1]

وقوله :

ويوم من مواهبه أُديرت ... علينا للسرور كؤوس خمر
رشفنا صِرْفها بأكُف أُنس ... ألذّ من الوصال عُقَيْب هجر

وقوله :

سقت أيدي النسيم غصونَ بانٍ ... حميّا الطّل في كأس الأزاهرْ
فمال قدودُها من فرط سكرٍ ... تخبّط[2] في الميامن والمياسر

وقوله في وصف مجموعته[3] :

كأن مجموعتي روض يعطّره ... مسكُ المداد على كافور قرطاس
تهتزّ أشباح أغصان اليراع بها ... مما لذي الفضل من أرواح أنفاس

وقوله :

ولما تثنّى قدُّه وهو مُفْرَدٌ ... وللحَلْي رنّات تهيّج أشواقي
تذكّرت غصناً حرّكته يدُ الصّبا ... وقد هتفت من فوقه ذاتُ أطواق

وشطّر هذا ، الفاضلُ الذي أُعطي شعرَه شطر الإعجاز ، وشاطر فضلاء

(١) البيت للشاعر عبد الله بن الصمّة القشيري فهو تضمين .
(٢) في الأصل : (يخبط) .
(٣) في الأصل : (مجموعة) والبيت الأول يدل على أنها مجموعته الشعرية .

العصر بلطافة الإطناب والإيجاز ، الشيخ محمد أمين الزيْله وي المدني ـ تغمده الله تعالى بلطفه الهنيّ ـ فقال :

(ولما تثنى قدُّه وهو مُفْرَدٌ) بجمع البها ضمّيتُه ضمّ مشتاق
ومنذ بدا والقلبُ يرقص فرحةً (وللحَلْي رنّات تهيّج أشواقي)
(تذكّرت غصناً حرّكته يد الصبا) فمال اختيالاً في غلائل أوراق
وعُطِّرت الأرجاءُ من نفح طيبه (وقد هتفت من فوقه ذات أطواق)

وشطّره أيضاً الفاضل الشيخ عليّ الساداتي[1] فقال :

(ولما تثنّى قدُّه وهو مُفْرَدٌ) وأيقظ طرفٌ ناعسٌ شجْوَ مشتاق
وماس كغصن البان ليناً قوامُه (وللحَلْي رنّات تهيّج أشواقي)
(تذكّرت غصناً حرّكته يد الصبا) فأهدَى شذا عطرٍ إلى قلب عشّاق
زهت في رياض الأنس أثمارُ ينْعه (وقد هتفت من فوقه ذات أطواق)

وقوله مضمّناً :

إذا ما صفا أُنس وهنّيت بالطّلا وحيّاك نشر المسك من طيّ شمْأل
فبيْنَ عذار الحِبِّ والآس من ربىً (تنقّلْ فلذّات الهوى في التنقّل)

وقوله :

سَمْريّ[2] القدّ لمّا اهـ ـتزّ قد قامت قيامة
وظبا لحظيه قد سلّ على شرْب مُدامة
فإذا صال دلالاً فاسأل[3] الله السلامة

(١) الشيخ علي الساداتي : لم أعثر على ترجمته .
(٢) سمري : نسبة إلى السَمُر (بضم الميم) ، وهو ضرب من شجر الطلح ، واحدته سمرة .
(٣) في الأصل : (نسأل) .

وقوله :

لبستْ ثوب نشاط بين الرياض البواسمْ
أكمامه من زهور أذياله من نسائم

وقوله ، وأبدع :

أبرْقع منظرَ المرآة عنه مخافة أن تثنّيه لعيني
أقاسي ما أقاسي وهو فذّ فكيف إذا تجلّى فرقديْن

وخمّسها الفاضل الشيخ عبد الرحمن الصفتي فقال ، وهيهات .! أين الجزْع[1] من اللآل ..؟ :

غدوتُ مطيعَ مَنْ للحسن كُنْهُ أكون مُرادَه إذ قال : كُنْهُ[2]
ومِنْ ولهٍ أغارُ عليه منْه (أبرْقع منظرَ المرآة عنْه
مخافة أن تثنيه لعيني)
لسانُ ملامةٍ في الحب يَبْذو[3] وقومٌ عن قياس الوجد شذّوا
ومن ألمي ـ على أنّي ألذّ ـ : (أقاسي ما أقاسي وهو فذّ
فكيف إذا تجلّى فرقدين)

وقد رأيت بالفارسية ما يرشح عليه شيء من هذا المعنى ، وهو قول القائل :

أحْوَل خَواهَمْ دوچشْمِ وحدَبْ پيْرزا تا آنْكه بيِكْ نَظَرْ دو بارَتْ بيِنَمْ

وقوله :

تجلو بكأس الثغر خمر اللّمَى منه جنونُ السكر فينا فنون

(١) الجزع : الخرز .
(٢) كنة : الأولى اسم بمعنى حقيقة الشيء ، والثانية فعل أمر من كان وخبرها ، فهو جناس .
(٣) يبذو : مضارع بذو : أي أفحش في منطقه .

بـالله يـاظبيـة قـاع الحشـا[1] ... لاتسلي لبّي بسُكرِ العيـــون

وقوله :

يـــانـــاظريَّ تنزّهـــا ... بين الســـوالف والخـــدود
واستنشقـــا من ذي الربى ... نفحـــات آسٍ والـــورود

وقوله :

قـــال : تختـــار ريـــاضـــاً ... بعـــد هجرانٍ .؟ وَدُودي .!
قلت : عن خـــدّيـــك شمَّـــا ... أتسلى بـــالـــورود

وقوله :

زارني والثغر تُجْلَى ... بلَماه كأسُ راح
ولِجُنـــح الليـــل مسْـــكٌ ... فـــوق كافـــور الصبـــاح
وريـــاض الأنس من خـــدّ ... يْـــه تـزهـو بـــأقـــاح
ولـــدُرّ الطّـــل عِقـــدٌ ... فـــوق أجيـــاد الأقـــاحي
والصَّبـــا جرّ ذيـــولا ... فـــوق آكام البطـــاح
وتثنّى مـــزهرات الـ ... ـغصن في أغلى الـــوشـــاح
ولنشرِ الروض سرّ ... شـــاع من طيّ الريـــاح
وعيـــونَ الروض قـــد أيـ ... ـقـــظ وَرْقٌ بصيـــاح
رشـــأ يرْمُـــق بـــالبيـ ... ـض ويمشي برمـــاح
يقتـــل الصب ولـــوْ هُـــو ... أســـد شـــاكي الســـلاح[2]
يبـــدُر البـــدرَ بجُنْـــح الشّـ ... ـعْر منـــه بـــاتّضـــاح[3]

(١) كذا في الأصل .
(٢) أي أن هذا الرّشأ يقتل الصب ولو كان أسداً .
(٣) يبدر البدر : يسبقه .

ثمِـــلَ الطرْفُ ومنـــه ... صَـــاحِ قلبي غيرُ صـــاح[1]
قلت : أهـــلاً بـــأعـــزّ ... من صَبَـــاح وصبـــاح
ليت يـــانشـــوةَ كأسي ... من لمَيّـــاك اصطبـــاحي
ليتَ تَشري عُمْر صَبٍّ ... مستهـــامٍ بـــالكفـــاح
مهجتي القَرْحى جريـــحُ الـ ... حبّ من غير ســـلاح
مرهمُ الكافـــور من جيـ ... دك يعطى لجراحي
فطـــوى كشـــحَ دلال ... بين جـــدٍّ ومـــزاح
ورنـــا والغيـــظَ من لحـ ... ظَيـــه يسطـــو بصِفـــاح
قـــال : فـــاعـــذرني ولَـــوْ لي ... الـــذنبُ يـــاخِـــذْنَ السَّماح
هـــل على الجنـــون-أفتـــو ... نـــا-لـــديكم من جنـــاح.؟
هـــل نسيتَ العهـــد أم[2] ذا ... أبـــدا دأب المـــلاح.؟
بينـــا نحن على ذاك التّـ ... ـقـــاضي والتـــلاحي
فتنبّهت على الصبـــح ... وقـــد لاح فـــلاحي

وقوله :

أضعتُ فقْـــد شعـــوري ... بجُنْـــح تلـــك الشعـــور[3]
قلبي عليـــه ينـــادي ... إلى صبـــاح النشـــور

وقوله :

ولـــا بكت قمريّـــة في أراكـــة ... بعقـد اللوى بين الطلول الـدوارس

(١) صاحي الأولى : منادى ياصاحي . والثانية من الصحو . وهي في الأصل : (ليس صاح) ، والمناسب : غير ، لأن ليس تستوجب النصب .
(٢) أم العاطفة لاتأتي بعد هل ، ولكنه خطأ شائع .
(٣) الشعور : جمع شَعَر .

تذكّرت حيّاً طاب عيشي بأنسهم … وصاروا بقلب الدهر مثلَ الهواجس
فأطلقت من قيد الجفون مدامعي … وكان بكف الفجر طوقَ الحنادس

وشطّر هذا بعض الأجلّة بما يوشك أن يكون مثله، فقال، ناسجاً على أحسن منوال:

(ولما بكت قمريّة في أراكة) … كأغيدَ ملتفٍّ بخُضْر الملابس
شمائلُه تحكي الشمول[1] إذا سرَتْ … (بعقد اللوى بين الطلول الدوارس)
(تذكرت حيّا طاب عيشي بأنسهم) … وسار بقلبي أفعوانُ وساوسي[2]
لقد طوقوا جيدَ الزمان قلائدا … (وصاروا بقلب الدهر مثل الهواجس)
(فأطلقت من قيد الجفون مدامعي) … مسلسلة عن رواية قابس
وكم ليلةٍ أحييت وهي تَميتُني … (وكان بكف الفجر طوقَ الحنادس)

وقوله وقد أجاد:

إذا ماجَنّ ليلُ الهمّ يوماً … وضاجعك العناءُ ولا يراح
ترقّبْ تجتلي فرجاً قريباً … فهل ليلٌ وليس له صباح.؟

وقوله :

إذا مادهتني طارقاتٌ شدائد … وطال عليَّ الليلُ، والصبحُ نازح
وضاجعني كرْب، وسامرني القنا، … وزنْد الأسى بين الجوانح قادح
لجأت إلى باب الكريم وكم له … لمثليَ من كشف الكروب سوانح

(١) الشمول : من أسماء الخمرة .
(٢) في الأصل : (وقلبي) .

وقوله :

تصبّر، ففي الصبر النجاةُ من الردى … وفيه بمقطوع النصوص بشائر
وإن كنت عن نيل المطالب عاجزاً … وعن قَصمة الأعداء، فالله قادر

وقوله :

طالما يرجو الفتى نيلَ المنى … وأكفّ الحظ منه في قِصَر
ربما صبّحه الخير الذي … نام عن مسراه في فرْش الخَدَر
وأمور يتّقي من شرها … في تمنّيها مدى العمر سهَر
إنما التسليم مجد للورى … كلُّ أمر بقضاء وقدَر

وقوله:

خالِق الناس بخُلق حسن … مثلَ ماأبديتَ: منهم تقتبس
إنما الناس كمرآة فلا … يُجتلَى فيها سوى ماينعكس

وقوله :

أظهر بشاشةَ وجه أو تعبُّسه … وانظر[1] إلى صفحة المرآة وافتكرنْ
فيها مثالك مع ناس تعاملهمْ … فاختر لنفسك منه ماتراه حسن

وقوله :

تهذّب وهو أفخر مايباهي … بحِلْيته الرجالُ لدى الرجالِ
وكم متجمّل بثياب فخرٍ … يدنّس ذيلَه سوءُ الفعال

(١) في الأصل : (فانظر) .

وقوله :

تآخيت[1] طول الدهر قوماً أماجدا … فألفيت كلاً فوق ما يرتجي المنى
سوى أنهم لم ينفعوا عند شدتي … وعند رخائي كنت عنهم على غنى

وقوله :

ولو كانت الأقدار تسعف بالمنى … وساعدني دهري وحاولني الهناءْ
فلا ـ وبقاء الله ـ لا أستلذّها … إذا كان غايات الجميع إلى فناء

وقوله :

في حيّ ليلى لُيَيْلات لنا سلفت … نرعى النجومَ وطرفُ الدهر نعسان
منها لأوقات عمري منظرٌ حسن … كأنهن بوجه الدهر خِيلان

وشطّر هذا مولانا السالك من مناهج الفضل المنهجَ السويّ ، ذو الخلق الحسن حسن أفندي المدني البوسنويّ[2] ، فقال ، وأجاد في المقال :

(في حيّ ليلى لُيَيْلات لنا سلفت) … سوادهن لعين الأُنس إنسان
كم من وجوه الصفا بتنا بأعينها … (نرعى النجومَ وطرفُ الدهر نعسان)
(منها لأوقات عمري منظر حسن) … له[3] تطلّع ما عمّرتُ أعيان
ألوانها عين حبّات القلوب بدت … (كأنهن بوجه الدهر خِيلان)

وقوله :

إن الزمان يعادي من له شرف … قواه عند أولي الأنظار برهان

(١) في الأصل : (تواخيت) ، ومعنى تآخيه معهم : أنه اتخذهم إخواناً له .
(٢) البوسنوي : كان حيّاً بالمدينة إلى مابعد سنة ١٢٤٧هـ ، وله ديوان مخطوط في ملكية أحد أحفاده ، وقد نسخته تمهيداً لمعالجته ونشره إن شاء الله .
(٣) في الأصل : (لم) والتصحيح من الديوان .

فللشموس زوال حيثما ارتفعت … وللبدور إذا يكملن نقصان

إلى غير ذلك ، من درر تضيء بها الحوالك ، ومحكم أبيات على نمير فكره الوقّاد أبيات[1] :

إذا أُنشدتْ في القوم ظلّت كأنها … مسرّة كبْر ، أو تداخلها عُجْبُ
مفصلة باللؤلؤ المشَقى لها … من الشعر إلا أنه لؤلؤ رطب

[بعض تشاطيره]

وله ـ أدام الله تعالى عليه فضله ـ جملةُ تشاطير ، أخذت الحسن كله دون تشطير[2] :

مصقولة الألفاظ يلقاها الفتى … من كل جارحة بسمع واع

وقد امتزجت بالأصل امتزاج الماء بالراح ، وأحيته بحَيا معانيها إحياء الأرواح للأشباح ، بل لعمري لا يقدر الوهمُ لقوة الوصل على الفصل ، ويعجز الفهم عن التمييز بين التشطير والأصل ، فمن ذلك قوله :

(يارب مازال فضل منك يشملني) … فضل كما يشمل المجروحَ مرهمُه
وكم جبرت قديماً كسرَ معضلة … (وقد تجدد بي ما[3] أنت تعلمه)
(فاصرفه عني كما عوّدتني كرماً) … حاشاك مستمنحَ الآلاء تحرمه
والكلُّ مثلي إلى جدواك مفتقر … (فمن سواك لهذا العبد يرحمُه)

(١) أبيات : (الثانية) : بيوت مغلقة لا يستطيع ولوجها غيره .
(٢) دون تشطير : دون تقسيم ، فلا يشاركها غيرها في الحسن .
(٣) في الأصل : مما .

وقوله :

(إذا كنت في أمر وضقت بحَمْلـه)　　وضاقت عليك الأرض وانسدّت الفَرَجْ
وأضحى بقيد الهم قلبُك موثقاً　　(وأصبحت في عسر وأمسيت في حرَج)
(فصلّ على المختار من آل هاشم)　　ومنْ نورِه جنح الظلام قد انفرج
وواظب عليها بكرة وعشية　　(كثيراً فإن الله يأتيك بالفَرَج)

وقوله :

(أرى آثارهم فأذوب شوقاً)　　بنار أوقدوها في ضلوعي
وألثم بالجفون ثرى حماهْ　　(وأسكب في مواطنهم دموعي)
وأسأل من بفرقتهم رماني　　ففرّق بين جفني والهجوع
يرجّع مهجةً أسروا وإلاّ　　(يمنّ عليّ منهم بالرجوع)

وقوله ، وفي الأصل مافيه ، كما لا يخفى على بنيه :

(بنو الزمان لئام)　　فلا إخاءَ لديهمْ
ولو بألف يمين　　(لا تركنَنَّ إليهم)
(فإنهم قوم سوء)　　والصدق في شفتيهم
تأبطوا الشر طرّا　　(لو اطلعتَ عليهم)

إلى غير ذلك مما تقدم بعضه ، فعطر هذه الأوراق روضه .

[بعض تخاميسه]

وله أيضاً تخاميس ، تزري بأجنحة الطواويس ، وتتمنى السبعُ السواري ، أن تكون في أفلاك محاسنها جواري[1] ، فمن ذلك قوله :

(1) الذي دعاه إلى عدم إظهار حركة الإعراب هو السجع .

لي ورا[1] النطق مقال　　ضاق لي فيه مجال
حيث أهل الحق قالوا :　　(إنما الكون خيال)
وهو حق في الحقيقة)
مذهب القوم ملا ذا　　قد تجد فيه لذا ذا
والذي خالف هاذى[2]　　(كل من يعرف هذا)
حاز أسرار الطريقة)

وتقدم أيضاً من ذاك ماتقدم ، فتذكر ما في العهد من قدم .

[بعض تقاريضه الشعرية]

وله تقاريض على بعض الكتب نظماً ونثراً ، وقد نالت بها هاتيك الكتب على ماسواها عزّا وفخرا .

فمن ذلك نظماً ، ما كتبه على مجموعة (روض المعارف المعطار) لفرد أهل عصره الشيخ حسن العطار ، وهو قوله :

سفينةٌ كخضم البحر[3] ذا سعة　　يستخرج الفكرُ منه حاليَ الدُّرر
أو روضُ أنس زها في منظر حسن　　عطّار منثوره يسمو على الزَّهَر

فإنه أراد بالسفينة : المجموعة ، وإطلاقها عليها شائع في ديار الروم .

ومنه ما كتبه على شرح التلخيص المشهور بالمطول ، للعلامة الشامي ذي الباع الأطول ، وهو قوله :

(1) لي ورا : لي وراء ، وقصرها للوزن .
(2) ملا ذا : ملأ هذا . لذا ذا : لأجل هذا . هاذى : من الهذيان .
(3) ذا سعة : قد يكون نصبه على الحالية مؤولاً له بالمشتق .

بيـان المعـاني في بـديـع مبـاحث　　بمختصر إن رمتَ أو بـالمفصـل
فيُهـديـك كتْبَ السعـد سيّـدِ عصره　　وذلـك تمحيص الجـواب المطـوّل

ومنه ماكتبـه على (ريـاض الصـالحين) ، لوليّ الله تعـالى بلا نزاع ، ومحرر مذهب الإمـام الشـافعي بلا دفـاع ، شرف الـدين أبي زكريـا يحيى النووي عليـه الرحمة ، وهو قوله :

طيب أنفـاس النـووي　　ي لقـد أحيـا قلـوب العـارفين[1]
رشـحُ أقـلام لـه يحكي النـدى　　وبـه تـزهـو (ريـاض الصـالحين)

ومنه ماكتب على (قلائد العقيان) وهو قوله :

فتـح بن خـاقـانٍ يعطّر قبره　　بـالـدُّر قَطْر سحـائب الغفران
أبـدت جمـال القرب منـه مجلّـةٌ　　شرُفت محـاسنُهـا بكل معـان
وبهـا تبرَّج جيـدُ دهر عـاطـل　　متحليـاً بقـلائـد العقيـان

ومنه ماكتبه على مفتاح السكاكي ، وهو قوله :

تبصّر أيهـا الغطريف هـذا　　كتـابٌ جـامـعٌ نُكَتَ الفهـوم
فـإن رمتَ الـوصـول إلى المـزايـا　　يـدلّـك راشـداً مثـلَ النجـوم
وإن تبـغ الـدخـولَ بفتـح فيض　　فمفتـاحٌ لأبـواب العلـوم

ومنه ماكتبه على القاموس وهو قوله :

إنمـا القـامـوس بحر زاخر　　عنـد أربـاب اللغـات ، الأبحر
من يغص فيـه يجـد درّاً ، وكم　　يُلتقى فيـه صحـاحُ الجـوهر

إلى غير ذلك مما مرّ بعضه أيضاً وحلا ، وعلا - وجلالته[2] - درُه وغلا .

(١) كذا في الأصل ، مع أن البيتين من الرمل الوافي .
(٢) هذا قسم بغير الله .

[بعض تقاريضه النثرية]

ومنه نثراً : ماقرظ به (القواعد العثمانية ، في اللغة التركيـة) ، تـأليف فؤاد صدر الكمال ، وعين أعيـان الرجـال ، ذي النجـابـة التي يكلّ لسـان القلم عن حصرها ، والفكرة التي يبهر نجوم الآراء سناءُ سنى بدرها ، حضرة فؤاد بك أفندي المستشار شرح الله تعالى صدره بعوائد أنواع المسارّ ، والفـاضل الـذكيّ ، والفطن اليلمعيّ[1] ، العالم المهذب ، وعيْلم[2] الفضل الأعـذب ، ذي الخلق العطر النـدي ، أخي وحبيبي أحمد جودة أفندي[3] ، وسنذكره إن شاء الله تعـالى في (.......)[4] حيث أني ممن أنست به من فضلاء (......)[5] ، وقـد ألّفـا بحسب الاشتراك ذلـك الكتاب ، فأتيا بما استحسنه ذوو الألباب ، وعرضـا ذلـك على حضرة وليّ النعم ، فجعله بتقريظه النيّر كنار على علم ، فقال مانصه :

مبسملاً ومحْدلاً (....)[6] اللهم غبطاً لاهبطاً ، وبعد :

لما سرحت طرَفَ الطّرْف في مسارح مسابح هـذه المجلة ، المجمّلة المبجّلة ، ألفيتها سفراً يُسفر عن فرائدِ فوائـد ، يليق أن تتحلى بها نحور الحُور ، ويكشف عن فرائـدِ قواعـد ، وضوابـط ، وروابـط ، فيما يعبر بـه عمـا يتصوّر في الضمائر ،

(١) اليلمعي : الذكي المتوقد .
(٢) العيلم : البئر الغزيرة الماء .
(٣) أحمد جودة : هو أحمد جودة باشا بن إسماعيل بن علي . مؤرخ تركي (١٢٣٨ - ١٣١٢ هـ) ، تولى الوزارة والصدارة المؤقتة ، ثم نظارة العدلية ، وتوفي بالآستانة . من كتبه العربية : (خلاصة البيان في جمع القرآن) ، وله بالتركية (تاريخ جودة) اثنا عشر مجلداً (الأعلام ١ : ١٠٨) .
(٤) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .
(٥) بياض في الأصل أيضاً بمقدار كلمة واحدة .
(٦) كلمة غير واضحة .

ويتمثـل في مرايـا السرائر ، من مقـاصـد ومرام ، وادٍ على طرف الثُّمام[1] لِسَكنـة الممالك العثمانية ، المحفوفة بالحراسة الصمدانية ، وقد قيل :

إن الكـلام لفي الفـؤاد وإنمـــا   جُعل الكـلام على الفـؤاد دليـلا[2]

فلله تعـالى در نـاسج بُرْدهـا ، وثـاقب دُرّهـا ، ونـاظم عِقـدهـا ، حيث أتى بجودة القريحةِ بمباحث يعجز عن مساجلتها سعدُ الزمان ، واستخرج بغوص الفكر من قاموس التحقيق صحاحَ جواهرَ يقصر عن منافستها مجد الأوان ، جعل المَوْلى المُولي أجزلَ الإحسان ، سَعْيَ جامعِه مشكوراً مدى الأزمان ، وحفظه من طوارق الليالي ، وأرقاه أفخرَ مراقي المعالي .

وما قرّض به نسخة (الأحكام المرعيّة في الأراضي الأميرية) ، لحضرة من هو اليوم أمين الفتوى ، والمتحلّي بمزيد التقوى ، مظهر التوفيق ، محمد أفندي رفيق ، ولعمري لو وعته الأرض لأمنًا زلزالها ، ولو أدخلته سمعَها للهت بـه عن أن تخرج أثقالها ، وهو قوله ، لا زال مالئاً مابين السماء والأرض فضله :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وضع الأرض للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحَبّ ذو العصف والريحان ، فسبحانه[3] من مفضل جزيل الإحسان .

والصلاة والسلام على من طـابت ببركتـه الثمار ، واخضرت من بقيـة وضوئـه

(١) الثمام : (بضم الثاء) : عشب من الفصيلة النَّجيلية يسمو إلى مائة وخمسين سنتيمتراً ، فروعه مزدحمة متجمعة . ومن أقوالهم : هو منك على طرف الثمام : أي قريب سهل التناول .

(٢) هذا البيت من شعر الأخطل .

(٣) في الأصل : (فسبحان) .

الأشجار[1] ، وعلى آله وأصحابه الذين أحيوا موات قلوبنا بهواطل الروايات ، فنلنا من مزارع فضائلهم حصائد الخيرات والبركات .

وبعد :

فإن خليفتنا الأعظم ، وسلطاننا الأفخم ، وليّ نعمـة العـالم ، المتحمل أعبـاء الخلافة من نوع بني آدم ، خاقـان البرين والبحرين ، خـادم الحرمين الشـريفين ، ظلّ الله سبحانه في أرضه ، مالك الربع المعمور بطولـه وعرضـه ، المتخلق بخلق : (الراحمون يرحمهم الرحمن)[2] ، المتثل بقوله سبحـانـه : ﴿ إن الله يـأمر بـالعـدل والإحسـان ﴾[3] ، السلطـان ابن السلطـان : السلطـان عبـد المجيـد خـان ابن السلطان الغازي محمود خان ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان ، خلّد الله تعالى مُلكه ، وجعل الدنيا بأسرها مِلْكه ، ولا زالت أيام دولته كالشمس وضحاها ، ولا برحت ليـالي سلطنتـه كالقمر إذا تـلاهـا ، وعسـاكره منصـورةً في مغـداهـا[4] ومسراها ، ومواهبه شاملةً للبرية أقصاهـا وأدنـاهـا ، مـاتبرّج ظهور ظَهْر الأرض رافلـة بـالخِلع الخضراء من وشي الربيع ، وتبسّمت ثغور الروض من محـاسن الصنع البديع ، لمّا اقتعد غارب سرير الخلافة ، بسط بساط الإنصاف فائقاً أسلافه الكرام وأخلافه ، وتيقظ في إزالة ظُلَم الظـالم حتى أنـام الأنـام في أمـان ، وبهرت أيـامـه كالشامة في غرة وجه الزمان ، وبالغ في الأمر ، وأمره مطاع ، بقلع شأفة[5] الجور

(١) فيه إشارة إلى كثرة وضوئه إنشاءاً وإسباغاً ، والدلالة من جهة أخرى على كثرة عبادته وإقباله على الصلاة التي جعلت فيها قرة عينه ﷺ .

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب (باب في الرحمة) رقم ٤٩٤١ ، وأخرجه الترمذي ـ أتم منـه ـ في كتاب البرّ (باب رحمة الناس) رقم ١٩٢٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) [النحل : ٩٠] .

(٤) في الأصل : (غداها) .

(٥) في الأصل : (شفة) .

والاعتساف من البلاد والضّياع ، ومد على البرايا جناح الرأفة والشفقة ، وعمهم بجزيل الإحسان والصدقة ، فمن بدائع عواطفه الهنية ، وصنائع عوارفه السّنية ، صدَر أمره الشريف بتوسيع الحقوق في الأراضي ، وكان ذلك قاصراً عن القانون الماضي ، كما يطّلع عليه من يطّلع على الصور المكلّلة المكمّلة ، في بطون هذه الجلة المجلّلة المجمّلة ، رحمة للضعفاء وفقراء رعيته ، ورغبة[1] في الثواب الجزيل ومضاعفته ، فأيّد اللهم هذا السلطان الرحيم الحليم الأفخم ، والملك الكريم السليم الأكرم ، بالفتح المبين ، والنصر على الأعداء والمشركين ، بجاه سيد المرسلين[2] وخاتم النبيين ، عليه وعلى آله وصحبه أفضل صلاة وأكمل تسليم ، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

انتهى .

إلى غير ذلك من تقاريض ، تزري بالروض الأريض :

معشوقة اللفظ تُستحلَى بدائعُها / كأن ألفاظها تحبيرُ أبراد

[بعض مساءلاته الشعرية]

وله أسئلة عن أمور معضلة ، بألفاظ يشربها السمع ، ومعان يسرّ بها الطبع ، منها ماتقدم ، وقد قدمنا جوابه حسبما نعلم .

ومنها قوله :

أيا من سار برق الفكر منه / مسير الشمس في شرق وغرب
لنا رجُل له رِجْل تقوّى / بها في مشيه بطريق غصْب
أيُفرَض غسلُها عند التوضّي ؟ / أفيدونا ، جُزيتم خيرَ ربّي !

(١) في الأصل : (ورغبته) .
(٢) سبقت الإشارة إلى مثل هذا .

وقوله :

يا أيها المفتي الذي / بعلمه له العملْ
للمرء هل شكرٌ إذا / طعام ظالم أكل ؟

وقوله :

يا أيها المفتي الذي / عِلْم الفروع له انتسب
أي احتلام يعتري / والغسل منه ما وجب ؟

وقوله :

يا بحرَ فضلٍ ماله ساحل / يقذف بالدر علينا الثمين
ما القول فيما يأخذ حكامنا / لدى القضا من حجج المسلمين ؟
وصار محصول القضا عندهم / أطيبَ من كسب بكد اليمين
منوا بما يدفع إشكالنا / لا زلتم خادمي شرعٍ مبين

وقوله :

يا بدر مغربه بشرق فضله / في الخافقين ، ذكاه مثل ذُكاء[1]
كروية للأرض من طرق الحجا / ثبتتْ ببرهان لدى الحكماء
فإذا سئلتَ ، فكيف رد جوابه ؟ / أيّ المواضع أرفع الأجزاء ؟
بيّنْ أيا رأس الجحاجح[2] في النهى / لا زلت ممتطياً ذرى العلياء

وقد ذكر لي ـ حفظه الله تعالى ـ أن كثيراً من العلماء نظموا ما نظموا في الجوابات ، ومنهم من تعذّر عليه ذلك ؛ وبالجوى بات ، وأنه قد جُمعت الأجوبة

(١) ذُكاء : (بضم الذال) : الشمس .
(٢) الجحاجح : جمع جحجح (بالفتح) وهو : السيد السمح الكريم .

فبلغت عدة كراريس ، لكن يتعسر عليه إخراجها من بين الكتب ، لضيق وقته النفيس .

وستسمع[1] ـ إن شاء الله تعالى ـ منا مفصّل الجواب ، إذا منَّ اللهُ ـ تعالى شأنه ـ علينا بالعود إلى الأولاد والأحباب ، فإن[2] ذهني قد أخذوه يوم سافرت عنهم رهناً ، وفؤادي قد أسروه ، ولم يرتضوا فداءً ولا مَنّاً ، فلا أستطيع اليوم مع هذا الضيق ، أن آتي في ذلك بنظم يليق ، ولا أستحسن الجواب نثراً ، بعد أن كان السؤال شعراً ، والله تعالى المسؤول ، لكل مأمول ، وهو سبحانه المجيب ، لدعاء الكئيب .

ثم أني ظفرت بما أجاب به بعض الأفاضل ، عن آخر ما تقدم من المسائل ، فأحببت نقله ، منبهاً على ما فيه ، وإن لم أكن أهله ، وذلك جواب مولانا ذي التحقيقات الفائقة ، والتدقيقات الرائقة ، الشيخ أحمد المالكي الشنقيطي المغربي[3] ، عن قول حضرة المولى ، وفلك المجد الأعلى : (يا بدر مغربه .. إلخ) . وكان الشيخ المومَى إليه ، هو المعنيّ بالسؤال ، وقد صدر سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف غرة شوال في المدينة المنورة ، ذات الروضة المعطرة ، على مشرّفها أذكى صلاةٍ وأزكى سلام ، تدوّر كونها على محور الاستمرار والدوام ، وهو قوله :

يا من تداول في الصِّبا تحقيقه ... كرةَ الفنون تداولَ الأنباء

(١) إذا كان الخطاب للشيخ فيحسن إضافة : (فقلت له : ستسمع .. إلخ) ، وإن كان الخطاب للقارئ فذاك .

(٢) في الأصل : (فإذا) .

(٣) **أحمد الشنقيطي :** هو أحمد بن بابا بن عثمان بن محمد بن عبد الرحمن بن الطالب الشنقيطي التجاني العلوي . مالكي أديب ولد وتعلم بشنقيط . ثم ارتحل إلى المشرق فاستقر به المقام بالمدينة المنورة . وبها توفي بعد سنة ١٢٦٠ هـ كتب رحلة ذكر فيها أشياخه ومن لقيهم من الأعلام . كما له في التصوف : (نظم منية المريد) . (الأعلام ١ : ١٠٣) .

وعلى الدوام تديرها أفكارُه ... بمضارب الإصغاء والإملاء

حتى تساوت في مراكز حفظه ... أجزاؤها المبسوطةُ الأضواء

أضواء علمٍ للزمان وأهله ... أجدى وأهدى من نجوم سماء

من كان مثلك حكمةً إلقاؤه ... يَسِم الورى بالعيِّ والإعياء

إنّي وقد ألفيتُ ما ألقيتَه ... مما ينوء بأكثر الفطناء

ما جال في كرويّة فكري ولا ... وأتت مجالاً من مدى إصغائي

لكن أقول مجارياً لهواكمُ ... في رده خبطاً على عشواء

أمّ القرى من تحتها دُحِي الثرى ... فلذاك كانت أرفع الأجزاء

وكذاك أنت أجدت من قضى[1] ... أعلى القضاة وأعظم الأحياء

هذا ولا ردَّ المسائل مُحكِما[2] ... إلا ابنَ عصمة عارفُ العرفاء

ذاك الذي إن ردّها بمقاله ... فمقالُه من معجز البلغاء

أوردَّها بفعاله فهباتُه ... عنها يقصر هاطلَ الأنواء

وإلى آخر ما قال ، عليه رحمة الملك المتعال .

وأقول :

كلامه ظاهر في إنكار كروية الأرض ، فإن أراد الكروية الحقيقية فله وجه ، وإن أراد ما يعمها والكروية الحسية فهو أشبه شيء بالمكابرة ، والإنصاف أنّ الأرض كروية بحسب الحس ، على ما بيّن في موضعه ، ولا يضر فيها الجبال بناء على عدّها منها ، لأشياء أُخَر[3] وضع عليها بعد تمام خلقها ، كما تقتضيه ظواهر بعض الآيات الكريمة والأحاديث الجليلة ، إذ نسبة ارتفاع أعظمها على المشهور إلى قطرها كنسبة سُبُع عرض شعيرة إلى ذراع في قول ، ودون ذلك في

(١) كذا في الأصل .

(٢) في الأصل : (محكم) .

(٣) في الأصل : (آخر) .

آخر ، وعليه لا يضر الوهاد أيضاً ، بل ولا الاستواء في الجلة من جهتي القطبين على ما يدعيه المحدثون من الجغرافيين ، وليس ذلك مصادماً لنص من كتاب أو سنة يحتج بها والفَرْش والمهد والدحو ونحوها ، الواردة في ذلك ، مما يجامع الكروية إذا كان الجسم الكروي كبيراً في نفسه ، كما فيما نحن فيه ، وقد نص على ذلك الإمام الرازي وغيره من الأجلة الذين تدور كرة كلامهم على محور التحقيق .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الأرض إن كانت كرويتها حقيقية ، بأن تكون الخطوط الخارجة من مركز حجمها إلى جهة المحيط متساوية ، فجميع أجزائها متساوية لا ارتفاع لبعضها على بعض ، وربما يتخيل أن الأرفع : الجزء المسامت لنقطة تقاطع الدائرة المارة بالأقطاب الأربعة ودائرة المعدل ، وهو توهم محض ، كما يعرفه من عرف معنى الكروية الحقيقية للأرض .

نعم ، إن أخذت باعتبار السُّكنة مثلاً ، فما تحت قدم كل شخص أرفع من غيره بالنسبة إليه .

ثم إنه لا ينافي تساوي أجزائها في نفسها كونُ الدحو من تحت أمّ القرى كما قاله ، أو الكعبة كما جاء في رواية ، ولا يقتضي ذلك أنها أرفع الأجزاء كما لا يخفى .

وإن كانت حسيّة كما هو التحقيق ، بأن لم تتساو الخطوط على ما قدمنا ، بل كانت مختلفة متفاوتة بالطول والقصر ، فأرفع الأجزاء ذروة أرفع جبل في الأرض ، وهو على ما قال المتقدمون من الجغرافيين : جبل ارتفاعه فرسخان وثلث فرسخ ، وقد وجد المتأخرون منهم على ما سمعت - والعهدة على الناقل - ما هو أرفع من ذلك .

والجغرافيون اليوم قد يذكر بعضهم ارتفاع البلد ، كما يذكرون طولها

وعرضها ، ويعنون بذلك ارتفاعها عن سطح البحر ، وكثيراً ما يعددونه بالأقدام ، فما على الساحل لا ارتفاع له عندهم .

وذكر بعض الأجلة في تفسير قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب ﴾[1] ، أن المراد بالمكان القريب صخرة بيت المقدس ، وهي قطعة من الجبل متصلة به إلى صخرة منفصلة ساكنة في الهواء كما هو الشائع عند العامة ، وروى فيه البرقي[2] ما روى ، مما ذكره عليّ القاري[3] في شرح الشفاء . وبالقرب : القُرْبُ من السماء ، قيل : ولذا كان العروج منها ، وهو ظاهر في أنها أرفع الأجزاء الأرضية ، إلا أنه قد يقال : إن ذلك لا يعول عليه ، لعدم ثبوت خبر صحيح فيه ، ولو سُلّم وجب تأويله إذا قلنا بمصادمة ذلك لدليل قطعي ، وفاءً بقاعدة : يؤول الدليل النقلي الصحيح للدليل العقلي الصريح ، ولذا أوّل من أوّل الآيات والأحاديث المتشابهة[4] . وذكر غيرُ واحد من علماء الحديث : أن من جملة ما يستدل به على الوضع كون الحديث مصادماً لبداهة أو حسٍّ صحيح ولا يمكن تأويله ، وكثير مما يذكره القُصّاص في أمر الأرض والسماء من هذا القبيل ، ومنه بعض ما ذكره الجلال السيوطي في كتابه (الهيئة السنية) ، بل أكثر ما ذكره فيه

(١) [ق : ٤١] وفي الأصل (يوم يسمعون الصيحة بالحق من مكان قريب) وهو خطأ .

(٢) **البرقي** : إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي ، أبو الطاهر المعروف بالبرقي (نسبة إلى برقة . بليبيا الحالية) ، من أهل القيروان ، زار الأندلس ومصر ، ومن تصانيفه : (الرائق بأزهار الحدائق) أدب وأخبار . و (شرح المختار من شعر بشار للخالديين) ، مات سنة ٤٤٥ هـ . (الأعلام ١ : ٣٠٩) .

(٣) **علي القاري** : ملاّ علي قاري بن سلطان بن محمد الهروي الحنفي . ولد بهراة واستقر بمكة ، وأخذ عن كبار العلماء كابن حجر الهيثمي ، ومن تصانيفه : (شرح المشكاة) و (شرح الشمائل) و (شرح الشفاء) الذي أشار إليه المؤلف وتوفي سنة ١٠١٤ هـ . (البدر الطالع ١ : ٤٤٥) .

(٤) مذهب السلف في المتشابه فيما يخص الأسماء والصفات : الإيمان به دون تأويل ولا تعطيل .

لا يعول (عليه[1]) ، وقد كان في جمعه ذلك على جلالة قدره كالواقدي ، حاطب ليل . ومثل ذلك فيما أرى ماذكره ابن جرير في تفسيره ، من أن أبعد الأرض من السماء أرض الأبلّة ، التي هي القرية عند بعضٍ في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ﴾[2] .. الآية . وذلك الكلام في هذا المقام واسع جداً ، ولعل فيما ذكر كفاية لمن دارت كرة فكره على محور الإنصاف وما تعدّى ، فليتأمل .

وأقول الآن : إني بعد عوْدي إلى منبت عوْدي ، ألّفت رسالة سميتها : (نزهة الألباب ، في العَوْد والإقامة والذهاب) ، ذكرت فيها مايتعلق بهذا السؤال ، وكذا مايتعلق بغيره ، بأتم مقال ، فلا حاجة بعدُ إلى إتعاب العلَم ، والله تعالى أعلم[3] .

[الإشارة إلى مجموعه الشعري]

واعلم أن كثيراً مما حررته من أشعار المَوْلى المُولي النعم ـ لازال الفضل شعاره ودثاره بين أفراد نوع بني آدم ـ قد نقلته من مجموعه الذي سماه مؤرخاً جمعه : (الإشعار بأجلّه الأشعار) ، واتفق أن أنشدني كثيراً من ذلك في مقام الاستئناس ، فأنشدته ـ لازال قلمُ فتاويه سيفَ الدولة ـ ماقاله أبو فراس ، وهو :

من بحر شعرك أغترفْ ... وبفضل علمك أعترف

(١) عليه : زيدت لحاجة السياق إليها .

(٢) [الكهف : ٧٧] وفي الأصل : ﴿ لما أتيا ﴾ وهو خطأ .

(٣) هذا يدل على أن تأليفه لكتاب (شهيّ النغم) كان بعد عودته إلى العراق ، والكتاب المشار إليه هو الذي ذكره حفيده والشيخ الأثري باسم (غرائب الاغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب) .. انظر مقدمة التحقيق .

أنشدتني فكأنما ... شققت عن دُرّ صدف
شعراً إذا ماقسته ... بجميع أشعار السلف
قصّرنَ دون مداه تقْـ ... ـصير الحروف عن الألف[1]

وقد أخبرني أن له من الآثار الأدبية نثراً ونظماً ، مالو أفرد بالجمع لكان جلداً ضخماً .

وله أرجوزة طويلة جداً أتى فيها بالعجب العجاب ، والحكم التي ماسمع نحوها حكماء ذوي الألباب ، وفيها من وصف قضاة هذا الزمان ، ماهو عليهم ـ لو يعقلون ـ أمرّ من مُرّ القضاء على الإنسان ، وقد أنشدني من ذلك ماأنشدني ، كأنه يريد بعد أن نصّبني قاضياً أن يدلّني على ماينبغي ويرشدني ، وهذا لعمري نوع من الموعظة ، فلله[2] تعالى دَرّه من عارف حكمة ماأوعظه .!

[إجازات العلماء له]

وقد أخذ حضرة المولى ، ـ أخذ الله تعالى بيده ـ في كل شؤونه إلى ماهو الأحرى والأوْلى ، صغراً وكبراً ، وحضراً وسفراً ، عن علماء أعلام ، كل منهم في حلبة الفضل إمام ، واستجازهم بأصناف العلوم فأجازوه ، ونالوا بذلك فخر روايته عنهم وحازوه ، فكم له من إجازة في الحديث ، كما هو شأن أكابر العلماء في القديم والحديث ، حيث لا تجوز الرواية بدون إجازة لكائن من كان ، كما نص على ذلك الجلال السيوطي في كتابه : (الإتقان) ، وطالب الحديث بلا سند ، على مارُوي عن الإمام الشافعي ـ غمره الله تعالى بلطفه السرمدي ـ ، كحاطب ليل ، يحمل الحطب وفيه أفعى وهو لا يدري ، ومن المعلوم أن ذلك مما لا يرتضيه الحازم السري .

(١) في الأصل : (من الألف) .

(٢) في الأصل : (فالله) .

وقال بعض الأجلة : الإسناد أعظم للإنسان[1] من أعظم الأنساب ، ومن علا إسناده كان أقرب إلى رب الأرباب ، ولذلك طالما شد أماثل العلماء الرواحل ، وطووا على مافيها من المشاق شقق المنازل ، وهجروا الأوطار والأحباب ، وواصلوا[2] الأسفار والاغتراب ، وطافوا متجردين عن مخيط الهوى : البلاد ، واعتاظوا برغي السها عن رغي سوائم عيونهم رياضَ السهاد ، فنالوا ما نالوا ، وآلوا إلى ماآلوا ، فطوبى لمن درج على مدارجهم ، وعرج في معارجهم .

ومشائخة الذين أخذ عنهم ، واقتبس - نوّر الله تعالى سرّه - منهم ، يفوقون على مائة ، وكل منهم راحلة في سَنَن الرواية ، وسباسب الدراية .

● منهم : مولانا فاضل الدنيا ، والمتوج بتاج الولاية الكبرى ، شامة مكة المكرمة ، ومورد كل مكرمة ، حسنة الفلك الدوار ، الشيخ عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول العطار[3] - عطّر الله تعالى بشذا رحمته ، زكّي روحه ، وذكّي تربته - ، وكتب مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتواتر إحسانه ، المسلسل امتنانه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير مرسل ، وعلى آله وصحبه الذين أخلصوا لله تعالى صحيح العمل .

أما بعد :

فيقول الحقير الفقير ، الذي لولا جميل ستر الله تعالى عليه ما نظر إليه كبير ولا صغير ، عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول العطار ، أقالهم الله عزّ وجل

(١) في الأصل : (من أعظم الإنسان من أعظم الأنساب) ولا معنى له .

(٢) في الأصل : (ووصلوا) .

(٣) **عمر بن عبد الكريم** : أحد شعراء مكة وعلمائها في القرن الثالث عشر ، كان معاصراً لشاعر المدينة حسن أفندي البوسنوي ، وقامت بينهما مراسلات شعرية ، مثبتة في ديوان البوسنوي المخطوط .

العشار ، إنه قد قرأ عليّ جميع شمائل العلامة البردعي[1] ، المأخوذة من شمائل الترمذي : الفاضل الألمعي ، والكامل اللوذعي[2] ، الفهم الحاذق ، الذي هو في مضمار الفضائل سابق ، الشريف الحبيب ، الحائز من شرفي النسب والعلم أوفر نصيب ، كنز اللطائف ، مولانا السيد أحمد عارف ، ابن المرحوم المبرور ، مولانا السيد إبراهيم عصمة بك ، عين أهل زمانه ، وفخر أقرانه ، جعله الله تعالى من أهل خشيته ، ورفع بالعلم عظيم درجته ، ووفقه لاتباع جده المصطفى وإيثار سنّته ، وحفظه من غواية الشيطان واقتفاء طريقته :

آمين آمين لا أرضى بواحدة ... حتى أضيف إليها ألفَ آمينا

وأسمعني بعض شمائل الترمذي وأجزته بباقيها ، بحق روايتي لها عن جامع شتات الفضائل ، ومن له حق التصدر في صدور المحافل ، شيخنا وأستاذنا الرّحلة العارف بالله تعالى ، مولانا الشيخ علي بن عبد البر الوَنائي الأزهري[3] الشريف الحسيني ، وهو عن العلامة الصالح أحمد بن أحمد البُجيْرمي[4] ، عن الشهاب أحمد بن حسن

(١) **البردعي** : محمد بن محمد بن محمد البردعي ، محيي الدين الحنفي ، أخذ العلم عن والده ، ثم ارتحل إلى شيراز وهراة ودرس على علمائها ، ثم ارتحل إلى بلاد الروم واشتغل فيها بالتدريس ، ومات بأدرنة سنة ٩٢٩ هـ ، له مشاركات في الحديث والتفسير وكثير من العلوم ، من تصانيفه : (حاشية على تفسير البيضاوي) (الشقائق النعمانية ص ٢٤٠) .

(٢) اللوذعي ، واللوذع أيضاً : الذكي الذهن ، الحديد الفؤاد والنفس واللسن الفصيح ، كأنه يلذع بالنار من شدة ذكائه .

(٣) **الونائي** : علي بن عبد البر بن علي أبو الحسن الحسيني الونائي (١١٥١ - ١٢٢٤ هـ) ، (نسبة إلى وناء ، قرية بصعيد مصر) ، فقيه شافعي أزهري ، عارف بالحديث ، توفي بالمدينة المنورة - من تصانيفه : (تحفة الأفكار الألمعية - خ) ، و (مورد الظمآن - خ) ، و (عمدة الأبرار في أحكام الحج والاعتمار - ط) . (الأعلام ٤ : ٢٩٨) .

(٤) **البجيرمي** : أحمد بن أحمد بن أحمد بن جمعة البجيرمي (نسبة إلى بُجَيْرِم ، من قرى مصر) ، فقيه شافعي من المحدثين ، توفي سنة ١١٩٧ هـ . (الأعلام ١ : ٩٣) .

الخالدي الجوهري[1] ، عن الشمس محمد الأطغمي[2] ، عن الشمس البابلي[3] ، عن الشيخ سالم السنهوري[4] عن النجم الغيطي[5] ، عن القاضي زكريا[6] ، عن الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني[7] ، عن أبي محمد عبد الله بن محمد المقدسي[8] ، عن الفخر علي بن أحمد بن البخاري[9] ، عن أبي اليُمن زيد بن الحسن الكندي[10] ،

---

(١) **الجوهري :** فاضل مصري أزهري (١٠٩٦ ـ ١١٨٢ هـ) ، منسوب إلى صناعة والده . من تصانيفه : (منقذة العبيد من ربقة التقليد) . (الأعلام ١ : ١١٢) .

(٢) **الأطغمي :** لم أعثر على ترجمته .

(٣) **البابلي :** محمد بن علاء الدين البابلي ، شمس الدين ، فقيه شافعي (١٠٠٠ ـ ١٠٧٧ هـ) ولد ببابل من قرى مصر . من تصانيفه : (الجهاد وفضائله) . (الأعلام ٦ : ٢٧٠) .

(٤) **السنهوري :** سالم بن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين السنهوري المصري (٩٤٥ ـ ١٠١٥ هـ) ، تولى إفتاء المالكية بمصر . ومن تصانيفه : (تيسير الملك الجليل لجمع الشروح وحواشي خليل ـ خ) . (الأعلام ٣ : ٧٢) .

(٥) **الغيطي :** محمد بن أحمد بن علي السكندري الغيطي (نسبة إلى أبي الغيط بمصر) ، الشافعي ، نجم الدين (٩١٠ ـ ٩٨١ هـ) . من تصانيفه : (القول القويم في أقطاع تميم ـ خ) . (الأعلام ٦ : ٦) .

(٦) **القاضي زكريا :** زكريا بن محمد الأنصاري السنيكي (نسبة إلى سنيكة بشرقية مصر) ولاه السلطان قايتباي القضاء ، ولما اعترض على بعض تصرفاته عزله ، فلزم بيته وتفرغ للعلم ، (٨٢٣ ـ ٩٢٦ هـ) . له تصانيف كثيرة منها : (تحفة الباري على صحيح البخاري) ، و (شرح ألفية العراقي) . (الأعلام ٣ : ٤٦) .

(٧) **ابن حجر العسقلاني :** هو أشهر من أن يُعرّف (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ) . (الأعلام ١ : ١٧٨) .

(٨) لم أعثر على ترجمته .

(٩) **ابن البخاري :** (في الأصل ابن النجار) وهو : علي بن أحمد بن عبد الواحد السعدي الحنبلي ، فخر الدين ، المعروف بابن البخاري ، (٥٩٥ ـ ٦٩٠ هـ) محدث جليل ، وله شعر جيد . (الأعلام ٤ : ٢٥٧) .

(١٠) **أبو اليمن الكندي :** زيد بن الحسن بن زيد الحميري ، أبو اليمن الكندي (٥٢٠ ـ ٦١٣) عالم شاعر ، ولد ببغداد ومات بدمشق . من تصانيفه : (شرح ديوان المتنبي) ، و (ديوان شعر) . (الأعلام ٣ : ٥٨) .

عن أبي شجاع عمر بن محمد البسطامي[1] ، عن أبي القاسم أحمد بن محمد البلخي[2] ، عن أبي القاسم علي بن أحمد الخزاعي[3] ، عن الهيثم بن كليب الشاشي[4] ، عن مؤلفها الحافظ أبي عيسى بن سَوْرة الترمذي ، برّد الله تعالى مضجعه ، آمين . وأجزت المذكور مشافهة بجميع ماحواه ثبت خاتمة المحدثين ، بطيبة بلد سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ، المسمى بـ (قطف الثمر) : شيخنا الشيخ صالح الفلاّني[5] عن مؤلفه ، بل وبجميع ماصح لي روايته ، وأذنت له أن يروي عني ماشاء من ذلك ، وأسأل الله تعالى أن ينفعه وينفع به ، وأن يذكرني ويشركني في دعائه ، خصوصاً بحسن الختام ، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

حرر لثلاث مضين من محرم الحرام ، افتتاح سنة ألف ومائتين وتسع وعشرين ، انتهى ...

● وأجازه أيضاً نظماً فقال ، عليه رحمة الملك المتعال :

---

(١) **البسطامي :** (في الأصل عمر بن عمر بن محمد) . وفي (الأعلام ٥ : ٦١) عمر بن محمد بن عبد الله أبو شجاع ، البسطامي ، البلخي ، أديب شاعر ، محدث . من تصانيفه : (لقاطات العقول) مات سنة ٥٧٠ هـ .

(٢) **البلخي :** لم أعثر على ترجمته .

(٣) **الخزاعي :** هو أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد البلخي ، روى مسند الهيثم بن كليب الشاشي عنه ، وروى عنه جماعة كثيرة . وحدث ببلخ وبخارى وسمرقند . ومات ببخارى عن بضع وثمانين عاماً ، سنة ٤١١ هـ . (العبر ٣ : ١٠٧) .

(٤) **الشاشي :** أبو سعيد ، محدث ماوراء النهر ، ومؤلف (المسند الكبير) ، أصله من مرو ، مات سنة ٣٣٥ هـ . (الأعلام ٨ : ١٠٥) .

(٥) **الفلاّني :** صالح بن محمد بن نوح العمري الفلاني المتوفي المغربي ، ثم المدني ، محدث . توفي بالمدينة سنة ١٢١٨ هـ . من تصانيفه : (قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر) الذي أشار إليه المؤلف .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه ومن والاه .

يـا أفعلَ التفضيل صيغ من الحمـد ... ويـا عـازفاً نلت المعارف بـالجِـدّ[1]

لِيُهنـك أن وُفّقت في خير بلـدة ... لصالح أعمال ، فيالـك من رشـد ..!

بـه كعبـة بيتٌ حرام ، مثـابـةٌ ... قيـامٌ وأمن ، ذو جـلال وذو جَـدّ

عتيقٌ ، هـدىً ، ذو رفعة ، ومبارك ... وأرجى إجابـاً للـدعـاء من العبـد

ومهبط[2] رحمات ، فـأعظِمْ بموضع ... ينـال بـه المسؤول من غير مـاطرد .!

طلبت شفـاء لا يغـادر علـة ... فأرشدت يـاذا للشفـاء الـذي يُجدي

ولما بلغت السؤلَ من غـايـة الشفـا ... وسُلّمت من غيبِ التجسّسِ والنقـد

أمرتَ الـذي من حقـه أن تجيزه ... يجيزكمُ ، والشـأن قطعـاً على الضـد

فقلتُ امتثـالاً : قـد أجـزتـك بـ(الشفـا) ... وكل الذي أروي ، وكل الـذي عنـدي

وجـلٌّ اعتمادي في الروايـة : سيـدي ... عليٌّ بن عبـد البر ، ذو العلم والـزهـد

وذا عن شيـوخ جلـة من أجلّهمْ : ... أبـو الفيض ، من هُـو مرتضى كل ذي ود[3]

وإنّي لأروي عنـه أيضـاً كتـابـه ... وفي ثبت كلٌّ مـا يـدل ، ومـا يَهـدي

وأحمـدك اللهم حمـداً مـلازمـاً ... يكـون معي حتى أوسّـد في اللحـد

كـذاك صلاةٌ مـع سلام بلا انقضـا ... على المصطفى المختـار يسمـو على النـد

كذا الآل والأصحاب مـا هش عـارف ... لـذكراك أو مـا سـال[4] دمـع على خـد

وذا عمر نجـل لعبـد الكريم مَنْ ... بعبـد الرسـول امتـاز ، نُعّم في الخلـد

مع الأصل والأشيـاخ والنجـل والـدي ... لـه فرع[5] معروف ، وكل ذوي الـود

(١) يعني : أحمد عارف .

(٢) في الهامش : (ومنزل رحمات .. إلخ) .

(٣) في الهامش : (مرتض غير ذي حقد) .

(٤) في الأصل : (وأسألك) .

(٥) في الأصل كأنها (نوع) .

كـذلـك كل المسلمين اختمن لهم ... بخـاتمة الحسنى ، وصنهم من الـذود[1]

انتهى ...

وهو نظم عالم لا يعلَم الاشتغال بالشعر فضيلة ، ولا ينظم الإتيـان بجيـده في سلك الصفات الجليلة ، والعجب من الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، مع أنه يكاد يجزم ذو الذهن النقاد أنه أشعر قريش في عصره ، يقول :

ولـولا الشعر بـالعلمـاء يُـزري ... لكنت اليـوم أشعرَ من لبيـد

والكلام في هـذا المقـام ، مفصل في محلـه ، ولسنـا بصـدد هـذا البحث ، فلا نطيل بنقله .

● ومنهم الفهامة البصير ، والشيخ الكبير ، شيخنا ومولانا حسنـة الزمـان ، والجامع الأزهر لما تفرق في مصرِ الحسن من كل معنى حسن ، الرامي المصيب بقسيّ أفكاره كلَّ غرض سنيّ ، علامـة عصره ، وعـزيـز مصره ، الشيـخ حسن القَـويْسني - رحمه المولى الغني ، ولا زالت مترعة له كاسات اللطف الإلٓهي المني - ، ومما أملاه فكُتب لـه وأمر أن يضعـوا عليـه ختمـه ، وذلـك على ظهر ثبت الشيـخ عبـد الله الشبراوي[2] عليه الرحمة ، ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيـدنـا محمـد وعلى آلـه وصحبـه أجمعين .

(١) على الهامش : (من البعد) .

(٢) **الشبراوي** : عبـد الله بن محمـد بن عـامر الشبراوي (١٠٩١ - ١١٧١ هـ) ، فقيـه مصري ، تولى مشيخة الأزهر ، من تصـانيفـه : (شرح الصـدر في غزوة بـدر) و (ديوان شعر) . (الأعلام ٤ : ١٣٠) .

وبعد :

فيقول الفقير إلى مولاه الغني ، حسن القَويسني ، قد طلب مني شيخ الإسلام ، قاضي قضاة الأنام ، الألمعي الأديب ، واللوذعيّ الأريب ، كنز زمانه ، وعصاميّ أوانه ، مغني اللبيب عن التصريح ، ومفيد التسهيل مع التوضيح ، الملاّ أحمد عارف بك ، أن يسمعني جملة من متن صحيح مسلم ، وشيئاً من سنن ابن ماجه ، وأوائل الكتب الستة ، وغيرها مما ذكره الإمام عبد الله بن سالم البصري[1] في رسالته التي جمع فيها أوائل الكتب الستة وبقية تسعة وعشرين صحيحاً : أن أجيزه بجميع تلك الكتب ، فأجزته بجميعها ، وجميع ما تجوز لي روايته ، وبجميع ما في هذا الثبت ، كما أجازني مشائخي ، وإن كنت لست أهلاً لذلك ، رجاء أن يدعو لي بخير ، وأن يذكرني في الأماكن الطاهرة ، والأوقات الفاخرة ، خصوصاً في الحرمين الشريفين ، وأوصيه عند التوقف ، بمراجعة الكتب الصحيحة المُعتبرة ، والمشائخ الجهابذة المهرة ، والله تعالى يهدينا وإياه إلى سواء الطريق ، ويسلك بنا وبه سبيل التوفيق .

أملاه العبد الفقير حسن القويسني الشافعي ، سادس ذي القعدة الحرام ، سنة ألف ومائتين وثمانية وثلاثين .. انتهى ...

● وقال مرتجزاً ، وأجاز أيضاً موجزاً :

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الفقيرُ حسن القويسني ... يرجو من الله مزيد المنن
الحمد لله الذي قد أرشدا ... بسنة النبي خير من هدى

(١) البصري : عبد الله بن سالم بن محمد ، البصري منشأً ، المكي مولداً ووفاةً (١٠٤٨ - ١١٣٤ هـ) ، فقيه محدث . من تصانيفه : (الإمداد بمعرفة علو الإسناد) ، و (الضياء الساري على صحيح البخاري) . (الأعلام ٤ : ٨٨) .

ثم الصلاة والسلام سرمدا ... على النبيّ الهاشميّ أحمدا
وآله وصحبه الأبرار ... وتابعيه السادة الأخيار
وبعد فالعلم أهم مقتنىً ... عند ذوي الألباب أهل الاعتنا
لاسيما علم الحديث بالسند ... عن الثقات في الرواية العُمَد
وقد أتى مصر الأفندي عارفٌ ... أحمد من للمعضلات كاشف[1]
العالمُ الحَبْر الإمام المتقن ... نسلُ الكرام ، والهمامُ الفطن
مهذّبُ الأخلاق والطبائع ... وزائد الأخلاق والتواضع
فشرُفتْ به وزادت منزله ... وهكذا كل مكان نزله
وقد رجا أني أجيزه بما ... أجازني به الكرام العُلما
كشيخنا الشرقاوي[2] والحبر الجَمَل[3] ... وشيخنا الأمير[4] كشاف العضل
والسيد القلعاوي[5] والبجيرمي ... والعارف الدردير[6] ذو المكارم

(١) في الأصل : (يكشف) .

(٢) **الشرقاوي** : عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي الأزهري (١١٥٠ - ١٢٢٧ هـ) ولد في الطويلة من قرى الشرقية بمصر . من تصانيفه : (التحفة البهية في طبقات الشافعية) وتولى مشيخة الأزهر . (الأعلام ٤ : ٧٨) .

(٣) **الجمل** : سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري المعروف بالجمل (من مُنْية عجيل - إحدى قرى الغربية بمصر) ، من مؤلفاته : (الفتوحات الإلهية) أربع مجلدات ، وهو حاشية على (تفسير الجلالين) ، توفي سنة ١٢٠٤ هـ . (الأعلام ٣ : ١٣١) .

(٤) **الأمير** : محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر السنباوي (نسبة إلى سنبو : قرية بمصر) ، الأزهري ، المعروف بالأمير (١١٥٤ - ١٢٣٢ هـ) ، كان أحد أجداده أميراً بالصعيد . وأكثر كتبه حواش وشروح ، منها : (الإكليل شرح مختصر خليل) . (الأعلام ٧ : ٧١) .

(٥) **القلعاوي** : مصطفى بن محمد بن يوسف الصفوي القلعاوي (نسبة إلى قلعة الجبل من ضواحي القاهرة) ، مؤرخ ، فقيه (١١٥٨ - ١٢٣٠ هـ) ، من تصانيفه : (صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان) ، و (ديوان شعر) . (الأعلام ٧ : ٢٤١) .

(٦) **الدردير** : أحمد بن محمد بن أحمد العدوي ، أبو البركات (١١٢٧ - ١٢٠١ هـ) ، الشهير =

وبعد :

فيقول الفقير إلى مولاه الغني ، حسن القُويسني ، قد طلب مني شيخ الإسلام ، قاضي قضاة الأنام ، الألمعي الأديب ، واللوذعيّ الأريب ، كنز زمانه ، وعصاميّ أوانه ، مغني اللبيب عن التصريح ، ومفيد التسهيل مع التوضيح ، الملاّ أحمد عارف بك ، أن يسمعني جملة من متن صحيح مسلم ، وشيئاً من سنن ابن ماجه ، وأوائل الكتب الستة ، وغيرها مما ذكره الإمام عبد الله بن سالم البصري[1] في رسالته التي جمع فيها أوائل الكتب الستة وبقية تسعة وعشرين صحيحاً : أن أجيزه بجميع تلك الكتب ، فأجزته بجميعها ، وجميع ما تجوز لي روايته ، وبجميع ما في هذا الثبت ، كما أجازني مشائخي ، وإن كنت لست أهلاً لذلك ، رجاء أن يدعو لي بخير ، وأن يذكرني في الأماكن الطاهرة ، والأوقات الفاخرة ، خصوصاً في الحرمين الشريفين ، وأوصيه عند التوقف ، بمراجعة الكتب الصحيحة المُعتبرة ، والمشائخ الجهابذة المهرة ، والله تعالى يهدينا وإياه إلى سواء الطريق ، ويسلك بنا وبه سبيل التوفيق .

أملاه العبد الفقير حسن القويسني الشافعي ، سادس ذي القعدة الحرام ، سنة ألف ومائتين وثمانية وثلاثين .. انتهى ...

● وقال مرتجزاً ، وأجاز أيضاً موجزاً :

بسم الله الرحمن الرحيم .

قال الفقيرُ حسن القويسني ‏   يرجو من الله مزيد المنن

الحمد لله الذي قد أرشدا ‏   بسنة النبي خير من هدى

(١) **البصري** : عبد الله بن سالم بن محمد ، البصري منشأ ، المكي مولداً ووفاةً (١٠٤٨ - ١١٣٤ هـ) ، فقيه محدث . من تصانيفه : (الإمداد بمعرفة علو الإسناد) ، و (الضياء الساري على صحيح البخاري) . (الأعلام ٤ : ٨٨) .

ثم الصلاة والسلام سرمدا ‏   على النبيّ الهاشميّ أحمدا

وآله وصحبه الأبرار ‏   وتابعيه السادة الأخيار

وبعد فالعلم أهم مقتنىً ‏   عند ذوي الألباب أهل الاعتنا

لا سيما علم الحديث بالسند ‏   عن الثقات في الرواية العُمَد

وقد أتى مصر الأفندي عارفٌ ‏   أحمد من للمعضلات كاشف[1]

العالمُ الحَبْر الإمام المتقن ‏   نسلُ الكرام ، والهمامُ الفطن

مهذّبُ الأخلاق والطبائع ‏   وزائد الأخلاق والتواضع

فشرُفتْ به وزادت منزلة ‏   وهكذا كل مكان نزله

وقد رجا أني أجيزه بما ‏   أجازني به الكرام العُلما

كشيخنا الشرقاوي[2] والحبر الجَمَل[3] ‏   وشيخنا الأمير[4] كشاف العضل

والسيد القلعاوي[5] والبجيرمي ‏   والعارف الدردير[6] ذو المكارم

(١) في الأصل : (يكشف) .

(٢) **الشرقاوي** : عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي الأزهري (١١٥٠ - ١٢٢٧ هـ) ولد في الطويلة من قرى الشرقية بمصر . من تصانيفه : (التحفة البهية في طبقات الشافعية) وتولى مشيخة الأزهر . (الأعلام ٤ : ٧٨) .

(٣) **الجمل** : سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري المعروف بالجمل (من مُنْيَة عجيل - إحدى قرى الغربية بمصر) ، من مؤلفاته : (الفتوحات الإلهية) أربع مجلدات ، وهو حاشية على (تفسير الجلالين) ، توفي سنة ١٢٠٤ هـ . (الأعلام ٣ : ١٣١) .

(٤) **الأمير** : محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر السنباوي (نسبة إلى سنبو : قرية بمصر) ، الأزهري ، المعروف بالأمير (١١٥٤ - ١٢٣٢ هـ) ، كان أحد أجداده أميراً بالصعيد . وأكثر كتبه حواش وشروح ، منها : (الإكليل شرح مختصر خليل) . (الأعلام ٧ : ٧١) .

(٥) **القلعاوي** : مصطفى بن محمد بن يوسف الصفوي القلعاوي (نسبة إلى قلعة الجبل من ضواحي القاهرة) ، مؤرخ ، فقيه (١١٥٨ - ١٢٣٠ هـ) ، من تصانيفه : (صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان) ، و (ديوان شعر) . (الأعلام ٧ : ٢٤١) .

(٦) **الدردير** : أحمد بن محمد بن أحمد العدوي ، أبو البركات (١١٢٧ - ١٢٠١ هـ) ، الشهير =

وما من الأشياخ قد أمليته ... في ثبته من سلف أدركته

من الحديث والعلوم ماعُقل ... منها ، وكل ما إلينا قد نُقل

وقد أجزته بما هنالكا ... وإن قصرت عن بلوغ ذلكا

لاسيا ثبت عظيم الجاه ... العارف الشرقاوي عبد الله

وثبت أستاذ الورى محمد ... هو الأمير ذو الفخار الزائد

وأسأل الله له العناية ... في أمره والحفظ والرعاية

وصل ربَّنا وسلِّم أبدا ... على محمد ومن به اقتدى

انتهى ...

● ومنهم مولانا شيخ الشيوخ ، ومن تم له على قنة فلك الحسن الرسوخ ، الفاضل الذي عطر أرجاء الآفاق ، بعبير عنبر تأليفاته ، وأقرّ عيون الأذواق ، بما جلاه على منصة الإفادة من عرائس تقريراته ، والكامل الذي تعقد عند ذكره الخناصر ، وتُحَل ببنان بيان فكره البديع معاني مشكلات الخواطر ، الغيث المدرار ، الشيخ حسن بن محمد العطار ، سقى صيّبُ الرضوان روضة ثرى قبره المعطار ، وقد كتب رحمة الله تعالى عليه عدة إجازات لحضرة مولاي المشار إليه ، فكتب على ظهر (نهاية المحتاج ، إلى شرح المنهاج) ، تأليف مولانا قويّ أساس الفضل الجليل الجليّ ، بدر سماء فقه الإمام الشافعي ، شمس الدين الرملي[1] ما نصه :

= بالدردير ، فقيه مالكي ، ولد في بني عدي بمصر ، وتعلم بالأزهر . من تصانيفه : (أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك) . (الأعلام ١ : ٢٤٤) .

(١) الرملي : محمد بن أحمد بن حمزة شمس الدنيا الرملي (نسبة إلى الرملة من قرى المنوفية بمصر) الأنصاري ، الشهير بالشافعي الصغير ، أخذ أكثر علومه عن أبيه . ثم أخذ عن شيخ الإسلام القاضي زكريا ، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، وشيخ الإسلام أحمد بن النجار الحنبلي ، وشيخ الإسلام يحي الدميري المالكي . وشيخ الإسلام الطرابلسي والحنفي ، والشيخ سعد الدين الذهبي الشافعي . عرف بالتقوى والورع وحسن الخلق وجلس بعد وفاة والده للتدريس في العلوم النقلية والعقلية . وأخذ عنه أكثر الشافعية من أهل مصر . وأجل تلاميذه =

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي وفقنا للتفقه في دينه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، رسولِه بالوحي وأمينِه ، وعلى آله الأعلام ، وصحابته الكرام .

وبعد :

فقد أجزت بهذا الكتاب فريد زمانه ، ووحيد أوانه ، من افتخرت بوجوده الأيام ، وتزينت ببقائه الأعوام ، وطلع بدراً منيراً في أفق سماء الدولة العلية واستنارت به الديار الرومية ، فهو معدن العلم والكرم ، الإمام الهمام ، المفرد العلَم ، شيخ الإسلام ، علامة الأنام ، حضرة الحاج أحمد عارف عصمة بك زاده[1] ، أفاض الله تعالى عليه سحائب عرفانه وزادَه ، وتولى مصر فأزال عنها جلباب الغموم ، وابتهجت به ابتهاج الحسناء بالعقد المنظوم ، ونفّذ بماضي عزمه معضل القضايا ، وعم بصيّب جوده البرايا ، وأقبل على محبته أهل الفضل إقبالا ، وأفاض عليهم مكارمَ ونوالا ، وممن تشرف بالترداد عليه ، والوصول إليه ، الفقير ، فطلب مني إجازة بهذا الكتاب لينتظم في سلك سادتنا الشافعيّة وتعمه بركتهم ، فأجبته لذلك ، وأجزته بهذا الكتاب ، بعد أن أسمعته شيئاً من أوله ، طالباً من الله تعالى أن يطيل عمره ويرفع ذكره ، وهذا الكتاب داخل في عموم إجازتي من بعض أشياخنا ـ رحمهم الله تعالى ورحمني معهم والمسلمين أجمعين .

كتبه الفقير حسن بن محمد العطار الشافعي .

= النور الزيادي والشيخ سالم الشبشيري ، ومن الشاميين : الشمس محمد الميداني والشيخ نعمان الحبراص والشيخ عمر بن الكاسوحة . ولد ومات بالقاهرة (٩١٩ ـ ١٠٠٤ هـ) ولي إفتاء الشافعية ، ولقب بالشافعي الصغير ، من تصانيفه : (نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج) ، الذي أشار إليه المؤلف ، و (فتاوى شمس الدين الرملي) . (خلاصة الأثر ٣ : ٣٤٢) و (الأعلام ٦ : ٨)

(١) هذه الإجازة أيام قضائه على مصر ، كما هو ظاهر .

● وكتب له على شرحه المسمى بـ (راحة الأبدان ، في شرح نزهة الأذهان) لداود الأنطاكي[1] في الطب ، مانصه ..

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله على إحسانه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، قد أجزت مالك هذا الكتاب ، شيخ الإسلام والمسلمين ، أكمل العلماء المتبحرين أقضى قضاة أهل الدين ، علم الهدى ، غيث الندى ، رافع منار الافتخار ، المزري إحسانه بتدفق البحار ، رفيع المجد ، قرين السعد ، المتحلّي بالكمالات والمعارف ، الحائز للتالد من المعالي والطارف ، مولانا أحمد بك عارف ، عصمة بك زاده ، نضّر الله تعالى الأيام بوجوده ، وأحيا رفات المكارم بجُوده ، وبلّغه الأماني ، وجعله ملجأ لكل قاصد وغان[2] . آمين .

كتبه مؤلفه حسن بن محمد العطار ، سامحه الله تعالى ، آمين .

انتهى ...

● وكتب له على (شرح لامية الأفعال) لمحمد بن مالك ، مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لمستحقه ، والصلاة على أفضل خلقه ، وآله وصحبه ، وجنده وحزبه .

---

(١) داود الأنطاكي : داود بن عمر الأنطاكي (نسبة إلى أنطاكية) ، انتهت إليه رئاسة الأطباء في زمانه ، وقرأ المنطق والرياضيات وغيرها . وانتقل إلى القاهرة ثم إلى مكة ، وتوفي فيها سنة ١٠٠٨ هـ ، من تصانيفه (تذكرة أولي الألباب) في الطب والحكمة . ويعرف بتذكرة داود . و (نزهة الأبدان) الذي أشار إليه المؤلف . (الأعلام ٢ : ٣٣٣)

(٢) كذا في الأصل ، ولعلها عان .

وبعد :

فقد أجزت المولى الهمام ، رئيس العلماء الأعلام ، حاوي مراتب السيادة والعلى ، سباق غايات الفخار بين الملا ، عزة عصره ، وبهجة دهره ، نادرة الزمان ، حسنة الأوان ، طلع في سماء الديار الرومية بدراً منيراً ، طبق الآفاق ضياؤه ، وتدفق بوجوده ، وأغنى العُفاة سخاؤه ، العلامة الفهامة ، المحقق المدقق ، الجامع بين المنقول والمعقول ، المولى أحمد بك عارف ، نجل شيخ الإسلام ، صدر الكبراء والموالي ، حسنة الأيام والليالي ، مولانا عصمة بك ، بردّ الله تعالى مضجعه ، وجعل إلى الجنة مهْيعه[1] ، وأبقى لنا نجله السعيد مخدوم السعد ، متسنماً مراقي المجد : بهذه الحاشية ، وبسائر مؤلفاتي ، سائلاً من الله سبحانه أن يطيل عمره ، ويرفع قدره ، ويديم مجده ، ويوالي سعده ، آمين .

كتبه مؤلفه ، الفقير حسن بن محمد العطار ، سامحه الله تعالى بفضله ، آمين .

● وكتب له على شرحه لولديه سجاقلي زاده في آداب المناظرة مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله وحده ، وصلى الله تعالى على من لا نبيّ بعده .

وبعد :

فقد أجزت شيخ الإسلام والمسلمين ، محيي علوم سيد المرسلين ، رافع قواعد الدين ، محرر العلوم بسوابق أقلامه[2] ، قاطع شُبَه الملحدين بمواضي أقلامه ، الحَبْر الإمام ، والسند الهمام ، مجدد مااندثر من مآثر المكارم ، محيي رفات العلوم والهبات مآأنسانا[3] بذكره أحاديث حاتم ، أحمد بك عصمة زاده أفاض الله تعالى عليه

---

(١) المهيع : الطريق البين . جمعه مهايع .

(٢) كذا في الأصل ، ولعلها : سوابق أفهامه .

(٣) في الأصل فأنسانا .

سوابغ أفضاله وزاده ، بهذه الحاشية ، وبسائر مؤلفاتي ، سائلاً من الله تعالى أن يديمه سنداً لكل طالب ، وكهفاً يأوي إلى الاستظلال بمكارمه كل راغب ، ولا برحت الأيام بوجوده مشرقة ، والهبات من بحار أياديه مغدقة ، والدهر به باسم الثغر ، والسعد يخدمه في كل أمر .

كتبه مؤلفه الفقير ،حسن بن محمد العطار ، غفر الله تعالى ذنوبه ، وستر عيوبه . آمين .

● وكتب له على حاشية شرح أم البراهين ، للعلامة محمد عرفة الدسوقي[1] مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فإني قد أجزت بهذه الحاشية وبسائر مؤلفات مؤلفها شيخي وأستاذي العلامة محمد عرفة الدسوقي ، كما أجازني - رحمه الله تعالى - بذلك إجازة عامة : مالكها صدر الرؤساء ، كبير الكبراء ، علامة الديار الرومية ، حسنة الدولة العثمانية ، عريق النسب في المفاخر والمعالي والشرف ، عتيد الحسب ، الذي ورث المعالي خلفاً عن سلف ، شيخ الإسلام ، علامة الأنام ، قاضي القضاة ، مذل الطغاة ، حامي حوزة الشرع الشريف ، فيصل الحق المنيف ، العالم العامل الكامل الفاضل ، السريّ السنّي ، البهيّ الوفيّ ، الحاج أحمد عارف ، نجل شيخ

(١) **الدسوقي:** محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (من أهل دسوق بمصر) ، فقيه مالكي ، وعالم بالعربية ، وكان من المدرسين في الأزهر . من تصانيفه : (الحدود الفقهية) ، و (حاشية على شرح السنوسي لمقدمته أم البراهين خ) ، الذي أشار إليه المؤلف ، مات سنة ١٢٣٠ هـ (الأعلام ٦ : ١٧) .

الإسلام والمسلمين عصمت بك ، أدام الله تعالى إجلاله ، وأفاض علينا أفضاله . آمين .

كتبه الفقير حسن بن محمد العطار ، سامحه الله تعالى .

انتهى ...

● وكتب له على تأليف شيخه العلامة عبد الله بن حجازي ، المشهور بالشرقاوي ، المسمى (نصح المبدي ، على مختصر الزّبيدي) ، مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله .

وبعد :

فإني أجزت بهذا الشرح سيدنا ومولانا العالم النحرير ، والعلَم الشهير ، أقضى قضاة الإسلام ، علامة الأنام ، حاوي مراتب المعالي والمفاخر ، وارث السيادة كابراً عن كابر ، صدر الصدور الموالي ، نتيجة قياس المعالي ، شيخ الإسلام والمسلمين ، الحاج أحمد عارف بك عصمة زاده ، كما أجازني بذلك مؤلفه في ضمن إجازته العامة ، رحمه الله تعالى ، داعياً له ببلوغ الآمال ، ودوام الأفضال .

كتبه الفقير حسن العطار ، عُفي عنه .

انتهى ...

● وكتب على حاشية شيخه عبد الله الشرقاوي المذكور - ضوعفت لنا وله الأجور - على شرح الشيخ محمد بن منصور المندهدي[1] ، (وهو نسبة لعرب المنداهدة : قبيلة بمصر من قبائل إقليم البحيرة) لأم البراهين ، المسماة بالصغرى ، للعلامة أبي عبد الله محمد بن الوليّ الصالح يوسف السنوسي المالكي المغربي

(١) **المندهدي** : لم أعثر على ترجمته .

التلمساني[1] . (والسنوسي كما هو في أول هذه الحاشية : منسوب لبني سنوس قبيلة معروفة بالمغرب ، ولا أصل لقول من نسبه إلى سنوسة ، مدعياً أنها بلدته التي نشأ بها ، لعدم وجود بلدة بالمغرب تسمى بذلك وعلى المدعي البيان) : مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله على أفضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله .

وبعد :

فإني قد أجزت مالك هذا الكتاب ، شيخ الإسلام والمسلمين ، محي قواعد الدين ، مفيد الطالبين ، قدوة المحققين ، المولى الإمام ، الأسد الضرغام ، مفخرة دولة بني عثمان ، صاحب الفضل والإحسان ، كنز الفضائل ، ومعدن الفواضل ، الجامع بين المعقول والمنقول ، الذي بهر بلطائف أفهامه العقول ، مولانا الحاج أحمد عارف بك ، نجل شيخ الإسلام ، صدر الدولة العلية ومشيرها ، وتاج هام الموالي الفخام وأميرها ، المرحوم عصمة بك ، أسكنه الله تعالى بحبوحة جنانه ، ووالى عليه صيّبَ إحسانه : بهذه الحاشية وبجميع مؤلفات مؤلفها العلامة الشيخ عبد الله الشرقاوي ، كما أجازني بذلك شيخنا المذكور في ضمن إجازته العامة ، سائلاً الله سبحانه وتعالى دوام إجلاله ، وتحقيق آماله ، بمنه وكرمه .

كتبه الفقير حسن بن محمد العطار ، سامحه الله تعالى .

انتهى ...

● وكتب على (تحفة الطلاب ، شرح تحرير تنقيح اللباب) كلاهما للقاضي زكريا الأنصاري ، على مذهب الإمام الشافعي عليه رحمة الباري : مانصه :

---

(1) **السنوسي :** محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي (٨٣٢ ـ ٨٩٥ هـ) عالم تلمسان في عصره ، من تصانيفه (شرح صحيح البخاري) ، و (شرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن الياسمين) ، و (أم البراهين) في التوحيد . (الأعلام ٧ : ١٥٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فقد أجزت بهذا الكتاب شيخ مشائخ الإسلام ، قاضي قضاة الأنام ، الإمام العلامة الفهامة ، الحَبْر البحر ، السريّ السنيّ الوفيّ ، الفاضل الكامل ، بهجة الزمان ، ونتيجة الأوان ، معدن الإحسان ، كنز العرفان ، الحاج أحمد عارف عصمة بك زاده ، جمّل الله تعالى الوقت بوجوده ، وعمره بكرمه وجوده ، وأبقاه رافلاً في حلّة مجده ، طالعاً في سماء عزّه وسعده ، آمين .

كتبه الفقير حسن بن محمد العطار ، عُفي عنه ، آمين ..

● وكتب على حاشيته على (موصل الطلاب ، إلى قواعد الإعراب) ، للشيخ خالد الأزهري[1] مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد حمد الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، محمد وآله وصحبه : فإني قد أجزت بهذا الكتاب مالكه ، صدر الموالي ، نتيجة الأيام والليالي ، العلامة الفريد ، والفهامة الوحيد ، مقرر العلوم ومحققها ، الحَبْر البحر ، الفاضل الكامل ، العالم العامل ، رافع رايات التحقيق ، سباق غايات التدقيق ، شيخ

---

(1) **خالد الأزهري :** خالد بن عبد الله بن أبي بكر الجرجاوي (نسبة إلى جرجا بالصعيد المصري) ، الأزهري ، نحوي مشهور (٨٣٨ ـ ٩٠٥ هـ) ، من تصانيفه : (شرح الأجرومية) ، و (التصريح بمضمون التوضيح) ، و (موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب) الذي أشار إليه المؤلف . (الأعلام ٢ : ٢٩٧) .

الإسلام والمسلمين ، رافع منار الدين ، مولانا أحمد عارف بك ، عصمت بك زاده ، جمّل الله تعالى بوجوده الزمان ، وأحيا بصيّب جوده ماانـدرس من مـآثر الإحسان ، وأطلعه بدراً منيراً في سماء العرفان ، ولا زالت الأيام به بواسم[1] ، والدهر بالمسرات إليه باسم ، آمين .

كتبه مؤلفه حسن بن محمد العطار ، سامحه الله تعالى بفضله . آمين .

انتهى ..

● وكتب على كتاب (أصول الحديث) لابن الصلاح[2] : مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد حمد الله ، والسلام على رسوله محمد وآله ، فقد أجزت مالك هذا الكتاب شيخ الإسلام والمسلمين ، العلامة الفهامة ، الحاج أحمد عارف عصمة بك زاده بهذا الكتاب ، كما شمل ذلك عموم إجازتي من الشيوخ ، رحمهم الله تعالى ، داعياً له بنيل المآرب ، وتحصيل المطالب .

كتبه الفقير حسن العطار ، عُفي عنه .

انتهى ..

---

(١) لعلها : (مواسم) لتحاشي التكرار .

(٢) ابن الصلاح : هو أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الكردي الشهرزوري ، الموصلي الشافعي (٥٧٧ ـ ٦٤٣ هـ) ، ولقبه تقي الدين ، ولقب أبيه صلاح الدين ، ولهذا عرف بابن الصلاح ، سمع من عبيد الله بن السمين ، ومنصور الفراوي وطبقتهما . وبرع في الفقه واللغة ، وصار علماً في الحديث وعلومه ، فإذا أطلقت كلمة الشيخ لاتنصرف إلا إليه . تنقل بين شهرزور والموصل وخراسان ودمشق والقدس ، واشتغل بالتدريس . وانتفع بعلمه خلق كثير . وتوفي بدمشق . من تصانيفه : (معرفة أنواع علم الحديث) المشهور بمقدمة ابن الصلاح . و (طبقات الشافعية) وغيرهما . (شذرات الذهب ٥ : ٢٢١) .

● وكتب على حاشيته على (شرح إيساغوجي) لشيخ الإسلام القاضي[1] زكريا الأنصاري مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي وفقنا لحمده ، والصلاة والسلام على سيدنا وعبده ، محمد وآله وصحبه وجنده .

أما بعد :

فإنه لما تيسر لنا التوجه إلى ثغر الإسكندرية ، وكان ذلك بعد عشاء ليلة الخميس ، الثالث عشر من ذي القعدة ، فوصلناها يوم السبت ، الخامس عشر من الشهر المذكور ، وذلك بصحبة المولى الفاضل ، العامل الكامل ، تاج أرباب المعالي ، صدر الصدور والموالي ، شيخ الإسلام ، علامة الأنام ، أقضى قضاة الإسلام ، فيصل القضايا والأحكام ، شيخ الإسلام والمسلمين ، الحاج أحمد عارف عصمة بك زاده ، وقد قدم مصر عام سبعة وثلاثين بعد المائتين والألف ، متولياً القضاء ، فكان على المفسدين سيفاً منتضىً ، أحيا معالم عرفانها ، وأبرز فضائل حسنها وإحسانها ، وخلّد بها المآثر ، وجدد بها رَبْع المكارم ، وكان قبل داثر ، فأصبحت بمقدمه عروساً ، وأزال عنها بسعوده بؤساً ، ومدحته ألسنة شعرائها وابتهجت به صدور أبنائها ، ولما انقضى ميقات منصبه ، وقصد التوجه لحمية القسطنطينية ، التي هي مطلع كوكبه ، صحبته في ذلك السفر إلى الثغر المذكور ، قضاءً لواجب إحسان سلف ، فإن هذا المسعى عمل مبرور ، إذ صحبت ذلك بنية الرباط[2] ، وإلباس النفس ثوب النشاط ، إذ كان السفر بصحبته مواسم

---

(١) في الأصل : (قاضي) .

(٢) كانت مصر كثيراً ماتتعرض لهجوم الأعداء من جهة الإسكندرية لوقوعها على البحر الأبيض في مواجهة أعداء الإسلام ، فلذلك تعد من ثغور الإسلام التي يمكن المرابطة فيها بنية الجهاد والمدافعة عن دين الله .

أفراح ، وسرور وانشراح ، وباحَث معي في منظومة العلامة شيخنا الشيخ محمد الصبان[1] في العروض ، التي ضاهى بها الخزرجية ، مباحثة تحقيق ، من أولها إلى آخرها في يومين ، ونحن سائرون في المركب سير النجوم في الأفلاك ، ومنتظمون في عقد المسرة (انتظام)[2] اللآلئ في الأسلاك ، وأتممناها في يومين ، ولما استقر ركابه الشريف بالثغر ، أسمعته شيئاً من حاشيتي هذه ، وأجزته بها وبسائر مؤلفاتي ، سائلاً من الله تعالى أن يبلغه محل الإقامة سالماً غانماً ، ويحفظه في سائر حركاته وسكناته ، آمين .

قال ذلك وكتبه مؤلف الحاشية حسن بن محمد العطار ، بثغر الإسكندرية ، في الشهر المذكور .

انتهى ..

● وكتب على بعض رسائله أيضاً مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله وحده ، وصلى الله تعالى على من لا نبيّ بعده .

وبعد :

فقد أسمعني وسمع مني في هذه الرسالة المولى الهمام ، والفهامة الإمام ، من هو لعلاّمة الروم الشهير ثاني[3] ، صاحب رقائق الألفاظ ودقائق المعاني ، ثمرة دوحة

(1) الصبان : محمد بن علي أبو العرفان المشهور بالصبان ، من القاهرة ، له تصانيف كثيرة منها : (الكافية الشافية في علمي العروض والقافية) ، وهي المنظومة التي أشار إليها المؤلف . و (حاشية على شرح الأشموني للألفية) ، توفي سنة ١٢٠٦ هـ . (الأعلام ٦ : ٢٩٧) .

(2) زيادة يقتضيها السياق .

(3) قد يكون المقصود بعلامة الروم ، والد عارف حكمة .

غرست في رياض الفضل والإعزاز ، وهو لحقيقة العرفان سالك أحسن مجاز ، شمس الصدور والموالي ، مفخر الأيام والليالي ، الضارب في كل فن بسهم ، والجايل في كل معرفة بسابق إدراك وفَهم ، روض الفضل والإحسان ، غرّة وجه الزمان ، المولى الفاضل ، أحمد الملقب بعارف ، أفاض الله تعالى عليه سجال العرفان ، وتوّجه بتاج العز والإحسان ، بمنّه وكرمه ، وقد أجزته أن يرويها عني ، وأنا الفقير حسن بن محمد العطار الشافعي ، وأسأل الله تعالى أن يطيل عمره ، ويرفع في الدارين قدره ، وأجزته أيضاً إجازة عامة بجميع ماأرويه عن شيوخي وكل ماتجوز لي روايته ، وسائر مؤلفاتي ، والله تعالى يحفظه ويبقيه في الدنيا والآخرة .

انتهى ..

● وكتب أيضاً له هذا الفاضل ، على غير ماذُكر من الكتب والرسائل ، والاستيعاب يوجب الإسهاب ، على أنه لا يكاد يتسنى لبناني ، لغاية ضيق زماني .

ثم إن هذا المولى كان على ما يقولون بين فضلاء العصر ، بديع الزمان ، بل حريريّه[1] في النظم والنثر ، يولج جمل[2] المعاني في سم خياط الألفاظ ، ويُنسي بلطيف غزله الصب العاني لطيف غمرات الألحاظ ، وكأنه لكونه بصدد مجرد إفادة المقصود لم يتكلف الإبداع فيما كتب ، ومع هذا ـ وحرمة كل ذي أدب محمود[3] ـ حريّ بأن يكتب بماء الذهب .

فرحم الله تعالى لساناً قرّره ، وبناناً حرّره .

(1) واضح أن المؤلف يفضل الحريري على بديع الزمان الهمذاني .

(2) جمل : من معانيه الحبل الغليظ .

(3) هذا قسم بغير الله .

● ومنهم : الحبر الإمام ، وبحر الفضل القمقام ، نتيجة الدهر ، ومَنْ آثاره سلافة أهل العصر ، وأشعاره دمية القصر ، ذو الفضل الجليل الجليّ ، مولانا الشيخ محمد أمين الزِّبْلِه وي ، وقد كتب لحضرة مولاي ، ومعتمدي بعد الله تعالى ورجائي ، على (مشكاة المصابيح) ماشعت أنوار اللطافة من لفظه البليغ الفصيح .

ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي رفع لأهل الحديث مقاماً عليّاً ، وجعل منهجهم القويم من بين الطرق واضحاً جليّاً سويّاً ، حتى صار فضلهم المشهور ، على مر الدهور ، كمشكاة فيها مصباح وناهيك بما له من نور ، والصلاة والسلام على أشرف مرسل وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

وبعد :

فإن الفاضل الفاصل ، لمهات الوقائع والمشاكل ، قطب دائرة العلوم الذي عليه المدار ، والعارف بما للسُّنة النبوية من آثار وأخبار ، صاحب النقل والنقد ، صاحب مطارف الحل والعقد ، عين أعيان بني الزهراء ، صدر الشريعة الغراء ، سيدنا ومولانا السيد أحمد عارف بك ، قاضي مصر القاهرة حالاً ، زاده الله تعالى إجلالاً ، وكسا به الوجود جمالاً ، ابن سيدنا العلامة المرحوم المبرور ، المندرج في أركان رحمة الرب الغفور ، المولى السيد إبراهيم عصمة بك ، رئيس العلماء بالقسطنطينية ، المحمية ، والمحلّي أجياد المناصب بعقوده الجوهرية ، قد قرأ على هذا العبد الحقير من أول (المشكاة) فصلاً وسمع فصلا ، تواضعاً منه وفضلا ، وطلب الإجازة بهذا الكتاب بخصوصه ، وإن كان مجازاً بجميع مروياتي ومسموعاتي على العموم ، وأنا قد أجزته به وبما تجوز لي وعني روايته ، كما هو محرر

لديه ومرسوم ، وسندنا في ثبت شيخنا المرحوم الشيخ صالح الفلاّني ، ونسأل الله سبحانه أن يبلغنا وإياه والمسلمين أجمعين جميع الأماني ، إنه الجواد الكريم .

وكتبه الفقير المجيز محمد أمين بن حسين الزِّبْلِه وي ، بمصر القاهرة ، في الخامس من شوال ، سنة سبع وثلاثين وألف من الهجرة ، حامداً مصلياً .

انتهى ..

● ومنهم : ذو الذهن النَّقاد ، والذهب الذي شهد لبلاغته من الغش النُّقاد ، محك ذوي الأنظار ، والغنيّ بفضله عن الدرهم والدينار ، الفاضل السريّ الوفيّ ، الشيخ علي الصيرفي[1] ، مفتي الشافعية في رشيد[2] ، غمره الله تعالى بلطفه الوافر المديد ، وقد قال في ذلك :

الحمد لله القويّ السند … سبحانه منزّهاً عن سند

وهو القديم والسَّوَى[3] حديث … دليلنا المعقول والحديث

أحمده حمداً صحيحاً حسنا … ليكتسي منه اللسان اللَّسنا[4]

والشكر مرفوع مع القبول … وليس مقطوعاً من الوصول

كذا الصلاة معها السلام … على نبي دينُه الإسلام

محمد المرسل للأنام … والآل والأصحاب بالتمام

ما اتصل الإسناد بالرواة … وانفصل الضعيف كالموات

وبعدُ فالإسناد للحديث … قد جل في القديم والحديث

أعلاه إسناداً هو البخاري … أصحّ ما جاء عن المختار

(١) علي الصيرفي : لم أعثر على ترجمته .

(٢) رشيد : بلد معروف في مصر على البحر الأبيض يصب فيه أحد فرعي النيل .

(٣) السوى : الغير .

(٤) اللسن : الفصاحة .

وإن ممن اعتنى بـــذلـــك — مـولى المـوالي واضـح المسـالـك
السيـد العـلامـة الإمـام — الرحلـة الفهـامـة الهمام
أحمـد عـارفٌ شريف الأصـل — بيـك منيف بـالـوفـا ذو وصـل
قَرَا على الفقير منـه حصّـة — وربُّنـا بفضلـه قـد خصّـه
والتمس الإجـازة السنيـة — لظنـه بـأن لي مـزيّـة
مـع أنني مفتقر لمثلـه — لأن يجيز لي بفضـل فضلـه
لكنّ أعين الرضـا ترضى — وكم ترى سَتْرَ العيـوب فرضـا[1] ..!
أجبتـه ولست فيـه أهـلاً — وقلت : مرحبـاً بـه وأهـلاً
أجـزتـه بمسنـد البخـاري — وغيره من مسنـد الأخبـار
وكلّما رويتُ من كتـاب — من أيّ فن لـذوي الألبـاب
وإن لي في ذا أسـانيـد أتت — عن الفحـول كلهـا عنـدي ثبت
أعظمهـا روايـة عن سيـدي — الخضري أحمـد بـالسنـد[2]
عن شيـخ الإسـلام هـو الحفنـاوي — محمـد نِعْم الهمام الراوي[3]
سنـده بثبتـه مسطـور — وأمره في سره مشهـور
أجـزتـه وإنني في خجـل — أرجـو الـدعـاء بخلوص العمـل
لا زال محفـوظـاً من الأسـواء[4] — في صبحـه دومـاً وفي المسـاء
قـد قـالـه العبـد الفقير الصيرفي — عليٌّ الراجي بـه اللطف الخفي

(١) يشير إلى قول المتنبي :
وعين الرضـا عن كل عيب كليلـة — كما أن عين السخـط تُبـدي المسـاويـا

(٢) أحمد الخضري : لم أعثر على ترجمته .

(٣) محمد الحفناوي : محمد بن صالح أبي السعود ، السباعي الحفناوي المصري ، الشافعي ، مفسر له حاشية على تفسير الجلالين في ثلاث مجلدات - خ . مات سنة ١٢٦٨ هـ . (الأعلام ٦ : ١٦٤) .

(٤) الأسواء : جمع سوء .

مُحَمَّـداً مصلّيـاً مسلّماً — على الـذي لرسلـه قـد ختما

آخر شعبان عام ألف ومائتين وأربعة وثلاثين .

● ومنهم : نادرة الزمان ، والمشار إليه بين الأفاضل بالبنان ، مفترع أبكار المعاني ، مولانا الشيخ مصطفى البنّاني[1] ، تغمده الله برحمته ، وجعل روحه سارحة في روضات الأنس من جنته . وكتب على شرحه المسمى بـ (روضة الطالبين ، لأسماء الصحابة البدريين) ، لازال رضوان الله تعالى هالة لهم أجمعين ، على منظومة شيخه محمد الصبان ، صبّت عليه شآبيب الرحمة والغفران : مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي به القوة والحول ، ومنه المنة والطول ، والصلاة والسلام على أفضل نبيّ مرسل ، وكل من به إلى ربه يتوسل[2] ، وعلى آله وصحبه الحاذين في المجد حذوه ، الراقين في الفضل أعلى ذروة .

وبعد :

فلما مَنَّ الله تعالى عليّ بالاجتماع بعقد لواء الدوحة القرشية ، ودر نطاق العصابة المصرية الهاشمية ، من امتلأت بحبه القلوب ، وأزال بشهامة عزمه كرب كل مكروب ، وسار في أحكامه سيرة عمرية ، وأدرك دقائق القضايا بفكرة ألمعيّة ، من غير طمع يدنّس أخلاقه الكريمة ، ولا طبَع[3] يشين نفسه الزكية السليمة ، مع ماهو عليه من دوام اكتساب الفضائل ، والاشتغال بالعلم وملازمة السادة الأفاضل ، وحب الخير والسعي إليه ، والعدل في الحكم والحض عليه ، والتحرّي في الأحكام ، وعدم مراعاة الأنام ، قاضي قضاة العساكر الإسلامية ،

(١) البنّاني : (بتشديد النون الأولى) مصطفى بن محمد بن عبد الخالق البناني ، أديب مصري من تلاميذ الشيخ محمد الصبان . له (التجريد على مختصر السعد على التلخيص) في البلاغة ، توفي سنة ١٢٣٧ هـ . (الأعلام ٧ : ٢٤٢) .

(٢) أي يتوسل بدعائهم .

(٣) الطبع : (بفتح الباء) : الدنس .

بالديار المصرية ، وحاكم الشرع الشريف بالأقطار المعزية ، عمدة القضايا والأحكام ، شيخ المسلمين والإسلام ، الإمام العلاّمة الهمام ، مولانا وعزيزنا أحمد عارف ، نجل المرحوم العالم العلامة الفاضل إبراهيم عصمة بك الحسيني الإسلامبولي ، بلغه الله تعالى المنى ، وأزال عنه العناء ، فمن عظيم لطفه وكبير تواضعه ، التمس من الفقير الإجازة ، فلم أستطع له رداً (ولم)[1] أجد من امتثال أمره بُدّا ، هذا وقد أخذ الأكابر عن الأصاغر ، وعدّ لهم ذلك من المفاخر .

فأقول ، راجياً من الله بلوغ المأمول : قد أسمعني حضرة عزيزنا شيخ الإسلام طرفاً من هذا الكتاب وأسمعته منه طرفاً ، وقد استخرت الله تعالى وأجزت مولانا به ، وأوصي حضرة المشار إليه المجاز المذكور أن لا ينساني من صالح دعواته في خلواته ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد السادات ، وعلى آله وصحبه ، وجنده وحزبه، قاله بفمه ، ورقَمه بقلمه ، فقير رحمة ربه ، وأسير وصمة ذنبه ، مصطفى البنّاني المالكي الأزهري ، تحريراً في ثامن شوال من شهور سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف ، من هجرة من له العز والشرف ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى ...

● وكتب على حاشية شرح التلخيص المشتهر بالمختصر ، للسعد التفتازاني ، التي جردها من هوامش نسخة شيخه العلامة الشيخ محمد الصبان مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي رفع أهل العلم درجات وأسند إليهم الأمور ، والصلاة والسلام على أول الأوائل المخلوق من النور ، سيدنا محمد وآله وأصحابه ، وذريته وأزواجه وأحبابه .

(١) زيادة للسياق .

وبعد :

فيقول العبد الفقير الفاني ، مصطفى بن محمد البنّاني : قد سمع مني وأسمعني ، شيخ الإسلام والمسلمين ، المولى الذي أضاءت بغرر محاسنه جباه الليالي والأيام ، وأسفرت عن لطائف أفهامه مخدرات الأحكام ، المتوّجة بوشاح الإحكام ، من امتلأت بحبه القلوب ، وأزال الكربة بحكمه الفصلِ عن كل مكروب ، وسار في مصر سيرة عمرية ، وأدرك ماخفي على كثير من سلفه بفطنة لوذعية ، وانتظمت بجميل أحكامه القضايا ، حتى قيل : كم في زوايا الروم من خبايا . ! مع ماحوى من إدامة اكتساب الفضائل ، وملازمة أهل الفضائل ، في البكور والأصائل ، قاضي قضاة العساكر المصرية ، وحاكم الشريعة بالديار المعزّية ، كنز اللطائف ، ومعدن المعارف ، مولانا أحمد أفندي عارف ، ابن الإمام الهمام الحَبر الفهامة ، القدوة العمدة العلاّمة ، مولانا إبراهيم أفندي عصمة بك الحسيني الإسلامبولي ، لا زال ملحوظاً محفوظاً بجده الأمين . آمين : أوراقاً من هذه الحاشية المسماة بـ (معالم التنصيص ، على ماخفي من شرح التلخيص) ثم طلب مني لحسن ظنه بي الإجازةَ ، وما دري ـ حفظه الله تعالى ـ أنني لست أهلاً لذلك . ولا ممن يخوض تلك المسالك ، فلم يسعني إلا إجابته لمطلوبه ، وإسعافه في مرغوبه ، فقلت مستعيناً بالله تعالى ومتوكلاً عليه سبحانه : أجزت شيخ الإسلام الطالب المذكور ، ضاعف الله تعالى لنا وله الأجور ، بهذه الحاشية ، وأوصيه أن لا ينساني من دعائه المستطاب ، إذ دعاء المحبين في ظهر الغيب مستجاب .

قال ذلك بفمه ، ونمقه بقلمه ، مصطفى بن محمد المذكور ، غفر الله تعالى ذنبه ، وستر عيبه ، في تاسع شوال من شهور سنة سبع وثنتين ومائتين وألف ، من هجرة من له العزّ والشرف ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى ...

● ومنهم الفاضل الكامل ، والراقي بعليّ همته إلى قنة[1] الفضائل ، حسنة الدهر الشرس العاتي ، مولانا الشيخ علي الساداتي ، أجازه نثراً ثم قال مرتجزاً ، ولمّا أرسله فخرّه أولاً معزّزا :

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن وفق للحديث ‌ ‌ ‌ بالحفظ والتخريج والتحديث
مصلياً على الذي لا ينطق ‌ ‌ ‌ عن الهوى ، والوحي منه المنطق
وآله وصحبه الذينا ‌ ‌ ‌ قد دوّنوا العلم لنا تدوينا
وكل راوٍ للكتاب والسنن ‌ ‌ ‌ وكل حَبْر اقتفى هذا السَّنَن
حتى روى من الصحيح والحسَن ‌ ‌ ‌ آحادا أو تواترًا لنا علَن
متصلٌ إسناده مرفوعاً ‌ ‌ ‌ وبيّن الضعيف والموضوعا[2]
ودوّنوها بالأسانيد التي ‌ ‌ ‌ تقصم ظهر الخصم ، فادفع بالتي[3]
قد نضّر الله وجوههم ففي ‌ ‌ ‌ نور محيّاهم إضاءةً تفي[4]
بأنه للحُسْنَيين أحرزا ‌ ‌ ‌ جزاهمُ الرحمن أحسن الجزا
وبعد قد أتحفنا المولى العلي ‌ ‌ ‌ في عام سبع وثلاثين تلي
من المائتين بعد الألف ‌ ‌ ‌ بمن قضى حقاً بغير حيف
علّامة العصر الإمام أحمد ‌ ‌ ‌ العارف الحبر الهمام الأوحد
قاضي قضاة المسلمين ، من نشَرْ ‌ ‌ ‌ لواءَ عدل في القضايا ، فانتشر

(1) القُنّة : (بضم القاف) وكذلك القلة : قمة الجبل ، وأعلى كل شيء قُنّته .
(2) في هذا البيت والذي قبله ألقاب بعض أنواع الحديث النبوي الشريف ، التي يحسن الرجوع في تعاريفها إلى كتب المصطلح .
(3) أي فادفع عند النقاش بالتي هي أحسن .
(4) يشير إلى حديث : نضّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها .. إلخ . ونضر : بمعنى جمل وحسن ومنه قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) .

فخر الورى ، كشّاف كلّ معضِل ‌ ‌ ‌ بلّغه الله جميعَ المأمل
ألزمني هذا الجناب العالي ‌ ‌ ‌ نظماً يفوق الدرَّ واللآلي
مرصّعاً بجوهر الإجازة ‌ ‌ ‌ له بما لنا من الرواية[1]
عن شيخنا الحبر الهمام المعتلي ‌ ‌ ‌ الشنويهي[2] بإسناد علي
إجازة ، وشيخنا الشرقاوي ‌ ‌ ‌ والعالم الصبّان ، والعماوي[3]
وشيخنا داود القلْعاوي[4] ‌ ‌ ‌ شاركه عن أحمد البرْماوي[5]
وشيخنا المهديّ[6] قد صحبته ‌ ‌ ‌ أجازني بكل ما رويته
وكلهم يروي عن الحفناوي ‌ ‌ ‌ أعظم به من حجة للراوي
وما رويت عن صحيح مسلم ‌ ‌ ‌ عن السَّمَنّودي[7] الإمام العلَم

(1) خطأ في القافية ، لأن حرف الرويّ في الرواية غيره في الإجازة .
(2) لعلها الشنواني : وهو محمد بن علي بن منصور الشنواني (نسبة إلى شنوان الغرف ، من قرى المنوفية) ، الشافعي ، تولى مشيخة الجامع الأزهر . من تصانيفه : (حاشية على مختصر البخاري لابن أبي جمرة) ، وتوفي سنة ١٢٣٣ هـ (الأعلام ٦ : ٢٩٧) .
(3) **العماوي** : لم أعثر على ترجمته .
(4) **داود القلعاوي** : لم أعثر على ترجمته .
(5) **أحمد البرماوي** : أحمد بن إبراهيم بن محمد البرماوي (بكسر الباء وسكون الراء) الشافعي ، من تصانيفه : (الميثاق والعهد في شرح من تكلم في المهد) ، توفي سنة ١١٠٦ هـ . (معجم المؤلفين ١ : ١٤٢) .
(6) **المهدي** : هو الشيخ محمد الحفني ، ولد من أبوين قبطيين في مصر سنة ١١٥٠ هـ ، وكان اسمه هبة الله ، وأسلم وهو صغير دون البلوغ على يد الشيخ الحفني ، فنسب إليه ، وتلقب بالمهدي ، وفارق أهله وتبرأ منهم ، واشتغل بطلب العلم حتى نال منه الحظ الأوفر ، وأصبح من مدرسي الأزهر ، ورافق طوسون باشا في حربه لآل سعود ، وتولى منصب شيخ الإسلام سنة ١٢٢٧ هـ ، من تصانيفه : (تحفة المستيقظ والآنس في نزهة المستنيم الناعس) مات سنة ١٢٣٠ هـ . (أعيان القرن الثالث عشر ص ١٥٩) .
(7) **السمنّودي** : محمد بن حسن بن محمد الأزهري الشافعي (١٠٩٩ ـ ١١٩٩ هـ) السمنودي ، (نسبة إلى قرية سمنّود بمصر) ، تولى مشيخة الأزهر انتزاعاً من المالكية ، من تصانيفه : =

أجزتكم ـ ولست أهلاً ـ ألتمس … دعاكمُ ، والعلمَ منكم أقتبس
بالكتب الستة والتفسير … معترفاً بالعجز والتقصير
ثاني ذي القعدة يوم الأحد … والحمد لله القديم الأحد
مصلّياً على الرسول المصطفى … وآله ومن بعهده وفى
وكلّ من وُفّق للخيرات … وقائلِ النظم علي الساداتي

● ومنهم الفاضل الذي غدت فضائله غرر الفضائل ، ودررَ عقودِ مآثر الأفاضل ، الألمعي الأوحدي ، مولانا الشيخ أحمد السّردي[1] ، عليه رحمة المعيد المبدي ، أجازه نثراً ثم أتبعه من غير عَجْز ، بما يحاكي الزلال من بحر الرجز ، فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقير ذو المساوي أحمد : … الله ربي ذا الجلال أحمد
مصلياً على النبي الهادي … وآله وصحبه الأمجاد
مسلماً أزكى سلام يُهدَى … بلا انقطاع ونفاد أبدا
ما قال راوٍ في المَلا : حدثنا … أهلُ الحديث والوثوق[2] والثنا
وبعد ذا فالعمدة العلامة … العارف المحقق الفهامة
قاضي قضاة الدين في القدس الشريف … تاج المعالي ، صاحب المجد المنيف
سلالة الزهرا البتول : أحمد … العارف المعظّم المُمجّد
نجل الشريف الحَبْر إبراهيما … العصمة الذي حوى التعظيما

= (الدرر الجسام) في الفقه ، و (تحفة السالكين) في التصوف ، وكتب أخرى في القراءات . (الأعلام ٦ : ٩٢) .

(١) أحمد السردي : لم أعثر على ترجمته .

(٢) في الأصل : (والرثوق) .

للسردي العبد أضحى أمرا … بكتبه إجازةً نظماً ترى
ولست أهلاً أن أجيز مثله … وكيف ذا وما بلغت فضله
لكنني لأمره ابتدرت … من بعد ما وقعت واعتذرت
فقد أجزت حضرة المذكور … بكتُب الحديث والتفسير
كالجامع الصحيح للبخاري … ومسلمٍ محقق الأخبار
كذلك التفسير للبيضاوي … ومثله الأذكار للنواوي
وأسأل الله تعالى لي وله … والمسلمين رحمةً مكمّلة
لا سيما المشايخ الأعلام … سحّ على قبورهمْ غمام
كعابد الرحمن مقري الحفني[1] … وكالبُديريّ[2] شبيه الحصن
محمد بن بدر القدسيّ … كنز التقى والدين دن السنيّ
وكالإمام الشهم شيخ الأزهر … هو البُجَيرمي سليمان ، السري
كلٌّ أجازني وقد قرأت … عليه ، إذ لازمت فأشفعت
بكتب التفسير والحديث … من سابق ولاحق حديث
جزاهمُ الله تعالى خيرا … وكف عنهمْ عنتاً وضيرا
وفي جنان منّه أسكنّا … معْهمْ ، ومن جوارهم مكّنا[3]

● ومنهم الفاضل الذي أقرّ بواسع فضله ذوو الألباب ، وطار صيته في البلاد والجبال والشعاب ، مولانا الشيخ محمد بن محمد صالح الشعّاب[4] ، عليه رحمة الله الملك التواب . وكتب مانصه :

(١) الحفني : هو شيخ محمد المهدي السابق ذكره .

(٢) البديري : قد يكون المقصود : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد البديري ، الحسيني الدمياطي ، شافعي محدث ، من مؤلفاته : (شرح منظومة البيقوني) في مصطلح الحديث ، و (الجواهر الغوالي في بيان الأسانيد العوالي) - خ - توفي سنة ١١٤٠ هـ . (الأعلام ٧ : ٦٥) .

(٣) في الهامش : (وكان ذلك سنة ١٢٢١) ، غير أن الثلاثة غير واضحة .

(٤) الشعاب : لم أعثر على ترجمته .

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي وفق كل عارف من عباده لاقتفاء سنن المرسلين ، وجعله أحمد من اهتدى لطرق الصواب في أمور الدين ، وأفاض عليه بمقتضى الحكمة عصمة تعصمه عن الوقوع في التخليط والتوهيم ، فتراه سالكاً على وفق كريمة : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتّبِعْ ملة إبراهيم ﴾[1] .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أوضح لأمته سبل الهداية ، فسلكوا بباعث التيسير الإلهيّ سبيل الرشاد ، بضبطهم الإسناد في الرواية ، صلاة وسلاماً ننتظم ببركتها في سلك أهل الصلاح ، ونحمد عاقبتها كا يحمد القوم السُّرى عند الصباح .

وبعد :

فإن مولانا الإمام الفاضل العلامة ، وسيدنا الهمام الكامل الفهامة ، واسطة عقد الفضلاء الكرام ، ودرة تاج النبلاء الفخام ، ذا الفضائل التي يعجز عن حصرها القلم واللسان ، والمعارف التي شهد له بها كل أحد من قاص ودان ، المحقق الذي إذا شاهدت تحقيقاته علمت أن السعد صار له رقا ، وإذا أبصرت تدقيقاته قلت : هذا هو السيد الشريف حقا ، مرشد الطلاب ، وقدوة ذوي الألباب ، سيدنا ومولانا السيد أحمد بك عارف أفندي - لا زال في حفظ المعيد المبدي - ، نجل الإمام الفاضل ، والهمام الكامل ، السيد إبراهيم عصمة بك أفندي المشهور - لا برحت سحائب الرحمات تنهلّ على ضريحه الأقدس مدى الدهور ، آمين - .

قد سمعت من لطفه الشريف جميع كتاب (دلائل الخيرات) ، بأحسن قراءة مضبوطة في نحو ثلاث ساعات ، ثم لما تمّت القراءة المرقومة - إن شاء الله تعالى -

(1) [النحل : ١٢٣] .

في صحائف القبول والتشريف ، التمسَ من هذا الحقير الإجازة بقراءة هذا الكتاب المنيف ، مع أن الواجب أن يكون هو المجيز وأنا المجاز ، وذلك لعلمي بأني لا أجاريه في فضل ، لا على الحقيقة ولا على المجاز ، ولكن لما كان امتثال الأمر خيراً من سلوك الأدب ، عملت بأمره الرفيع ، لأنه تحتم عليّ امتثاله ووجب ، فأقول : أروي كتاب (دلائل الخيرات وشوارق الأنوار) عن جملة من المشائخ الفضلاء الكبار ، أعلاهم فيها سنداً ، وأشرفهم أصلاً ومحتداً ، سيدنا ومولانا وبركتنا السيد علي بن عبد الله الونائي الحسيني الشافعي - روّح الله تعالى روحه ، ونوّر ضريحه - ، عن شيخه العلامة السيد محمد مرتضى الزبيدي الحنفي[1] ، عن السيد نور الحق[2] ، عن السيد سعد الله الهندي[3] عن الشيخ عبد الشكور المعمر[4] ، عن مؤلفها السيد الشريف محمد بن سليمان الجزولي[5] ، رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وأرويها أيضاً من طريق الولي الكبير ، سيدي عبد الرحمن المحجوب المغربي ثم المكي ، المدفون في الشبيكة ، عن شيخنا المرحوم بِكَرم الله تعالى قاسم بن علي

(1) **محمد الزبيدي** : هو محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي ، ومرتضى لقبه . ولد بواسط سنة ١١٤٥ هـ . ونشأ بزبيد وتوفي بمصر سنة ١٢٠٥ هـ ، علامة في اللغة والحديث والرجال والأنساب . وكان له شان كبير في عصره بين العامة والخاصة ، وله كتب كثيرة أشهرها : (تاج العروس في شرح القاموس) . (الأعلام ٧ : ٧٠) .

(2) **نور الحق** : لم أعثر على ترجمته .

(3) **سعد الله الهندي** : لم أعثر على ترجمته .

(4) **عبد الشكور المعمر** : لم أعثر على ترجمته .

(5) **محمد بن سليمان الجزولي** : محمد بن سليمان بن داود بن بشر الجزولي ، الشاذلي (٨٠٧ - ٨٧٠ هـ) مراكشيّ ، من مؤلفاته : (دلائل الخيرات) الذي أشار إليه المؤلف ، ولعل من المناسب الإشارة إلى أنه كتاب في حاجة إلى تنقية دقيقة . وهو من مشائخ الطرق المعروفين . (الأعلام ٦ : ١٥١) .

التونسي[1] ، نزيل المدينة المنورة ، عن شيخه سيدي عبد الله السوسي ، عن خاتمة المحدثين سيدي الشيخ عبد الله بن سالم البصري المكي ، عن شيخه سيدي عبد الرحمن بن أحمد المحجوب ، عن والده سيدي الشريف أحمد ، عن والده سيدي الشريف محمد ، عن والده سيدي الشريف أحمد ، عن المؤلف رحمه الله تعالى ورضي عنه . قال ذلك ورقمه بقلمه أحقر الطلاب ، المفتقر إلى عفو الكريم التواب ، محمد بن صالح الشعاب ، المدني الأنصاري الحنفي ، عامله الله تعالى بلطفه الخفي ، حامداً الله تعالى ، مصلياً على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ثم قال : وقد أجزت مولانا المشار إليه بها وبكل ماتجوز لي روايته من فقه وحديث وغير ذلك ، بشرطه المعتبر عند أهله ، وأرجو أن لا ينساني من صالح دعواته ، في خلواته وجلواته ، والحمد لله رب العالمين .

قاله الفقير محمد الشعاب المذكور ، تاب الله تعالى عليه ، آمين .

انتهى ...

● ومنهم الفاضل الآخذ من بسيطة الفضائل بقرنيها ، والمسخر له ريح الإدراكات تجري بسليمان ذهنه السليم بين لابتيها ، الكوكب الدرّي ، الشيخ محمد بن سليمان العلاّف السكندري ، أترع الله تعالى له كاسات لطفه الهنيء المريء ، وكتب له مانصه[2] :

(1) قاسم بن علي التونسي : المالكي ، الملقب بزَيّرو ، نزل المدينة ثم قدم حلب وسكن بها إلى أن توفي سنة ١٢١٥ هـ ، له : (حاشية على إعراب الألفية لخالد الأزهري) ، و (رسالة في تفسير قوله تعالى : والله خلقكم وما تعملون) . (هدية العارفين ١ : ٨٣٤) .

(2) في الأصل : (مانصه وكتب) .

بسم الله الرحمن الرحيم .

حمداً لمن وفق من شاء من عباده ، للاشتغال بحديث صفوته ومعدن وداده ، وصلاة وسلاماً على من به يبلغ كل راغب غاية مرغوبه ومراده ، وعلى آله وصحبه المتصلة بهم نسبته وسلسلة إسناده .

وبعد :

فقد اجتمع بي في ثغر الإسكندرية ، حماها الله تعالى من كل آفة وبلية ، الإمام الفاضل ، والهمام الكامل ، اللوذعي اللبيب ، والألمعي الأريب ، السيد الشريف ، الحاذق اللطيف ، من هو بكل فن عارف ، مولانا العمدة ، السيد أحمد عارف أفندي نجل المرحوم المحترم المعظم عصمة بك أفندي ، عاملني الله تعالى وإياه بالإحسان ، ولطف بي وبه في كل وقت وزمان ، إنه ولي التوفيق ، والهادي لأقوم طريق ، وأسمعني الأربعين النووية بتمامها ، وبعضاً من هذا الصحيح للإمام مسلم ، وبعضاً من كتاب (الشفا) ، والتمس مني أن أجيزه بهذه الكتب المذكورة ، تبركاً باتصال الإسناد إلى مشائخي المشهورة ، فأجبته إلى ذلك الالتماس ، وهو يومئذ قاصد حج بيت الله الحرام الذي أوجبه على الناس ، وذلك لثلاث وعشرين مضين من شعبان ، سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف ، بلغني الله تعالى وإياه المأمول ، وأعاده سالماً إلى وطنه إسلامبول . وقد أجزته بهذه الكتب وبقية كتب الحديث كلها ، رواية ودراية ، وبكتب المعقول والمنقول ، بالشرط المعتبر[1] ، عند أربابه من أئمة الحديث والأثر ، كما أجازني بذلك شيخنا العلامة الأمين ، واتصل سندنا بثبته الشهير ، وكذلك العلامة الدسوقي ، وأستاذي ووالدي وكثير من الأئمة الأعلام ، نفع الله تعالى ببركاتهم جميع الأنام ، والله تعالى يوفقنا وإياه إلى كل مافيه محبته ورضاه .

(1) في الأصل : (بشرط المعتبر) .

ثم الصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف الأنام ، وعلى آله وأصحابه مدى الأيام ، وأنا الفقير محمد سليمان العلاف السكندري المالكي .

انتهى ...

● ومنهم الفاضل الشنقيطي الذي قدمنا ذكره في جواب السؤال عن أرفع أجزاء الأرض على تقدير كرويّتها ، وله عليه الرحمة أرجوزة طويلة في إجازة حضرة المولى المترجم ، سلمه الله تعالى من كل ألم ، وهي في نظر فن الأدب ، كالطاووس أحسن مافيها الذنب ، وهو قوله :

وها أنا الشنقيطي الحقير ... وفي العلوم باعه قصير

(أجزت عارفاً كما أُجِزْتُ) ... مؤرخاً : وموعدي أنجزت

وشَطْر التاريخ[1] ـ لعمري ـ قد أخذ من الحسن شطره ، ولا يبعد أن يكون قد أخذه كلَّه بالمرة ، لكنه على خلاف الأسلوب المعتاد ، وهو تأخير مابه التاريخ عن لفظ : مؤرخاً ونحوه ، مما يدل على ذلك المراد ، ولعل ذلك عادة للمغاربة ، فلا بأس (ح)[2] غالبة كانت أو غير غالبة .

● ومنهم البحر الرائق ، وكنز الدقائق ، ومَنْ كلامه تنويرُ الأبصار ، والدر المختار ، ذو التأليفات الشريفة ، وقرة عين الإمام الأعظم أبي حنيفة ، العالم الزاهد ، الشيخ محمد عابد[3] ، غمره الله تعالى بمزيد العوائد ، وكتب مانصه :

(1) يقصد بشطر التاريخ قوله : (أجزت عارفاً كما أجزت) وهو تاريخ إجازته للشيخ بالحساب الأبجدي . والعادة السائدة أن يأتي التاريخ بعد قولهم : (مؤرخاً) ونحوه ، لأن يتقدم .

(2) كذا في الأصل .

(3) محمد عابد : محمد عابد بن علي بن أحمد بن محمد مراد السندي ثم الأنصاري ، (١١٩٠ - ١٢٥٧ هـ) ، كان السند مستقرّ جده الذي انتقل أخيراً إلى مكة ، واشتهر محمد عابد بالطب ، كما له مشاركات في العلوم الأخرى ، حنفي المذهب ، وانتقل إلى الحديدة ، ثم طلبه صاحب =

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي تواتر فضله المشهور ، والصلاة والسلام على أفضل مرسلٍ وصل كل منقطع عن الله تعالى الغفور ، وعلى آله الذين واظبوا على الحسن من العمل الصحيح ، وصحبه الذين سادوا بالفضل الصريح .

وبعد :

فيقول محمد عابد ـ تاب الله تعالى عليه وعلى والديه ـ : إنه لما تفضل ربنا ـ تعالى وتقدس ـ بالاتفاق بحضرة العلامة الفهامة ، من ساد أهلَ الفضل والاستقامة ، وفاق أهل عصره ، وسما في فخره ، سيدنا الشيخ أحمد عارف : وجدته خير عارف بدقائق العلوم العقلية ، وأجلّ عالم بالقوانين النقلية ، وأفضل حافظ للأحاديث النبوية ، ورغب في سماع هذه الأوراق التي حررتها وأمليتها عليه ، فقد تم له سماع ذلك ، مع سماع أول صحيح مسلم إلى كتاب الصلاة ، وصحيح البخاري إلى كتاب الطهارة ، وسماع أول شرحي على مسند أبي حنيفة ، وطلب مني ـ حسنَ ظن منه ـ إجازة فيها ، وفي جميع مايجوز لي روايته ، فلم أجد من امتثال أمره بداً ، وإلا فأنا أحقر من أن أذكر ، فأجزت له ـ امتثالاً لأمره ـ أن يروي عني ماذكرته ، وتتمة تلك الكتب مع بقية السنن ، وسنن ابن ماجه والدارمي والبيهقي والدار قطني ومصنف ابن أبي شيبة ومستدرك الحاكم ، وجميع مااشتمل عليه ثبت مولاي العلامة الفهامة ملحق الأصاغر بالأكابر ، الشيخ صالح الفلاّني ، وجميع مااشتمل عليه : (الإمداد في معرفة الأسناد) ، للشيخ عبد الله بن سالم البصري ، فإني أرويه من طريق : من فاق في دهره ، وعزّ وجود مثله في عصره ، مولاي وشيخي وعمّي صنو أبي ، من حاز علم الأديان والأبدان ،

= صنعاء المنصور بالله للانتفاع بطبه ثم المتوكل ثم المهدي ، وأرسله الأخير إلى مصر بهدية إلى محمد علي باشا ، فلاحظ على علمائها الإغراق في التقليد والتصوف ، ثم إنه رحل إلى المدينة ومات فيها ودفن بالبقيع كما قال الضدي . (البدر الطالع ٢ : ٢٢٧) .

الشيخ محمد حسين بن مراد[1] ، الواعظ الأنصاري ، وهو يرويه عن شيخه محمد بن محمد بن عبد الله المغربي[2] ، شيخ الشيخ صالح الفلاني ، وهو عن مؤلفه ، وجميع ماشتمل عليه (الأَمَم في إيقاظ الهمم) ، فإني أرويه عن مولاي العلامة ، من سارت بفضله الركبان ، وفاق في دهره على الأقران ، الشيخ يوسف بن علاء الدين المزجاجي الزبيدي[3] ، وهو تلقاه عن شيخه الشيخ عبد الخالق بن أبي بكر المزجاجي[4] ، وهو من مؤلفه ، وجميع ما في مسلسلات ابن عقيلة[5] ، فإني أرويه عن مولاي القطب[6] العلامة ، من لا يماثله ولا يدانيه غيره في عصره ، مولانا السيد عبد الرحمن بن سليمان[7] ، أبقاه الله تعالى وأمتع المسلمين بحياته ، وهو

---

(١) **محمد حسين بن محمد مراد :** لم أعثر على ترجمته .

(٢) **محمد بن محمد المغربي :** أصلا ، المدني ، المالكي (١١١٩ ـ ١٢٠١ هـ) ، أقعد قبل موته بسنتين وأربعة أشهر ، وكان من كبار علماء المدينة المنورة ، وبها توفي ودفن بالبقيع . (أعيان القرن الثالث عشر ٣٤) .

(٣) **المزجاجي الزبيدي :** هو الحافظ يوسف بن محمد بن علاء الدين الحنفي (١١٤٠ ـ ١٢١٣ هـ) ، نشأ بزبيد وأخذ عن علمائها ومنهم والده محمد ، ثم رحل إلى صنعاء ، وأخذ الناس عنه ، ومنهم الشوكاني ، ومما أخذه عنه (الأمَم) عن أبيه عن جده علاء الدين عن مؤلفه . وأيضاً عن أبيه عن مؤلفه . (البدر الطالع ٢ : ٣٥٦) .

(٤) **عبد الخالق المزجاجي :** عبد الخالق بن الزين بن محمد بن الصديق المزجاجي الحنفي الزبيدي ، أخذ عن والده وعمه علاء الدين وغيرهما ، ورحل إلى الحرمين ثم رجع إلى صنعاء ، وفيها أخذ عنه جماعة منهم : السيد محمد بن إسحاق ، والسيد محمد بن إسماعيل الأمير ، مات سنة ١١٥٢ هـ . (ملحق البدر الطالع ص ١١٤) .

(٥) **ابن عقيلة :** محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكي شمس الدين ، المعروف والده بعقيلة ، مؤرخ محدث ولد وتوفي بمكة . من تصانيفه : (لسان الزمان) في التاريخ . و (الفوائد الجليلة في مسلسلات محمد بن أحمد عقيلة) ، وهو الذي أشار إليه المؤلف مات سنة ١١٥٠ هـ . (الأعلام ٦ : ١٣) .

(٦) هذا تعبير صوفي .

(٧) **عبد الرحمن بن سليمان :** هو عبد الرحمن بن سليمان بن يحيى بن عمر بن مقبول الأهدل =

تلقاه عن والده مولانا السيد سليمان بن مقبول الأهدل[1] ، وهو عن مؤلفها . وليكن هذا آخر كلامنا ، وبالله تعالى التوفيق . حرر في ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف .

انتهى ..

● وكتب أيضاً مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله المتواتر فضله ، والصلاة والسلام على أفضل مرسل طاب أصله ، وآله وصحبه الذين فاق ذكرهم المرفوع ، وأتباعهم الذين شمروا عن ساق الجد في إنكار كل منكر وموضوع .

وبعد :

فيقول محمد بن أحمد علي[2] ـ غفر الله تعالى ذنوبه ، وستر عيوبه ـ : قد تم لمولاي العلامة الفهامة ، رأس أئمة أهل الفضل والاستقامة ، أجلّ من فاق في فخره ، وسما في نفح مسك فضله ونشره ، مولانا الشيخ أحمد عارف ، لا زال أحمدَ عارفاً[3] لأسرار المعارف ، ـ آمين ـ : سماعُ[4] هذه الوصايا الشريفة النبوية

= الحسيني الطالبي (١١٧٩ ـ ١٢٥٠ هـ) ، الشافعي الزبيدي (ولد ومات في زبيد) ، من تصانيفه : (النفس اليماني) مخطوط في التراجم ، و (الجنى الداني على مقدمة الزنجاني) في الصرف . (الأعلام ٣ : ٣٠٧) .

(١) **سليمان الأهدل :** هو سليمان بن يحيى بن عمر بن مقبول ، أبو المحاسن الأهدل الشافعي (١١٣٧ ـ ١١٩٧ هـ) الزبيدي ، محدث اليمن في عصره ، أخذ عن أعيان زبيد ، منهم والده يحيى ، ومحمد بن علاء الدين المزجاجي . من تصانيفه : (وشي حِبَر السمر في شيء من أحوال السفر) . (الأعلام ٣ : ١٣٨ ـ والبدر الطالع ١ : ٢٦٧) .

(٢) **محمد بن أحمد علي :** لم أعثر على ترجمته .

(٣) في الأصل : (أحمدَ عارف) .

(٤) سماع : هي فاعل : تَمّ ، من قوله : قد تم لمولاي .. إلخ .

المجموعة ، لشيخي وأستاذي وقدوتي الأوحد النحرير ، مولانا السيد عبد الرحمن[1] ، أبقاه الله تعالى غوثاً[2] للعباد ، وعوناً للحاضر والباد ، في جمادى الأولى في المسجد الشريف النبوي ، وقد رويتها عن جامعها المذكور ، فأجزت للمذكور روايته عني عن مؤلفها ، وفقني الله تعالى وإياه لاتباع مافيها ، والتمسك بها ، إنه سميع قريب مجيب .

حرر في جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف .

انتهى ..

● ومنهم الفاضل ذو المحامد ، والفضائل التي لا يرى لها جاحد ، حليف الوفاء ، وأليف الصفاء ، الشيخ إسماعيل المحامدي الحنفي[3] ، لا زال لطف مولاه به خير حفيّ .

ومما كتب ، وأتى فيه بالعجب ، مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

لمولانا المحامد والمثاني ... على نعم مشيّدة المباني
ومنها أحمد المبعوث فينا ... يسوق المهتدين إلى الجنان
عليه من الذي أولاه عزّاً ... صلاة ، والسلام مدى الزمان
وكلّ المرسلين ، وآل كلٍّ ... ومَن سمْحاً شريعتهم يعاني
وبعدُ فخير مايُسعى إليه ... علوم الشرع ، مصرف كلّ ران
ومما ليس يخفى أن فيها ... إلى علم الحديث مزيد شأن

(١) عبد الرحمن : هو عبد الرحمن بن سليمان المتقدم .
(٢) هذا تعبير صوفي ، وأحسن محمل لقبوله أن يكون هذا الشيخ أثناء حياته غوثاً للعباد بتعليمهم وحل معضلاتهم ومشاكلهم والقضاء بينهم . وإلا فلا مغيث إلا الله .
(٣) إسماعيل المحامدي : لم أعثر على ترجمته .

تلقته الأفاضل عن رجال ... ثقاتٍ في الرواية والبيان
وقد سارت ركائب كلّ مجد ... تقول : أتاكمُ فرْد الأوان
أفنديٌّ وعارفُ كل فضل ... يقول لغيره : أنّى تراني .؟
هو السعد المحقق إن تصدّى ... إلى علم المعاني والبيان
عصام الفكر عن خطا وغيٍّ ... هو الكشاف للسبع المثاني
فشاهدناه زاد وفاق وصْفاً ... وما خبرٌ أتى لك كالعيان
فشرّفنا ، ويحصلُ مثلُ هذا ... إذا ماحلّ[1] يوماً في مكان
ومن أخلاقه قد جاء يرجو ... إجازة مابثبتي قد أتاني
من الأشياخ ، واعجباً يجاز الْـ ... ـمشار له بأطراف البنان
ولكنّي أجزت بكل مالي ... روايته ، لذلك قد دعاني
فلا زالت رعايته توافي ... محبته ، يقارب أو يداني
ومن ربي صلاة مع سلام ... على المختار ذي الشّيم الحسان
وآلِ والصحابةِ ماتغنّت ... حمامات على أغصان بان

● ومنهم ذو الذهن الوهاج ، والسالك في كسب الفضائل منهاجاً ليس له من هاج ، الفاضل الذي درياق[2] علمه من سم الجهل شافٍ ، مولانا الجليل الشيخ نصر الكافي[3] ، غمره الله تعالى بلطفه الوافر الوافي ، وكتب مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي وصل إسناد من شاء إليه ، وسلّمه من الانقطاع ، وأوضح سَنَن السُّنن بالشواهد الموجبة للمتابعة وعدم الابتداع ، أحمده على متواتر كرمه

(١) في الأصل : (حصله) .
(٢) درياق : كالترياق ، وهو الدواء .
(٣) نصر الكافي : لم أعثر على ترجمته .

الذي عمَّ به سائر الآحاد ، وأشكره على مسلسل نعمه التي لا يجحدها أحد من الأفراد . والصلاة والسلام على من رفع عنا بهديه كل معضل ومنكر ، المرسل بالحجة البيضاء ، إلى الأسود والأحمر . وعلى آله وصحبه الأمجاد ، المنتهي إليهم علوّ الإسناد .

وبعد :

فلما كان من خصوصيّات هذه الأمة بقاء سلسلة الإسناد ودوام الاتصال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى يوم القيامة : وجب أن يَهتَمّ[1] بذلك ويرغب فيه ، وإن ممن وفقه الله تعالى للعمل بهذه الفضيلة ، والتحلّي بحليتها الفاخرة الجليلة ، الفقيه النبيه ، الخيّر النزيه ، العالم العلامة ، الدراكة الفهامة ، حسنة الأوان ، ورئيس ذوي العلم والعرفان ، الحائز من كل علم أوفر نصيب ، والضارب فيه بالقِدْح[2] المصيب ، أبا المطيع أحمد عارف الحسيني ، لزيادة اشتغاله برواية الحديث ودرايته ، خصوصاً صحيحيْ : محمد بن إسماعيل ، ومسلم بن حجاج ، حتى صار هِجّيراه[3] ، وغاية مقصوده ومنتهاه ، طلب من كاتبه الواضع اسمه عقب تاريخه الإجازة ، ليتصل سنده ، ويقوم أوده ، فأجبته وإن لم أكن أهلاً . وأقول : قد أجزته في الصحيحين المذكورين وغيرهما ، كالأربعين النووية ، بعد سرده علينا جملة صالحة من ذلك ، فرأيناه ، أهلاً لذلك ، بشرطه بالسند العالي في المسلسلات ، المنتقى عن شيخنا المرحوم المنعم الزكي العلامة

(١) في الهامش : (وجب أن يتلقى ذلك) .

(٢) القِدْح : (بكسر القاف وسكون الدال) : وأصله قطعة من الخشب تعرّض قليلاً وتسوّى ، وتكون في طول الفِتْر أو دونه ، وتخط فيه حزوز تميز كل قدح بعدد من الحزوز ، وكان يستعمل في الميسر ، وفي التعرف على المستقبل ، حيث يكتب على بعضه : (لا) وعلى الآخر (نعم) ، وفي القرعة . والقِدْح المعلى : الحظ الأوفر .

(٣) هِجّيراه : (بكسر الهاء ، والجيم المشددة) : عادته وديدنه .

الشيخ صالح بن حسين الكوشي[1] ، عن شيخه المرحوم العلامة محمد ... الطرابلسي[2] أصلاً ، التونسي مسكناً ، عن الشيخ العارف ، الولي الصالح المراد المعتقد ، الشيخ موسى الجميني[3] . المقبور بجزيرة جرْبة ، عن شيخه الشيخ محمد الخراشي[4] ، عن الشيخ سالم السنهوري ، عن ابن حجر ، وقد نسب ابن حجر المذكور سنده في أول شرحه الذي سماه (فتح الباري بشرح البخاري) .

رقّم هذا راجي لطف ربه سبحانه الوافي ،خادم[5] العلم الشريف نصر الكافي ، في غرة محرم الحرام سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف ، والله تعالى يوفق الجميع في المآل والحَيْن[6] ، ويرحم الله تعالى عبداً قال : آمين .

انتهى ..

(١) **الكوشي** : (كذا في الأصل) والصحيح في اسمه : صالح بن حسن الكواش (أي الفرّان ، في لغة أهل شمال إفريقيا ، لأن والده حسن كان (فرّاناً) ولد وتعلم بتونس ، ودرس بجامع الزيتونة ، واضطر لمغادرة تونس بسبب ظروف سياسية ، ثم عاد إليها وتوفي فيها ، له بعض الكتب الصوفية (١١٣٧ - ١٢١٨ هـ) . (الأعلام ٣ : ١٩٠) .

(٢) **الطرابلسي** : يوجد بياض في الأصل بعد محمد بمقدار كلمة .

(٣) **الجميني** : كان رجلاً صالحاً يرجع أصله إلى نفزاوة بالجنوب التونسي ، من علماء القرن الحادي عشر الهجري . وقد تحدث عنه الورثيلاني في رحلته . (ص ٦٥٦) . وذكر أن لآل الجمني مدرسة علمية في جربة ، وأن من بين علماء هذه الأسرة : الشيخ إبراهيم الجمني الكبير ، أخذ عن الخراشي أيضاً . وإبراهيم الجمني الصغير ، ولم يذكر سنة الوفاة ، كما نلاحظ أنه ذكره من غير ياء .

(٤) **الخراشي** : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخراشي (نسبة إلى قرية بمصر ، من إقليم البحيرة تسمى (أبو خراش) المالكي ، أقام وتوفي بالقاهرة (١٠١٠ - ١١٠١ هـ) ، وكان أول من تولى مشيخة الأزهر ، من تصانيفه : (الشرح الكبير على متن خليل) في الفقه المالكي . و (الفرائد السنية شرح المقدمة السنوسية) في التوحيد . (الأعلام ٦ : ٢٤٠) .

(٥) في الأصل : (خديم) .

(٦) الحَيْن : (بفتح الحاء وسكون الياء) : الموت . وبكسر الحاء : الفترة من الزمن .

● ومنهم ذو المآثر والمفاخر ، وملحق الأصاغر بالأكابر ، حضرة مشهور الآفاق ، وعلاّمة الدنيا على الإطلاق ، البدر المنير ، مولانا الشيخ محمد الشهير بالأمير الكبير[1] ، قُدّس سره ، وغمرنا بره ، فقد أجازه بمصر مشافهة ولم يتيسر التحرير ، وكفى تبركاً مشافهةُ ذلك الأمير .

● ومنهم البحر العجاج ، والحَبْر الذي تضيق عن واسع فضله الفجاج ، المنيب الأوّاه ، والمجتهد في طاعة مولاه ، المولى الذي أضاءت أرجاء العلم بنور ذهنه الوهاج ، الشيخ الجليل عبد الله بن عبد الرحمن سراج[2] ، لا زال منوَّراً بمصباح الرحمة رَمْسه ، ولا برح آمناً من الخسوف بدرُ آثاره حتى تكوّر من الفلك شمسُه .

● ومنهم تاج الشريعة وصدرها ، وشمس الأئمة وفخرها ، صاحب حاشية (الدر المختار) ، التي طار صيتها بأجنحة القبول في الأقطار ، المولى الصفيّ ، الشيخ أحمد الطحطاوي الحنفي[3] ، تغمده الله تعالى برحمته ، ونفعنا والمسلمين ببركته .

---

(1) **محمد الأمير** : هو محمد بن محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز المالكي الأزهري ، الشهير بالأمير الكبير ، وهي شهرة جاءته من أحد أجداده كان أميراً بالصعيد المصري . وأصل أسرته من المغرب (١١٥٤ ـ ١٢٣٢ هـ) ، وكان صاحب مكانة علمية عالية ، من شيوخه : علي بن العربي السقاط ، ومحمد التاودي بن سودة وأحمد الجوهري وغيرهم . ومن تصانيفه : (المجموع) في الفقه المالكي و (حاشية على المغني لابن هشام) و (حاشية على شرح الشذور لابن هشام) وغيرها . (حلية البشر ٣ : ١٢٦٦) و (الأعلام ٧ : ٧١) .

(2) **عبد الله بن عبد الرحمن** : لم أعثر على ترجمته .

(3) **أحمد الطحطاوي** : كذا في الأصل ، والصحيح : الطهطاوي ، نسبة إلى طهطا بالقرب من أسيوط ، بمصر ، وهو أحمد بن محمد بن إسماعيل ، فقيه حنفي ، تعلم بالأزهر ، وتولى مشيخة الحنفية ، من تصانيفه : (كشف الرَّيْن عن بيان المسح على الجوربين) ، و (حاشية الدر المختار) أربع مجلدات في الفقه الحنفي ، وهي التي أشار إليها المؤلف . توفي سنة ١٢٣١ هـ . (الأعلام ١ : ٢٤٥) .

● ومنهم غزير المآثر والمفاخر ، عزيز الأشباه والنظائر ، ثبت العلماء الأعلام ، سند الحفاظ وحجة الإسلام ، ذو التأليفات الفائقة ، والتحقيقات الرائقة ، والأخلاق الزكية ، والأفعال الذكية ، الغيث الهامر الهامي ، مولانا هبة الله القاضي الشامي[1] ، أحله الله تعالى في ربوة قدسه ، وغوطة أنسه .

● ومنهم معدن الفضل والنبل ، من إليه تضرب آباط الإبل ، آية الله تعالى في الحديث ، وغوثه لكل طالب على[2] مستغيث ، ثالث النواوي والرافعي ، وقرة عين الإمام الشافعي ، شمس نهار الفضل الملازمة لنقطة الاعتدال بلا ميل ، شيخ مشائخنا ، الشيخ السجّاد زين العابدين جمل الليل[3] جعل الله تعالى قبره الشريف عطن رحمته ، وأباح لروحه القدسية مسارح جنته .

● إلى غير ذلك من العلماء الأعلام . السالم من كَلَف الرَّيب بدرُ علمهم التام ، وكلٌّ أجاز حضرة مولاي مشافهة وتحريراً ، ونشر من مدائحه أثناء ذلك عنبراً وعبيراً ، وأنّى يستطيع العبد العاجز تحرير جميع ما حرروه ؟ بل أنّى يطيق جمع عشر العشر مما زينوا به من مدائحه الرَّبْع المعمور وعطروه ؟ فلعمري إن ذلك أبعد من العيّوق[4] ،وأعز منالاً من بيض الأنوق ، وفي هذا الذي ذكرناه كفاية ، في الشهادة على جلال حضرة المشار إليه في الرواية والدراية .

---

(1) **هبة الله** : لم أعثر على ترجمته .

(2) كذا في الأصل ، ولعلها : طالب علم مستغيث ، حيث يغيثه بحل ما يسأل عنه .

(3) **زين العابدين جمل الليل** : هو زين العابدين بن علوي بن باحسن أبو عبد الرحمن الحسيني المدني (١١٧٤ ـ ١٢٣٥ هـ) الشهير بجمل الليل ، مفتي المدينة المنورة ومسندها ووفاته بها ، من تصانيفه : (راحة الأرواح) في الحديث . و (مشتبه النسبة) ، و (اختصار المنهج للقاضي زكريا) في فقه الشافعية . (الأعلام ٣ : ٦٥) .

(4) العيوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريّا لا يتقدمها . والأنوق : العُقاب ، أو الرَّخة .

ثم إن كل من ذكرنا درر كلماته في هذا السفَط[1] ، شيخ أجازه على الوجه الذي سمعت فقط . وأما من ثنى المولى ركبتيه بين يديه للاستفادة ، ولازم مجلسه الشريف يقرئ القراءة حسب العادة ، منهما على ما سمعت ـ اثنان ، هما في سماء العلم في الديار الرومية قمران :

أحدهما :

فاروق عصره ، في أرجاء قَروق[2] ، وعزيز مصره ، المسامت بهمته العيّوق ، الملتذ بخدمة العلم والعلماء ، والمانح غرائب الفضل فضلاء الغرباء ، ذو المجد الجليل الجليّ ، مولانا المرحوم الحاج عمر أفندي الأقشهرلي ، وكان عليه الرحمة ممن يَقري جميع دائرة والد حضرة المشار إليه ويأكل قِراه ، لازالت سحائب الرحمة الإلهية منهلّة عليه ، ومجلّلة مثواه ، وتنقل في الرتب ، ولا بدع في ذاك ولا عجب ، وقد أدرك زمان مشيخة المولى ، وكان إذ ذاك معلم حضرة السلطان ، وله لديه المحل الأعلى ، وسمعت أنه أول مصوبٍ اجتهاده في تعيين حضرة المولى (....)[3] وقائل بأعلى صوت : هذا لعمري أولى في حق الإسلام أن يكون شيخه ، ففيه من حميد الخصال ، مالم يكن في أبي السعود وابن الكمال . إلا أني سمعت أنه لاح آخر الأمر في بدر إخلاصه كلَف ، لكنه لم يرجع عما قاله أولا ووصف ، وهذا من مزيد إنصافه وديانته ، غمره الله تعالى بلطفه وعنايته ، وقد أخبرني بذلك بعض الناس ، فإن يك كاذباً فعليه كذبه .

وثانيهما :

العلامة الذي طار صيته في الآفاق ، ووقع على مزية فضله من العقلاء :

---

(١) السفط : وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء .

(٢) فروق : سبق شرحها بأنها القسطنطينية .

(٣) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

الاتفاق ، الصارم الهندي ، مولانا الشهير بدليّ أمين أفندي ، وقد كان المولى يسعى إليه ، ويجلس للاستفادة بين يديه ، وكان من أخص شركائه العالم الصوفي النقشبندي الخالدي ، ذو الأخلاق المحمدية حضرة يحيي أفندي ، أطال الله تعالى عمره ، ولا طوى عن الطلبة نشره .

وقد أجازه كل من هذين الشيخين إجازة عامة ، على الوجه المعروف في الديار الرومية ، وكذا العراقية ، بين الخاصة والعامة .

● وقد استجزته ـ سلمه الله تعالى ـ بكل ما جازت له روايته ، وصحت له درايته ، فاعتذر بما فيه هضم نفسه ، واقتضاه مزيد تواضعه الذي فاق به أبناء جنسه ، فلم أزل متمسكاً بأذيال الالتماس ، حتى أجازني بغاية لطف وإيناس ، ثم قال ـ سلمه المتعال ـ : أجزني كما أجزت لك ، ولم أخيب فيما أملك أمَلَك ، فقلت : ياسيدي عفواً ، أنا ذرّة في بَرّك ، وقطرةٌ لا دَرّة في بحرك ، وطلبي الإجازة من حضرتكم كان فوق حدّي ، وسوء أدب مني أقدمني عليه فرط وجدي ، فسلك من الفكاهة أحسن مجاز ، وقال : كان امتناعك لأني لست أهلاً لأن أجاز ، فقلت : ياسيدي أستغفر الله ، هذا عند العبد القصور المحال ، فأنّى يخطر في البال أو يخطو إلى خيال ؟ ثم قلت متأدباً : أجزت بما صحت لي درايته ، وجازت لي روايته ، ففطن لأدبي ـ لازال ملاذ ذوي الآداب ـ ، وقال : قل : أجزتك .. إلخ بكاف الخطاب ، فقلت ولساني يتعثر بأذيال الحياء ، وجناني يرجف من هول ذلك الأداء ، ثم دعا لي فقبّلت يديه وشكرت أياديه ، لازال السعد ممدوداً عليه والفخر منحصراً فيه .

● وكما كثر مجيزوه من علماء الأمة ، كثر من جعل منهم عنوان تأليفه اسمه ، ثم قدمه لحضرته العليّة ، لينال بنظره فيه رتبة سَنيّة ، وإن أدناهم قدراً ، وأرداهم فكراً ، العبد الفقير ، ذو الباع الطويل في التقصير ، فقد لخصت منذ أشهر كتاب

الحريري المسمى (درة الغواص ، في أوهام الخواص) ، ونظمت درره في سلك الترتيب ، وكذا لخصت شرحه للعلامة الخفاجي[1] وهذبته فيما عندي أتم تهذيب ، ثم زينت جيد ذلك بدرة اسم حضرة ذلك البحر ، الذي لم يَجُبْه سائلاً قط بنهر ، وقدّمت مسوّدته لحضرته ، فأمر بتبييضه بعضَ كَتَبَتِه ، فاحمرّت وجناتُ سرور فؤادي ، وازرقت وجوه أعدائي وحسادي ، وها أنا ذاكر لك ديباجته ، لعلك تعرف منها كيفيته ، ولا أظنك تقول بعد الاطلاع : ديباجةٌ ولا كتاب ، اللهم إلا إذا كان لك ما في حُجُب طباع أكثر العصريين حجاب[2] . وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي أغنى من شاء ببِدَرِ نعمائه ، عن درّة الغواص ، وأعطاه من بِدَر[3] آلائه ما لا تصل إليه فضلاً عن العوام أوهامُ الخواص .

والصلاة والسلام على واسطة قلادة الأنبياء ، ومن بتوسطه قُلّدوا أمانة الوحي والإنباء ، حبيبه محمد الذي حَماه ، عن أن يحوم الخطأ والخطل حول حِماه ، وعلى آله الذين ما نثرت في مجلس درر كلماتهم النواضر ، إلا وأسرعت من الخدور غواني الإعجاب فرقعن الكُوى[4] بالنواظر .

(١) الخفاجي : أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين ، الخفاجي (نسبة إلى قبيلة خفاجة الساكنة في إقليم البحيرة بمصر ، والتي يرجع نسبها إلى بني عامر بن صعصعة) ، رحل من مصر إلى بلاد الروم ، وولي قضاء سلانيك ثم قضاء مصر ، وله تصانيف كثيرة منها : (ريحانة الألباء) ، في ترجمة بعض معاصريه ، و (شرح درة الغواص) الذي أشار إليه المؤلف . و (خبايا الزوايا بما في الرجال من البقايا) . مجلد في التراجم (٩٧٧ ـ ١٠٦٩ هـ) . (الأعلام ١ : ٢٣٨) .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) بِدَر (بكسر الباء وفتح الدال) : جمع بَدْرة (بفتح الباء وسكون الدال) ، وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ، ويقدم في العطايا ، ومقداره يختلف باختلاف العهود .

(٤) الكوى : جمع كوة ، وهي الفتحة ، والمقصود برقعها : النظر منها .

وعلى أصحابه الذين لم يألوا جهداً في التنبيه على مواطن الغلط ، وقد أبعدوا الشوط ـ ويالله درّهم ـ في رد القريب والبعيد عن مهاوي الشطط .

وبعد :

فيقول عيبة[1] العيوب ، وذَنوب[2] الجرائم والذنوب ، العبد الفقير إلى اللطف القدوسي ، السيد محمود الشهير بابن الألوسي ، أعظم الله تعالى عليه مِنّنه ، وجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه : إني طالما فلقت الصَّدف عن (درة الغواص في أوهام الخواص) لبديع زمانه الحريري ، ولم يكن إذ ذاك ـ ومزيّن السماء بالدراري ـ سوى قريحتي القريحة[3] عشيري وسميري ، فلم أرها وإن أحلّلتُ كالجلّة قدرها ، درةً نقيةً عن كل عيب ، يحق لها أن تُفردَ في حُقّ أو جيب ، فذكرت يوماً وجه ذلك لبعض من كنت أظن في العلم علوّ كعبه ، وأنه الرأس الشامخ إلى الثريا في معرفة حسن الدرّ وعيبه ، فجعل أنفه في قفاه[4] ، واتّبع مَنْ عُنُقه في ربقة التقليد وقفاه[5] ، ولم يعلق إذ ذاك ظُفُر الظَّفر بما أعوّل عليه ، ويُقعد الخصم على عجْزه إذا استندت لدى الخصام إليه ، ثم بعد برهة لاح لي شرح علّامة المتأخرين : الشهاب الخفاجي ، فكان لديّ كالشهاب المضيء في الليل الداجي ، ووجدتني فرحاً كأنما أوتيت قرطيْ ماريه[6] ، وخلتني عاشقاً ترحاً ، واصلتُه بعد فرْط البعد والهجر غانية ، لكن رأيته كالأصل قابلاً للاقتصار والاختصار ، مع

(١) العيبة : الحقيبة .

(٢) الذَّنوب (بفتح الذال) : الدلو الكبيرة .

(٣) قريحتي : طبيعتي التي جبلت عليها ، وملكتي وقدرتي الذهنية ، وجمعها قرائح . والقريحة : الجريحة . والصواب : ترك التاء فيها لأنها فعيل بمعنى مفعول . جارية على من هوله .

(٤) يعني أنه كره مقالته ولم يوافق عليها .

(٥) قفاه : اتبعه .

(٦) مارية : جدة الغساسنة ، وبقرطيها يضرب المثل .

بقاء مايحصل به الاعتبار[1] والاستبصار ، واتفق أن سارت بي سفن التقادير الإلهية ، حتى رست بي على ساحل خليج القسطنطينية ، وكان كلا الكتابين رفيقي ، في كلٍّ من محالّ إقامتي وطريقي ، فرغبت في ذلك ، مع أني غريب استوى عليه في الهم ليله ونهاره ، ومن الغريب أن تسلم من الوهم. والعثار أفكاره وأنظاره ، عادلاً عن ترتيب الأصل ، وأظنه عدولاً من حزْن إلى سهل ، وليس الأمر منحصراً فيما سلكته ، بل لعل غيره أحسن منه لكن الأمر ماتركته ، ضاماً إلى ذلك زيادات يسيرة ، دعا إليها المقام ، فزدتها وإن كانت حقيرة ، وسميت المتن : (نظم درة الغواص ، في قلائد عرائس المناص) والشرح : (غاية الإخلاص ، بتهذيب نظم الغواص) ، راجياً ممن نظر أن يعذرني إذا وجدني غير مصيب ، فإني عند التحرير عبد كاسف البال غريب ، والغربة - لعمري - كربة ، تسيل - لادَرّ دَرّها - عَرق القِرْبة ، أسأل الله تعالى أن يمنحني ومنْ أحبّ السلامة من المحن ، وأن يمنّ على كل منا بالعود قرير العين من كل وجه إلى الوطن ، بحرمة درة تاج الوجود[2] ، ومعدن كل جوهرة فضل وجود ، صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الأعلام ، ماعُلّقت ببنان البيان درة في مسامع الأيام ، وما حنّ إلى الوطن غريب ، واشتاق محب - لا سيما إذا تغازلت أعين الدراري - إلى حبيب ، ثم إني لولا أن كان فؤادي على ساحل يمّ مِلِك طاب أصلاً وزكا ، بل مافتح راءٍ عينه إلا رآه بين البشر من القاف إلى القاف ملكاً خليفة الرحمن في خليقته ، وظله المبسوط على سَكنة بسيطته ، مَن أحيا الله تعالى في أيام دولته مااندرس من معالم الإسلام ، وأحكم بنظامه الملّة والدولة أتمّ إحكام ، ومهّد بما شرح له صدره قوانين العدالة حتى كادت ترعى الشاة مع الذيب ، ولا تحذر الليثَ الحرد على مزيد ضعفها ذاتُ الكف الخضيب ، حضرة أمير المؤمنين

(١) في الأصل : الاعتاد .

(٢) يتوسل بجاه الرسول ﷺ ، وقد أشرنا إلى حكم ذلك في كلام سابق .

السلطان عبد المجيد خان ، ابن المرحوم السلطان الغازي محمود خان ، متّع الله تعالى المسلمين بطَوْله وطُول حياته ، وأبّد دولته تأبيد آثاره الحسنة في صفائح صحائف حسناته ، ونكّس أعلام أعدائه ، ورفع على كاهل الخافقين ألوية وكلائه وأوليائه ، ولازال مرجع دينه ودولته عارفَ الحكم ، رشيد الرأي والفعل في كل أَمَمٍ[1] : لَمَا فُهت[2] ببنْتِ شفة ، ولأشكل عليّ الفَرق في فَروق[3] بين الدّرة والخَزفة ، فأملّى بدُرر إحسانه فتح فمي ، وأجرى في ميادين التحرير أدهم قلمي ، وحاشاه أن يخيّب أمل مثلي ، وقد وفدت عليه من أقصى ممالكه بما لم يفد به أحد قبلي ، لازالت أيام دولته غرر الأيام ، ودررُ نعمته حُليّ العلماء الأعلام ، ولّما أن تم نظمه ، واستقر في رقيم الختام رقمه ، وشّحته باسم حضرة مولى استوى على عرش المشيخة الكبرى ، فأطّ[4] لجلاله وخفض جناح شفقته العظمى ، فحطّ كلٌّ رحله في ساحة أفضاله ، المجد الذي لو تجسد علمه لكان محدد الجهات ، والجدّ في مرضاة ربه - جل شأنه - حتى أعجب جِدُّه جَدّه سيد الكائنات ، مع إحراز خلائق[5] ، استعبدت أحرار الخلائق ، وجمع أفراد مآثر ، شقّت من الحاسدين حلاوتها : مرائر ، فهو واحد الدنيا ، والثاني وسادةَ المجد على منصة المشيخة العليا ، شيخ الإسلام وولي النعم ، والمغرد هزار الحق على أفنان أقلامه بنغم : لا ، ونعم ، عارف حكمةٍ لاتنالها أيدي الأفكار ، والمسلسل من بيت عصمة انقطعت دونها أمانيُّ الأبرار ، لازالت الملة المحمدية مبتهجة بعباداته ، ولا برحت الدولة العليّة منتهجة سبل إشاراته .

انتهت الديباجة ..

(١) الأمم (بالفتح) : القصد والوجهة .

(٢) لما فهت - الخ : جواب قوله : ثم إني لولا .. إلخ .

(٣) فروق : سبق تفسيرها .

(٤) أطّ : حن . ومصدره : الأطّ والأطيط .

(٥) خلائق : صفات . والخلائق الثانية : الناس .

● وكتبت في آخر الكتاب ما هذا نصه :

وليكن هذا آخر ما أردنا جمعه في هذا المختصر ، مع تفرق البال من خفايا الهموم في بوادي السفر ، والحمد لله على أن كانت إقامتي في سفري تحت ظلال حضرة شيخ الإسلام ، وعارف حكمة أحكمتها يد العصمة عن أن تشوبها أوهام الخواصّ أيّ إحكام ، فمن ذوارف أياديه ـ أيّده الله تعالى ـ رشّح بما جرى فكري ، ومن عواطف معاليه ، ـ أيده الله سبحانه ـ انشرح لما ترى صدري ، فهاك مختصراً هو قطرة من حياضه ، وزهرة من زهرات رياضه .

حكت معانيه في أثناء أسطره آثاره البيض في أحوالي السود

وقد حُلّي بحلية التمام ، وجُلّي على منصة الختام ، في ثاني شهر ربيع الأول سنة ألف ومائتين وثمان وستين ، من هجرة الرسول الأكمل ، صلى الله تعالى وسلم عليه ، وعلى آله وصحبه ذوي المجد والشرف ، صلاة وسلاماً دائمين ما انفلق عن دوة الغواص الصدف .

انتهى ..

وربما يُظن أن بين بعض عباراته وبعض عبارات الديباجة تناقضاً فيدفع بواسطة التأمل ، فتأمّل . ! وعلى الله تعالى في الحقيقة المعوّل .

● وبالجملة قد أوتي حضرة المولى المترجم ـ حفظه الله تعالى من كل سوء وسلّم ـ ، من الحظ العظيم الأرفع ، والصيت الذي ملأ رباع الدنيا بجهاتها الأربع ، ما لم نسمع به في تاريخ لأحد من مشائخ الإسلام ، بل ولا للسلاطين الأجلة العظام ، حيث إنه قد مدح بكل لسان ، واجتمعت على حبه القلوب المتفرقة في البلدان ، وعظّمته الخواص والعوام ، وافتخرت به ـ مع عدم إنصاف كثير منهم ـ العلماء الأعلام ، واستوى في نشر الدعاء له وإهداء الثناء إليه ، مَنْ

حكَم له من الناس ومَن حكَم عليه ، وقد كاد يوقعني الاطلاع على حظه العظيم ، في الشك بصحة حديثٍ وقفت عليه في بعض الكتب من قديم ، ومعناه : أن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، دعا ربه عز وجل فقال : يا رب اجمع ألسنة عبادك على مدحي ، وقلوبَهم على الرضا عني . فقال الله تعالى : ياموسى ، هذا شيء ، لم أجعله لنفسي ، فكيف أجعله لك . ؟

والمَخْلَصُ إن صح الخبر لا يخفى ، رزقنا الله تعالى وإياكم الاستقامة على مناهج الوفاء ، ومباهج الصفاء .

[بعض نظراته العلمية]

هذا ولنذكر الآن شيئاً من أبحاثه العلمية ، ولنجمع قطرات من رشحات أفكاره القدسية ، ليدل ذلك بالمطابقة على تضمن حضرة المولى علوماً جمة ، والتزامه التحقيق والتدقيق في المسائل المهمة .

فمن ذلك ما وجدته بخطه الشريف ، فيما ناولنيه من مجموع له لطيف ، ونصه : قال الفاضل المحقق ، الكامل المدقق ، محمد الأفكرماني[1] ، سقى ثراه صيّبُ العفو الصمداني ، على جزء النبأ[2] للعلامة النحرير بلا مساوئ ، الإمام القاضي البيضاوي[3] ، عليه الرحمة ، ما كشف الغمة ، عند تفسير قوله تعالى :

---

(١) الأفكرماني : هو محمد بن مصطفى حميد الكفوي ، الحنفي ، المعروف بأفكرماني ، توفي قاضياً بمكة سنة ١١٧٤ هـ ، من تصانيفه : (آداب الكفوي) ، و (تعريفات الفنون وتراجم المصنفين) و (حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوي) ، و (حاشية على شرح القازآبادي) وغيرها . (هدية العارفين ٢ : ٣٣٢) .

(٢) في الأصل : (البناء) وهو تصحيف واضح ، لأن المقصود جزء (عمّ) .

(٣) البيضاوي : عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي أبو سعيد ، ناصر الدين ، البيضاوي ، (نسبة إلى مدينة البيضاء ، قرب شيراز ، بفارس) ، ولي قضاء شيراز مدة ثم رحل إلى تبريز وتوفي بها سنة ٦٨٥ هـ ، من تصانيفه : (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، المعروف بتفسير =

﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[1] : فإن قيل : هذه الزيادة إن كانت غير مستحقة كانت ظلماً ، وإن كانت مستحقة كان تركها في أول الأمر إحساناً ، والكريم لا يليق به الرجوع في إحسانه . فالجواب : أنها مستحقة ، وترك المستحق في بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط . انتهى ..

فكتبت على حاشية قوله ، بعون الله[2] تعالى وحوله : هذان السؤال والجواب دائران على ملاحظة كون العذاب هنا اثنين ، عذاب ناقص واقع أولاً ، وعذاب زائد واقع بعده ، ويمكن الجواب بملاحظة كون العذاب واحداً ، بأن ما استحقوه عذاب مستمر متزايد أبدي ، فلا يتصور وقوع ذلك إلا بأن يكون الجزء الواقع منه ثانياً أزيد من الواقع أولاً ، وهذا مما اقتضاه الطبع فلا تعدد حتى يرد السؤال ، على أن التلبّس بالجزء بنيّة تحصيل الكل تلبس بذلك الكلّ ، وذلك شبيه بالكلي الطبيعي الذي لا تحقق له في الخارج إلا في ضمن جزئياته ، فمتى تحقق شيء منها ، تحقق هو في ضمنه ، قليلاً كان أو كثيراً ، وهذا الجواب مما منحني به المولى سبحانه من فيضه القدسي ، وفضله الأُنسي ، فله الحمد على ذلك ، وأسأله تعالى سلوك أحسن المسالك .

انتهى كلامه الرباني ، منقولاً من خطه النوراني ، وفي تفسيرنا : (روح المعاني) ما يتعلق بهذا المقام ، والله تعالى ولي التوفيق والإلهام .

ومن ذلك ما نصه أيضاً :

قال الإمام الفائق في عصره على الحاضر والبادي ، العلامة أحمد

= البيضاوي ، وهو الذي أشار إليه المؤلف ، و (منهاج الوصول إلى علم الأصول) ، و (الغاية القصوى في دراية الفتوى)في الفقه الشافعي . (الأعلام ٤ : ١١٠) .

(١) [النبأ : ٣٠]

(٢) في الهامش : (بعونه تعالى) .

القازآبادي[1] ، عومل بالغفران ، مانهلّ التهتان ، في أوائل تعليقاته على تفسير جزء النبأ[2] عند تفسير قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون ﴾ : قوله : (أصله عما) ، الأصل ههنا بمعنى الراجح ، لا المبني ، وإلا لزم أن يقرأ على الأصل أيضاً ، ولم يقرأ به إلا عكرمة وعيسى بن عمرو ، انتهى ...

وكتب في الهامش في حذاء قوله : (بمعنى الراجح) : بالنظر إلى ذاته انتهى ...

وكتبت تحت قوله ، وإن كنت بمراحل عن إدراك فضله : أعلم أن هذا القول في غاية الانحطاط ، لائق بالإسقاط ، أولاً[3] : إن الأصل حقيقة في المبني فلا يصرف عنه إلا لداع ، ولا داعي هنا مع ظهور الحقيقة . وثانياً : إنه يلزم أن يكون غير الراجح مستعملاً في القرآن الكريم ، المفخم المفحم كل مصقع فهيم ، ضرورة عدم الراجح مرجوح ، ولا ينفعه القول : إن ذلك بالنظر إلى ذاته ، لأنه لا يفهم غير ماذكرنا من عباراته . وثالثاً : إن الملازمة التي بينها غير مطردة في العلوم ، وذلك لا يخفى على من له أدنى دراية في المنطوق والمفهوم . انتهى ...

ومن ذلك ما نصه أيضاً :

سألني بعض النجباء[4] ، من جحاجح الألباء ، عن نكتة تغيير التعبير ، في

(١) **القازآبادي** : هو أبو النافع أحمد بن محمد بن إسحاق القازآبادي ، الرومي الحنفي ، تولى قضاء مكة ، وتوفي معزولاً عنه في الأستانة سنة ١١٦٣ هـ . من تصانيفه : (تنوير البصائر بأنوار التنزيل ، وتوقير السرائر بأسرار التأويل) ، وهو حاشية على تفسير البيضاوي ، و (نتائج الأنظار وعمل أبكار الأفكار) في شرح الفرائد السنية . (هدية العارفين ١ : ١٧٥) .

(٢) في الأصل : (البناء) وهو خطأ .

(٣) في الأصل : (أما أولا ، إن) ولعدم وجود الفاء في الجواب وعدم تكرار أما استصوبنا ماأثبتناه .

(٤) قال في الهامش : إن هذا السائل هو الشريف علي أخو الشريف عبد المطلب على ما سمعت من حضرة المولى .

قوله تعالى عن الشبيه والنظير : [من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها][1] .. الآية ، فأجبته بما كتبته : إن الحسنة حظ ثابت لصاحبها ينتفع بها فلا يزول عنه أبداً وإن أذنب ، وأما حبط الأعمال والعياذ بالله الملك المتعال ، فلا عبرة به ، لأنه مبنيّ على انهدام الأصل ، فناسب فيها التعبير بالنصيب ، لأنه كثيراً ما يستعمل في الحظوظ الواقعة[2] الثابتة ، كما يقال : هذا نصيب فلان من القدر ، وهذا نصيب الفقير الفلاني من الصدقة .

والسيئة ليس لها قرار ، بل هي عرضة للزوال ومنتظر فيها ، لأنها تزول بالتوبة فناسب فيها التعبير بالكِفْل المشتق من الكفالة اشتقاقاً كبيراً ، إشارة إلى أن كسب السيئة كالكفيل المأخوذ ، فكما أن المدين[3] إذا أدى دينه زال كفيله ، كذلك المسيء إذا تاب محيت عنه السيئة .

واعترض عليه بعض من اجتمعت الفضائل لديه بأن الحسنة أيضاً تزول ؟ كما ورد في الحديث : إن الكلام في المسجد يأكل الحسنة كما تأكل النار الحطب[4] . فدفعته بأن هذا مخصوص بالكلام الدنيوي ، بقرائن ما روي لنا في الآثار من

(١) [النساء : ٨٥]

(٢) في الأصل : (الرافعة الثانية) .

(٣) في الأصل : (المديون) ، وحذف واو مفعول في هذا أفصح . وإبقاؤها لغة .

(٤) قال السَّفَّاريني في كتابه (غذاء الألباب : شرح منظومة الآداب ٢ : ٢٥٧) : وأما ما اشتهر على الألسنة من قولهم : الحديث في المسجد ، وبعضهم يقول : الكلام المباح : يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، فهو كذب لا أصل له .
وحقق ابن عابدين في (حاشية رد المحتار ١ : ٤٤٥) جواز الكلام المباح في المسجد ، واستدل بأن أهل الصُّفَّة كانوا يلازمون المسجد ، وكانوا ينامون ويتحدثون .
وساق ابن حزم في (المحلى ٤ : ٢٤١) الأدلة الناهضة على جواز التحدث في المسجد بما لا إثم فيه . وهذا وذاك مما يؤكد بطلان الحديث الذي أورده المؤلف هنا .

وقوع الأمور الأخروية في المساجد ، كالوعظ والنصح والتذكير ، وقبول غير واحد من الأماجد بلا نكير ، وكثيراً ما ينجر الاجتماع على الكلام الدنيوي إلى ترتب حقوق الناس في الذمة ، من الغيبة والاستهزاء وغير ذلك ، فهذه الحقوق تأكل الحسنة بطريق إعطائها لأرباب الحقوق ، كما هو في كتب العقائد ، وإعطاء مال المدين لدائنه قهراً لا يوجب عدم ثبوت ملكه فيه عند الأماجد ، فيكون إسناد الأكل إلى الكلام ، من قبيل إسناد الحكم إلى سببه حسب المقام ، هذا ما خطر بالبال ، بعون الملك المتعال ، والعلم لديه ، والمعوّل عليه ، تعالى الله علواً كبيراً ، وأحاط بكل شيء علماً ، ولم يزل عليماً خبيراً .

انتهى ...

ومن ذلك ما نصه أيضاً :

ذكر الفاضل محمد أمين الشِّرْواني[1] ، ـ أقال الله تعالى عثراته ، وتجاوز عن هفواته ـ في أواخر تفسيره على سورة الفتح ، عند قوله تعالى : ﴿ يعجب الزرّاع ﴾[2] حكايةً تقشعر عند ذكرها الجلود ، ويطير عن الأجفان الرقود ، وهذا نص ما قال ، وأستغفر الله تعالى من إيراد ذلك المقال : (حكاية لطيفة) ، وهي أنه كان لهارون الرشيد جارية مستظرفة فانتشر يوماً الند[3] بحيث استغلظ فاستوى ، فقال للجارية مختبراً إياها : في أي سورة : ﴿ فاستغلظ فاستوى ﴾ . ؟ ففتحت الجارية سراويلها فقالت : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ . انتهى ...

(١) الشرواني : محمد أمين بن صدر الدين الشرواني (نسبة إلى شِرْوان ، من نواحي بخارى) ، له حاشية على تفسير البيضاوي) مخطوط ، و (تفسير سورة الفتح) مخطوط ، وهو الذي أشار إليه المؤلف . وأقام مدة في الآستانة توفي سنة ١٠٣٦ هـ . (الأعلام ٦ : ٤١) .

(٢) [الفتح : ٢٩] .

(٣) ربما كان كناية عن حالة جنسية .

فأخذتني الغيرة ، واعترتني الحيرة ، فكتبت على الحاشية ، ما يزيل عن القلب الغاشية ، وهذا نصه المتين ، وفص خاتمه الثمين : العجب كل العجب ممن ينتسب إلى العلم ، ويتصف بأدنى لمحة من فهم ، أن يشغل باله بمثل هذه الخرافات المعَجْرَفة ، ويجعلها من الحكايات المستظرفة ، ثم يدرجها في تفسير القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يختشي مما يراه[1] بعد حتفه ، كيف يلعب بكلام المولى المجيد الذي لا رب سواه ، ولا يعبد إلا إياه .. ؟ جعلنا الله سبحانه ممن على دينهم يحافظون ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

انتهى ...

ومن ذلك مانصه أيضاً :

قال العلامة النحرير ، الفاسي الصغير ، فيما له من التعليقات ، على كتاب (دلائل الخيرات) : فإن قيل : نحن أمرنا بالصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم لانصلي عليه .. ؟ بل نطلب من الله سبحانه الصلاةَ عليه ، عليه الصلاة والسلام .. ؟ ثم ذكر أن بعض الحنفية أجاب عن هذا السؤال : بأننا لما رأينا في أنفسنا نقصاناً طلبنا الصلاة من حضرة ذي الجلال ، لتكون على وجه الكمال .

فكتبت في الهامش مانصه :

أقول : هذا السؤال ساقط عن أصل ، ولا بحث في جوابه بفصل ووصل ، لأن الصلاة إما بمعنى الدعاء ، أو طلب الرحمة ، أو البركة ، على اختلاف الأقوال .

(1) في الأصل : (عما يراه) .

فمن قال : اللهم صل عليه . فقد أدى المأمور به بأبلغ ما كان ، لإفادة الصلاة من المولى سبحانه ومن العبد ، على أنه ليس في الأمر ما يدل على أن نقول : نصلّي مثلاً ، كما اتفقوا على أن من قال : الحمد لله . فقد حمد الله تعالى ، لأن الحمد هو الثناء ، وإثبات الثناء له تعالى أيضاً ثناء ، ولو أمِرْنا بشيء بعينه من عند الشارع ، لزم لنا الامتثال بنصه بلا مانع .

انتهى ...

وفي (روح المعاني) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾[1] .. الآية : ما يتعلق بهذا المقام ، فارجع إليه إن أردته .

ومن ذلك مانصه أيضاً :

قال الإمام النحرير ، والهمام الشهير ، ناهج الصراط السويّ ، الشيخ أحمد الحموي[2] ، سقى الله سبحانه بصيب العفو ثراه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ، في شرحه (المشتمل على الفوائد ، على بائية العقائد) للعلامة الألمعي ، والفهامة اليلمعي ، بذكاء ذكائه مجلي الدجنّة ، الشيخ محب الدين محمد بن الشِّحْنة[3] ، سقى

(1) [الأحزاب : ٥٦] .

(2) **الحموي** : أحمد بن محمد بن علي الفيومي (نسبة إلى الفيوم بمصر ، مكان ولادته) ، لغوي اشتهر بكتابه (المصباح المنير) ، ورحل إلى حماة فقطنها فنسب إليها . مات حوالي سنة ٧٧٠ هـ . (الأعلام ١ : ٢٢٤) .

(3) **ابن الشحنة** : هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ، محب الدين أبو الفضل الحلبي (٨٠٤ ـ ٨٩٠ هـ) ، ولد في حلب ، وأخذ عن علمائها كالبدر بن سلامة ، ورحل إلى دمشق والقاهرة وأخذ عن أعيانها ، وولي قضاء حلب ، ثم قضاء الحنفية بمصر ، من تصانيفه : (شرح العقائد) الذي أشار إليه المؤلف ، و (ترتيب مبهمات ابن بشكوال) ، وقد خلط صاحب الأعلام بينه وبين والده المعروف بابن الشحنة الكبير (٧٤٩ ـ ٨١٥) .. (البدر الطالع ٢ : ٢٦٤) .

الله تعالى ثراه من مَلثّ الغفران ، بأغدق تهتان ، وأحلّه بحبوحة فراديس أعلى الجنان ، عند قول الناظم في بيان صفة العلم :

يرى حركات أنملةِ الذباب :

الأنملة : واحدة الأنامل ، وهي طرف الأصبع ، والذباب : معروف . غير أني لم أقف في كلام أحد غير المصنف على أن للذباب أنامل ، فلينظر .

فكتبت في هامش ماقال : بعون المتعال :

اعلم أن إثبات الأنملة للذباب لايحتاج إلى تصريح به في كتاب ، لأن المقصود بيان شمول علمه تعالى على الأشياء الخفية ، التي يعجز عن الاطلاع عليها العقول البشرية ، وفي مثل هذا الموضع يقبل الفرض في العبارة ، والتحول إلى طرف التجوز في الاستعارة[1] ، كإثبات الأظفار للمنية ، وذلك جائز عندهم بلا هرية ، على أن مقتضى العقل إن ثبت له أصابع ، لتصرّفه فيما يقع عليه وتناوله منه حيث لا مانع .

انتهى ...

ومن ذلك مانصه أيضاً :

قال صاحب (منبّه المصلّي) في باب صفة الصلاة : لو سجد ولم يضع قدميه على الأرض لا يجوز ، ولو وضع إحداهما جاز . قوله : (ولم يضع قدميه) أعم من رفعهما ورفع إحداهما ، فأراد أحد الخاصين ، أعني رفعهما مجازاً ، والقرينة عليه قوله فيما بعد : (ولو وضع إحداهما جاز) ، فلا منافاة بين قوله كما زعمه بعض الأذكياء ، وقد سبقه في ذلك من السلف بعض النبلاء ، وإنما لم يقل : ولو سجد ولم يضع إحدى قدميه لا يجوز ، مع إفادته المقصود على الاختصار ، ليفيد أن وضع

(1) في الأصل : (التجوز والاستعارة) .

القدمين متفق عليه وأن فيه الكمال ووضع إحداهما مختلف فيه ، وأنه أدنى مايجوز به السجدة .

هذه خلاصة ماخطر بالبال ، بفيض الملك المتعال .

انتهى .

ومن ذلك مانصه أيضاً :

قال صاحب القاموس : النموذج بفتح النون : مثال الشيء ، معرّب ، والأنموذج لحن . انتهى .

وكتب على الهامش العلامة الفهامة ابن قاسم العبّادي[1] ، بلّ ثراه صيّبُ العفو الحادي مانصه :

قوله : (والأنموذج لحن) والفقهاء يعبرون بالأنموذج ، فيلزم أن يكون لحناً فتأمل ، انتهى .

فتطفل الفقير ، وكتب تحت قوله الخطير ، موضحاً كلامه ومبيناً مرامه مانصه :

قوله : (فيلزم أن يكون لحناً) ، لعله إشارة إلى الاعتراض بأن الفقهاء هم خدَمة الشرع المبين ، وأمناء المسلمين ، فكيف صدور هذا منهم يتصور ..؟ وذاك أمر منكر .

وقوله : (فتأمل) : إشارة إلى الجواب بأنهم أمناء في حفظ الشرع الشريف

(1) **العبّادي** : هو أحمد بن قاسم الصباغ العبادي ، المصري الشافعي الأزهري ، شهاب الدين ، له حاشية على شرح جمع الجوامع في أصول الفقه ، سماها : (الآيات البينات) مطبوع في مجلدين ، و (شرح الورقات لإمام الحرمين خ) ، مات بمكة مجاوراً سنة ٩٩٢ هـ . (الأعلام ١ : ١٩٨) .

واستخراج مسائله على نهج الصواب . وتبليغها بلا ارتياب ، ولا يلزمهم البحث عن كل مالا دخل له في الفقه ، كالغوص في حقائق الألفاظ اللغوية الغير الداخلة فيه المستعملة على سبيل الآلات ، بل يمشون فيها على المتعارف أثناء المخاطبات ، ولا يقدح في منصبهم الأفخم ، لأنه التزام مالا يلزم ، وهذا بعد تسليم كونه لحناً عند عامة الفحول ، ومصرّحاً في النقول ، وقد ذكره الإمام الكبير الشيخ العلامة أحمد الفيومي في مصباحه المنير ، من غير تنبيه ، وجعل النموذج لغة فيه ، ثم قال : قال بعض الأئمة : هو مثال الشيء الذي يعمل عليه ، وهو تقريب نموذجه[1] ، وقال : الصواب نموذج ، لأنه لا تغير فيه بزيادة .

انتهى .

ومن ذلك ما نصه أيضاً :

لما رجعت من الحجة الرابعة ، بعد اقتطافي من أثمار رياضها اليانعة ، ووصلت إلى ثغر الإسكندرية ، وبي زناد الأنس وريّة ، اجتمعت بصاحبي الألمعي ، وصديقي اليلمعي ، زهر الروض الأُنسي ، السيد محمد الصفاقسي[2] كان الله تعالى له ، وبلغه غاية ما أمّله ، فأخبرني أن بعض الأذكياء ، الحاكي سناءً ذكائه سنى ذُكاء ، أورد عليه ، مختبراً ما لديه ، في أول (رسالة خلاصة الحساب) عند قول المؤلف عمدة الأنجاب : (نحمدك يا من لا يحيط بجميع نعمه عدد) : أنه قاصر على إفادة المقصود مدى المدد ، لكون الواحد غير عدد عند أهل الحساب ، حيث عرفوه بما ساوى نصف مجموع حاشيتيه ، فيكون أول الأعداد عندهم : اثنين ، فيبقى احتمال إحاطة الواحد بلا مَيْن[3] ، فعجز عن إزالته ، وأُلجم بمقالته ، فترجى مني كيف الجواب ، والتجمل في الخطاب ..؟

---

(١) في الأصل : (نموذه) .

(٢) الصفاقسي : لم أعثر على ترجمته .

(٣) المَيْن (بفتح الميم) : الكذب .

فقلت مسعفاً لمرامه ، وكاشفاً لغامه : إن الشروع في الديباجة أول دخول قبل تعلم الاصطلاح ، فيلزم أن تحمل ألفاظ الدبابيج على المعاني اللغوية الفصاح ، لأنها هو المتعارف المشهور ، كما قرروا في المحلاّت المناسبة وزينوا به السطور ، والواحد عدد عند أهل اللغة ، وفي هذا غنية وبلغة ، على أن الواحد عدد أيضاً عند بعض المحاسبين ، وإن كان مرجوحاً ، فاقنع بذلك وكن من الشاكرين .

انتهى .

إلى غير ذلك مما أخبرني - حفظه الله تعالى - أنه أودعه بخطه في بطون الرسائل ، ولم يتأتَّ إخراجه لكثرة الغوائل ، من رعاية جليس وإمضاء فتوى سائل .

[مجالسه العلمية]

هذا ، وقد جرت في مجلس الشريف بحار أبحاث ، يعرف فيها فكر العالم العائم ، لكنه إذا استغاث بذلك الحَبْر البحر أغاث ، وقد ذكرت جميع ذلك في (نزهة الألباب) فمن وقف عليه رأى العجب العجاب .

وقد كان - سلمه الله تعالى - يحب العلم وأهله ، ويتمنى أن لا يكون سواه شغله ، وكم رأيته يتنفس الصعداء على أوقات له حلَت ومرّت ، وجلّت فخلت وما استمرت ، حيث كانت الفواكه العلمية ، أقواتاً لهاتيك الأوقات ، والفكاهات الأدبية ، نُزُلاً لما يمر به من ضيوف الساعات ، ومجلسه اليوم مع هذا غاصٌّ في كثير من ساعاته بالمباحث العلمية ، ولا زال - سلمه الله تعالى - ينتهز الفرصة متى وجد أهلاً لكلماته فيحشو سمعه من درره البهية .

خاتمة

وبالجملة هو آية الله تعالى الكبرى ، ونعمته عزّ وجلّ العظمى ، لم تسمح بمثله الأدوار ، ولم تسمع كفضله آذان التواريخ منذ أعصار ، فنسأل الله تعالى أن يديم دِيَم بركته على العموم ، ويحيي بوابل غيرته وهمّته ماصوح من روض العلوم ، ولولا صبوتي بصبْية لي كأفراخ القطا ، تقصّر منهم في قضاء أقصر مصلحة لهم : الخطى ، وكلهم ينتظرون عَـوْدي ، حيث لا عكاز لهم في أمر دنيـــاهم غير عُودي ، لأقمت في رباع حضرته ، ولقمت بين الأتباع على ساق خدمته ، ألتقط درر آثاره ، فأنظمها لجيد الأيام عقوداً ، وأقتطف زهر أخباره ، فأنثرها في رسائلي لأنوف الأعلام وروداً ، ومع ذا فأنا حيث حللت عاقد بناني على قلم تحرير فضائله ، وناثر ما يستنشقه سمعي من ريّا الروايات عن رياض شمائله ، ولي الفخر في خدمة حضرة شيخ الإسلام ، ولعمري إنها لكأس الخدمات خير ختام ، وأحمد المولى سبحانه على فضله الأعم ، وأصلي وأسلم على حبيبه الذي بدأ به وختم ، وعلى آله وأصحابه الكرام ، الذين لا تنتهي تراجم فضائلهم . أو ينتهيَ الكلام .

[انتهى الكتاب بحمد الله]

* * *

[خاتمة الكاتب]

بقلم الفقير إلى مولاه عز وجل : متولّي زاده عبد الرحمن أفندي محمد محسن الدوري البغدادي ، وذلك يوم تسعة من شهر ذي الحجة الحرام سنة تسع وتسعين ومائتين وألف .

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وجنده وحزبه أجمعين إلى يوم الدين .

* * *

مَراجِع التّحقِيق

١ ـ المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر
تأليف محمود شكري الألوسي ـ تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ط دار العلوم بالرياض ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م

٢ ـ أعلام العراق ـ تأليف الشيخ محمد بهجة الأثري ـ المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٥هـ

٣ ـ معجم البلدان ياقوت الحموي ط دار صادر ـ بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م

٤ ـ فصول من تاريخ المدينة علي حافظ ـ شركة المدينة للطباعة ـ جدة

٥ ـ الرحلة الحجازية محمد لبيب البتنوني

٦ ـ مقالات في علم المكتبات ـ محمود الأخرس ـ عمان ـ جمعية عمال المطابع سنة ١٩٧٤م

٧ ـ الفصول في سيرة الرسول للحافظ ابن كثير ـ مقدمة المحققين : الدكتور محمد العيد الخطراوي ، والأستاذ محي الدين مستو .

٨ ـ شرح مسلم للنووي

٩ ـ سنن ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ١٩٧٥م

١٠ ـ مرآة الحرمين ـ إبراهيم رفعت باشا ط الأولى ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٥م

١١ ـ الأعلام ـ للزركلي دار العلم للملايين ط ٥ سنة ١٩٨٠م

١٢ ـ معجم المؤلفين عمر رضا كحالة ط مكتبة المثنى ودار إحياء التراث

١٣ ـ التحفة اللطيفة ـ شمس الدين السخاوي نشر الطرابزوني ١٩٧٩م

١٤ ـ التوسل والوسيلة ابن تيمية ـ المكتبة العلمية ـ بيروت

١٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ط ٢ ١٩٧٩م دار المسيرة ـ بيروت

١٦ ـ أعيان القرن الثالث عشر ـ خليل مردم بك ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

١٧ ـ بغية الوعاة للحافظ السيوطي ـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم ط١ البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٤م

١٨ ـ العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ـ مع الشقائق النعمانية

١٩ ـ الشوقيات ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت

٢٠ ـ البدر الطالع للقاضي محمد بن علي الشوكاني ـ دار المعرفة ـ بيروت

٢١ ـ الشقائق النعمانية ـ طا شكبرى زاده دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧٥م

٢٢ ـ العبر ـ للإمام الذهبي .

٢٣ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ـ محمد بن فضل الله المحبّي ـ دار صادر ـ بيروت .

٢٤ ـ هدية العارفين ـ إسماعيل باشا البغدادي ـ إستانبول سنة ١٩٥١م

الدوريات والمخطوطات

١ ـ مجلة المقتبس ـ العدد السابع

٢ ـ المكتبات العامة بالمدينة المنورة ـ رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الملك عبد العزيز ١٤٠١هـ من السيد حمادي علي محمد التونسي

٣ ـ مخطوطة ديوان الزللي ـ وقد شرعنا في تحقيقه

٤ ـ مخطوطة ديوان البوسنوي ـ وقد شرعنا في تحقيقه

فهرس الأعلام

فهرس الموضوعات

صدر للمحقق

١ - شعراء من أرض عبقر - الجزء الأول - الطبعة الأولى - نادي المدينة المنورة الأدبي

٢ - شعراء من أرض عبقر - الجزء الثاني - الطبعة الأولى - نادي المدينة المنورة الأدبي

٣ - الرائد في علم الفرائض - الطبعة الرابعة - مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) - مؤسسة علوم القرآن (دمشق - بيروت)

٤ - شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج - الطبعة الثانية - مؤسسة علوم القرآن (دمشق - بيروت)

٥ - المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية) - الطبعة الأولى - مؤسسة علوم القرآن (دمشق - بيروت)

٦ - الفصول في سيرة الرسول للحافظ ابن كثير - الطبعة الثالثة - تحقيق بالاشتراك مع الأستاذ محي الدين مستو - مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) - مؤسسة علوم القرآن (دمشق - بيروت) .

٧ - المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية ، لعلي بن بلبان الطبعة الأولى - تحقيق بالإشتراك مع الأستاذ محي الدين مستو مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) - مؤسسة علوم القرآن (دمشق - بيروت)

٨ - عارف حكمة : حياته ومآثره ، أو « شهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم » لأبي الثناء الألوسي (تحقيق) الطبعة الأولى - مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) مؤسسة علوم القرآن (دمشق - بيروت) .